رواية

ميلان كونديرا

@ketab_n
30.3.2015

كتاب الضحك والنسيان

ترجمة: محمد التهامي العماري

المركز الثقافي العربي

www.kutub-pdf.net

ميلان كونديرا

كتاب الضحك والنسيان

@ketab_n
Follow Me

ترجمة: محمد التهامي العماري

المركز الثقافي العربي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ميلان كونديرا

كتاب الضحك والنسيان

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

الكتاب
كتاب الضحك والنسيان

تأليف
ميلان كونديرا

ترجمة
محمد التهامي العماري

الطبعة
الثانية، 2015

الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-418-5

جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي

الناشر
المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 212 522 305726+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: 961 1 343701+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للرواية:
Le livre du rire et de l'oubli
Milan Kundera
Copyright, 1978

دعمت الملحقية الثقافية لسفارة فرنسا
في المغرب حقوق هذا الكتاب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الجزء الأول

الرسائل الضائعة

1

في شهر فبراير من عام 1948 وقف الزعيم الشيوعي «كليمان غوتوالد» على شرفة قصر من العصر باروكي من قصور براغ ليخطب في مئات الآلاف من المواطنين المتجمهرين في ساحة المدينة القديمة. كان هذا منعطفا كبيرا في تاريخ بوهيميا(*). بل لحظة مشهودة وحاسمة في ذلك التاريخ فيه.

كان «غوتوالد» محاطا برفاقه، وبجانبه وقف «كليمانتس». بدأ الثلج يسقط في جوّ من البرد قارص، وكان «غوتوالد» عاري الرأس. فقام «كليمانتس» بنزع قبعته من الفرو ووضعها بعناية على رأس «غوتوالد».

وقد أعادت شعبة الدعاية والإعلام إنتاج مئات آلاف النسخ من صورة «غوتوالد» المحاط برفاقه وهو يطل بقبعة الفرو من الشرفة، ويتحدث إلى الشعب. وهكذا بدأ التاريخ الشيوعي لبوهيميا من هذه الشرفة. كل الأطفال كانوا يعرفون هذه الصورة، لكثرة ما شاهدوها في الملصقات أو في الكتب المدرسية أو في المتاحف.

(*) منطقة في أوروبا الوسطى، وهي الآن من المناطق المشكلة لجمهورية التشيك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بعد ذلك بأربع سنوات اتُّهم «كليمانتس» بالخيانة، وشُنق، فقامت شعبة الدعاية بمحو أثره من التاريخ، وبطبيعة الحال من كل الصور الفوتوغرافية. ومنذ ذلك الحين صار «غوتوالد» يظهر وحيدا على الشرفة. ولم يعد يظهر حيث كان يقف «كليمانتس» سوى حائط القصر الفارغ. ولم يبق من «كليمانتس» سوى قبعته على هامة «غوتوالد».

2

نحن في سنة 1971 حين قال «ميريك»: نضال الإنسان ضد السلطة هو نضال الذاكرة ضد النسيان.

كان يريد بذلك أن يبرر ما كان يسميه أصدقاؤه تهورا: إذ كان يواظب على كتابة مذكراته، وحفظ مراسلاته، وتدوين كل النقاشات التي تدور في كل الاجتماعات حول الوضع وحول كيفية الاستمرار في ظل هذا الوضع. وكان يشرح لهم بأنهم لا يفعلون شيئا يتعارض مع الدستور، وأن التخفي والشعور بالذنب هما بداية الهزيمة.

قبل أسبوع، وبينما كان يشتغل مع فريقه من مركّبي أجهزة بورش على سطوح العمارات، نظر إلى الأسفل، فأصابه الدوار وفقد التوازن. تعلق بعارضة غير مدعمة، فسقط، مما استلزم نقله إلى المستشفى. بدا الجرح للوهلة الأولى خطيرا، لكن تبيّن لاحقا أن الأمر لم يكن إلا كسرا عاديا في الساعد. وقال في نفسه بنوع من الرضا إنه سيستفيد من إجازة لبضعة أسابيع، يسوّي فيها بعض الأمور التي لم يكن يجد الوقت للاهتمام بها حتى ذلك الحين.

وهكذا انتهى به الأمر إلى تبني رأي أصدقائه الذين كانوا أكثر حذرا منه. ولئن صحّ أن الدستور يضمن حرية التعبير، لكن القوانين تعاقب كل ما يمكن أن يمس بأمن الدولة. ولا أحد يعرف متى تصرخ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الدولة بأن هذا الكلام أو ذاك يمس بأمنها. لذلك قرر نقل المستندات التي تعرِّضه للخطر إلى مكان آمن.

لكنه كان يريد أن يسوي هذه القضية مع «زدينا» أولا، فهاتفها في المدينة التي تقطن بها، والتي تبعد عن براغ مائة كيلومتر تقريبا، غير أنه لم يوفَّق في العثور عليها. وقد ضيّع أربعة أيام محاولاً الاتصال، ولم ينجح في التكلم معها إلا البارحة، فوعدته بانتظاره ظهيرة ذلك اليوم.

غير أن ابن «ميريك» ذي السبعة عشرة ربيعا اعترض عليه، ونبهه إلى «أنه لا يقدر أن يسوق بذراع مجفصنة»، وكان فعلا غير قادر على السياقة، لأن اليد المكسورة المشدودة إلى عنقه، والمتدلية على صدره، كان يتعذر تحريكها، وبالتالي كان عليه أن يفلت المقوَد كلما أراد تحويل السرعة.

3

تعود علاقته بـ«زدينا» إلى خمس وعشرين سنة خلت، وهي مرحلة لم يتبق له منها إلا بعض الذكريات.

بينما كانا ذات يوم على موعد، أخذت تمسح عينيها بمنديل وتنتحب، فسألها عما بها، فأجابته بأن واحداً من الشخصيات الروسية الكبيرة توفي أمس يُدعى «جدانوف» أو «أربوزوف» أو «ماستوربوف». بناء على ما ذرفت من دموع، يبدو أن موت «ماستوربوف» أثّر فيها أكثر من موت أبيها.

أيمكن أن يكون ذلك هو ما وقع حقّا؟ ألا يصحّ أن يكون حقده الحالي هو الذي جعله يتوهم كل ذلك النحيب على موت «ماستوربوف»؟ كلا، لقد حصل ذلك البكاء بالتأكيد؛ لكن من الثابت أنه نسي الآن الظروف المباشرة التي جعلت ذلك البكاء واقعيا وممكن التصديق، وأن ذكراه أصبحت غير محتملة مثل صورة كاريكاتورية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت كل ذكرياته عنها على هذا النحو: يكونان عائدين معا بالترامواي من الشقة التي مارسا فيها الجنس لأول مرة. (تتنبه «ميريك» بنوع من الرضا إلى أنه نسي مضاجعته لها، وأنه لا يستطيع تذكر ذلك ولو لثانية). هي جالسة قبالته في زاوية على المقعد، وكانت تبدو أضخم منه وأصلب (لأنه كان ضئيلاً وهشا)، وكان الترامواي يهتز. بدا وجهها مقطماً وصارما، تظهر عليه معالم الشيخوخة بشكل لافت. وحين سألها عن سبب صمتها، أخبرته أنها لم تكن راضية عن الطريقة التي تحابا بها، وقالت إنه جامعها كما يفعل المثقفون.

كانت لفظة مثقف في العرف السياسي آنذاك شتيمة، إذ تطلق على من لا يفهم الحياة، واختار الانفصال عن الشعب. كل الشيوعيين الذين شنقهم رفاقهم، كانوا ينعتونهم بهذه الشتيمة. كان يشاع أنهم يهيمون في الفضاء بخلاف الآخرين الذين يسيرون بخطى ثابتة على الأرض. ونتيجة لذلك كان من العدل منعهم من وضع أرجلهم على الأرض عقابا لهم، وتركهم معلقين فوق الأرض قليلا.

لكن، ماذا قصدت «زدينا» حين اتهمته بمجامعتها على طريقة المثقفين؟

لا شك أنها كانت غاضبة عليه لسبب ما. ومثلما كانت قادرة على تلوين علاقتها المغرقة في الخيال (علاقتها بـ«ماستوربوف» الذي لم تعرفه قط) بأشد العواطف حسية (المجسدة في الدموع)، فإنها كانت قادرة بالمقابل على أن تمنح أشدّ الأفعال حسية دلالةً مجردة، وعلى أن تعبر بتسمية سياسية عن استيائها.

4

نظر «ميريك» في مرآة السيارة، فلاحظ أن نفس السيارة السياحية ما تزال تتعقبه. لم يكن يخامره شك في أنهم يراقبونه، على الرغم من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنهم تصرفوا إلى حدود تلك اللحظة بسرية مثالية. غير أن تحولا جذريا في مسلكهم وقع ذلك اليوم: فقد كانوا يقصدون إشعاره بحضورهم. وراح يفكّر في أمره.

وكان يوجد في الريف خارج براغ، على بعد عشرين كيلومتراً تقريبا، مكان واسع مسيّج، وخلفه توجد محطة وقود فيها ورشات لإصلاح السيارات. كان له صديق يشتغل هناك، فقصده ليستبدل مفتاح تشغيل سيارته الذي أصيب بخلل. أوقف السيارة أمام المدخل المسدود بحاجز مخطط بالأحمر والأبيض، تقف بجواره امرأة بدينة. انتظر «ميريك» أن ترفع الحاجز، لكنها اكتفت حين وصل، بالتحديق فيه بإمعان دون أن تحرّك ساكناً. ضغط على البوق، لكن بلا جدوى. أخرج رأسه من باب السيارة، فبادرته المرأة: «ألم يوقفوك بعد؟»

أجابها «ميريك»: «لا لم يعتقلوني بعد، هلا رفعتِ الحاجز؟»

تفرّست المرأة فيه لبضع ثوان ساهمة، ثم تثاءبت وعادت إلى كشك الحراسة حيث كانت تجلس خلف طاولة، وأشاحت عنه بوجهها.

ترجّل من سيارته ودار حول الحاجز، ثم توجه إلى الورشة باحثا عن صديقه الميكانيكي. عندما عثر عليه، رافقه إلى السيارة، ورفع له الحاجز ليُدخلها (فيما كانت المرأة البدينة جالسة في كشكها، محافظة على نظرتها الساهمة).

قال له الميكانيكي: «كل هذا لأنك ظهرت كثيرا في التلفزة. كل النساء هنا تعرّفن عليك.»

سأله «ميريك»: «من تكون هذه؟»

أخبره الميكانيكي بأن هذه المرأة ما زالت تعتبر أن غزو الجيش الروسي لبوهيميا واحتلاله للبلد هو علامة على حياة خارجة عن المألوف. وقد أثارها أن ترى الناس الذين يحتلون مراتب أعلى منها (والناس كلهم كانوا يحتلون مراتب أعلى منها) كانوا يُحرمون من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سلطتهم ومكانتهم وشغلهم وأيضاً من خبزهم لأتفه الأسباب، فأخذت تمارس الوشاية طوعا.

«وكيف حصل أن ظلّت حارسة؟ ألم تحصل على ترقية؟»

ابتسم الميكانيكي وقال: «إنها لا تعرف كيف تعدّ إلى العشرة. لم يجدوا لها منصبا آخر، وأقصى ما يمكن أن يفعلوه هو أن يؤكدوا لها حقّها في الوشاية. هذه هي الترقية بالنسبة لها!»

رفع الميكانيكي الغطاء، وألقى نظرة على المحَرِّك.

وفجأة تنبّه «ميريك» إلى رجل كان يقف بالقرب منه، التفت إليه، كان يرتدي سترة رمادية وقميصا أبيض برباط عنق، وسروالا بُنيّاً. ويتوّج عنقه السميك ووجهه المنتفخ شعر رمادي متموج وقد اعتُني به. كان يقف بثبات على قدميه، وهو ينظر إلى الميكانيكي المنحني تحت غطاء المحرك المرفوع.

وبعد لحظات تنبه الميكانيكي بدوره إلى وجود الرجل فرفع رأسه وقال: «هل تبحث عن أحد؟»

أجاب الرجل ذو العنق الثخين والوجه المتورّم: «كلا، لا أبحث عن أحد.»

انحنى الميكانيكي من جديد على المحرك، وهو يقول: «كان في ساحة القديس فانسيسلاس شخص يتقيأ، فمرّ به شخص آخر، ونظر إليه بحزن وهز رأسه قائلا: لو تدري كم أقدر وضعك...»

5

سرعان ما حجب اغتيال «ألييندي»(*) ذكرى اجتياح الروس

(*) سالڤادور ألّيندي (1908-1973) كان رئيسا لتشيلي بين 03 نونبر (نوفمبر) 1970 و11 سبتمبر 1973. أطاح به بينوشيه عقب انقلاب عسكري سنة 1973.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لبوهيميا، وأنست مجزرة بنغلادش اغتيال «أليندي»، وغطت حرب صحراء سيناء بضجيجها على تأوهات بنغلادش، وغطت مجازر الكومبودج على حرب سيناء، وهكذا دواليك إلى أن يُنسى كل شيء تماما.

عندما كان التاريخ يسير ببطء، كانت أحداثه القليلة تعلق بسهولة في ذاكرة الناس، فتنسج لوحة خلفية يعرفها الجميع، وتعرض الحياة الخاصة، على تلك الخلفية مغامراتها في فرجة مثيرة . . . أما اليوم، وبعد أن صار الزمن يسير بخطى واسعة، فإن الحدث التاريخي الذي ينسى في ليلة واحدة سرعان ما يتلألأ في الغد على صفحة ندى الحدث الجديد، فلا يعود بذلك لوحة خلفية في سرد الراوي، بل يغدو مغامرة مفاجئة تجري على خلفية الابتذال المألوف للحياة الخاصة.

إن التاريخ يتبخر من الذاكرة، إذ أصبح الناس يتحدثون عن وقائع حدثت منذ بضع سنوات كما لو أنه مرّ عليها ألف سنة. ففي سنة 1939 اجتاحت الجيوش الألمانية بوهيميا، فقضت على دولة التشيك. وفي سنة 1945 دخلت الجيوش الروسية بوهيميا، وأُعيدت تسمية البلد: جمهورية مستقلة. وقد بلغت حماسة الناس أزاء روسيا التي طردت الألمان أن رأوا في الحزب الشيوعي التشيكي ذراعهم الوفية، ومحضوه تأييدهم. وبذلك لما استولى الشيوعيون على السلطة في شهر فبراير 1948، لم يريقوا قطرة دم، ولم يلجأوا لعنف، بل استقبلهم نصف الأمة على الأقل بالتهليل والترحيب والفرح. أما اليوم انتبِهوا: النصف الذي هلّل فرحا كان هو الأفضل والأذكى والأكثر دينامية.

فعلا، ومهما قيل، فقد كان الشيوعيون هم الأذكى، وكان لهم برنامج جليل، وخطة لبناء عالم جديد تماما، عالم سيجد فيه الجميع مكاناً لهم. أما أولئك الذين كانوا يعارضونهم، فلم تكن لهم أحلام كبيرة، بل بضعة مبادئ أخلاقية متآكلة ومضجرة، ينوون تطبيقها لترقيع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الوضع القائم. وهكذا لم يكن غريبا أن ينتصر هؤلاء المتحمسون الشجعان بسهولة على أولئك الحذرين الفاترين، وأن يبادروا فورا إلى تحقيق حلمهم، هذه الفكرة المثالية المتمثّلة في تحقيق العدالة للجميع.

ألحّ على الفكرة المثالية والعدالة للجميع، لأن جميع بني البشر يطمحون منذ الأزل إلى الفكرة المثالية التي تشمل الكل، إلى هذا الحلم المثال، إلى هذه الروضة التي تصدح فيها العنادل؛ إلى مملكة التناغم حيث لا يقف العالَم في وجه الإنسان، ولا يقف الإنسان في وجه أخيه؛ بل حيث يكون العالَم وكل بني الإنسان مقدودين من نفس الأديم. هناك سيمثّل كل واحد نغمة في معزوفة من معزوفات باخ الرائعة؛ ومن يرفض ذلك، سيصير نقطة سوداء لا لزوم لها ولا معنى، يتعيّن سحبها وسحقها كما تُسحق البقّة.

ولما كان بعض الناس قد أدركوا على التوّ بأنهم لا يملكون الطباع الجديرة بالفكرة المثالية، فقد اختاروا الرحيل إلى الخارج. لكن، لأن الحلم المثالي في حقيقته هو عالم للجميع، فقد بدا هؤلاء الذين اختاروا الرحيل، ناكرين، للحلم، وبالتالي، عوض الرحيل إلى الخارج، ألفوا أنفسهم في السجون. وما لبث آخرون، يعدّون بعشرات الآلاف، أن سلكوا الطريق نفسه، وكان بينهم عدد من الشيوعيين مثل وزير الخارجية السابق «كليمانتس» الذي أعار قبعته لـ«غوتوالد». وصارت تظهر على شاشات السينما صور عُشّاق يمسكون بعضهم بأيدي بعض بخجل، لأن محاكم الشرف المؤلفة من مواطنين عاديين كانت تشدّد العقوبة على الزنا. وكانت العنادل تغني، وجسد «كليمانتس» يتأرجح كناقوس معلنا بزوغ فجر الإنسانية الجديد.

هنا ساور تلك الكائنات الشابة الذكية والجذريّة شعور مفاجئ غريب بأنها بَعثَت في هذا العالم الرّحب حركة بدأت تعيش حياتها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الخاصة، ولم تعد تشبه الفكرة التي تصوروها في البداية، كما لم تعد تأبه بهم. عندها أخذت تلك الكائنات الشابة الذكية في الصراخ على حركتهم ومناداتها وتوبيخها ومتابعتها ومطاردتها. ولو قيض لي أن أكتب رواية عن هذه الكائنات الموهوبة الجذريّة لسمّيتها «مطاردة العمل الضائع».

6

أغلق الميكانيكي غطاء السيارة، فسأله «ميريك» عن الأجر الذي عليه أن يؤديه، أجابه الميكانيكي: «لا شيء».

ركب «ميريك» سيارته وهو متأثر. لم تعد له رغبة في مواصلة السفر. كان بودّه أن يبقى مع الميكانيكي وينصت للحكايات الطريفة. انحنى الميكانيكي على نافذة السيارة، وربّت على كتف «ميريك»، ثم توجه إلى كشك الحراسة لرفع الحاجز. وعندما مرّ «ميريك» أمامه، أشار له برأسه إلى السيارة التي كانت مركونة في مدخل المحطة.

كان الرجل ذو العنق الثخين والشعر المتموّج واقفا أمام الباب المشرع، ينظر إلى «ميريك». وكان رفيقه القاعد خلف مقود السيارة يراقبه أيضا. ظل الرجلان يحدقان فيه بوقاحة و من دون حرج، ولما مرّ «ميريك» أمامهما أجهد نفسه ليحدق فيهما بنفس الكيفية. وعندما تجاوزهما، رأى من خلال المرآة، الرجل يصعد إلى السيارة ويتابع ملاحقته.

فكر أنه كان عليه أن يتخلص من تلك الأوراق التي تجلب له ولأصدقائه الشبهة. ولو كان فعل ذلك في اليوم الأوّل بعد تعرضه للحادثة، ومن دون انتظار مهاتفة «زدينا»، لربما كان نجح في نقلها من دون خطر. غير أنه لم يكن بوسعه التفكير إلا في شيء واحد، وهو السفر للقاء «زدينا». والواقع أنه لطالما فكّر في ذلك طيلة سنوات. وقد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اجتاحه منذ بضعة أسابيع شعور لم يعد يقوى معه على مزيد من الانتظار، وأحس أنه أخذ يمشي نحو نهايته بخطى واسعة، وأن عليه أن يبذل قصارى جهده من أجل أن تكون هذه النهاية جميلة وكاملة.

7

انتابه في تلك الأيام الخوالي، عندما قطع علاقته بزدينا (دامت العلاقة حوالي 3 سنوات)، شعور مذهل بالتحرر. وبدأ فجأة ينجح في كل ما يفعل. بعد ذلك بقليل تزوج بامرأة كان جمالها يشعره بالثقة. غير أن حسناؤه ماتت وتركته وحيدا مع ابنه، وحدة كانت تثير اهتمام كثير من النساء وإعجابهن.

في نفس الوقت راح يفرض نفسه في ميدان البحث العلمي. وكان هذا النجاح يحميه، لأن الدولة كانت في أمسّ الحاجة إليه، وهو ما كان يبيح له انتقادها في وقت لم يكن أحد يجرؤ على فتح فمه. وشيئا فشيئا، ومع تزايد نفوذ أولئك الذين يطاردون عملهم ، بدأ «ميريك» يظهر أكثر فأكثر على شاشة التلفزة، وغدا شخصية مرموقة. ومع وصول الروس، رفض التنكر لمبادئه، فطُرد من عمله، وطُوِّق بالمخبرين. لكن هذا لم ينل منه. فقد كان مغرما بمصيره، إذ بدا له سبيل الهلاك نبيلا ورائعا.

افهموني جيدا: أنا لم أقل إنه كان مُغرما بنفسه، بل قلت مغرما بمصيره. وهما أمران متباينان. إذ يشبه الأمر كما لو أن حياة «ميريك» تحررت واتخذت لنفسها فجأة أهدافا خاصة لا تتناسب مع أهدافه هو. بهذا تتحول الحياة في نظري إلى قدر. ففي الوقت الذي لم يكن فيه القدر ينوي حتى تحريك إصبعه الصغير من أجل «ميريك» (لأجل سعادته وأمنه وبهجته وعافيته)، كان هو مستعدا ليفعل كل شيء من أجل قدره (من أجل عظمته وصفائه وجماله وأسلوبه ومعناه الأكثر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حكمة). فقد كان يشعر بنفسه مسؤولا عن قدره، لكن قدره لم يكن - بالمقابل- يعتبر نفسه مسؤولا عنه.

لقد كانت علاقته بحياته مثل علاقة النحّات بتمثاله أو علاقة الروائي بروايته. ذلك أن للروائي حقا غير مشروط في إعادة صياغة روايته كيفما أراد. فإذا لم تعجبه البداية، أعاد كتابتها أو قام بحذفها. لكن وجود «زدينا» ظلّ ينكر على «ميريك» امتيازه كمؤلف. فهي تلحّ على أن تبقى في الصفحات الأولى من الرواية، وتتأبى على المحو.

8

ولكن، لماذا كان يشعر بخجل فظيع من علاقته بـ«زدينا»؟

إليكم التفسير الأسهل: إن «ميريك» من أولئك الذين بادروا مبكّرا إلى مطاردة عملهم، بخلاف «زدينا» التي ظلت دائما وفية للبستان الذي تصدح فيه العنادل. وفي الأزمة الأخيرة كانت من ضمن الاثنين في المائة من الأمة اللذين ابتهجوا واستبشروا بوصول الدبابات الروسية.

هذا صحيح، لكنني لا أعتقد أن هذا التفسير مقنع. لا أظن أنه يمكن الاكتفاء بهذا السبب وحده. فلو كانت ابتهجت بقدوم الدبابات الروسية، لكان تجرأ على شتمها أمام الملأ، ولما أنكر معرفته بها. لقد أجرمت «زدينا» في حقه لسبب آخر أكثر خطورة: لقد كانت بشعة.

لكن، أكان لبشاعتها هذه الأهمية اليوم؟ لاسيما وأنه لم يضاجعها منذ عشرين سنة.

نعم كان لذلك أهمية بالغة: لقد كان أنف «زدينا» يخيم بظله على حياته حتى من بعيد. كانت له منذ سنوات خلت عشيقة جميلة. وذات يوم زارت المدينة التي كانت تسكنها «زدينا»، فعادت غاضبة، وسألته: «قل لي، كيف أمكنك احتمال مضاجعة تلك المرأة الدميمة إلى هذا الحد؟».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فصرّح أنه لم يكن يعرفها إلا من بعيد، وأنكر بشدة أن تكون قد جمعته بها علاقة حميمة. فسِرُّ الحياة الأعظم لم يكن خافيا عليه: النساء لا يبحثن عن الرجل الأوسم، بل يبحثن عمّن عاشر الحسناوات. كان يعلم أن علاقة الرجل بامرأة دميمة يشكل خطأ قاتلا، لذلك أجهد نفسه لمحو آثار «زدينا». وبما أن من يحبون البلابل كانوا يمقتونه أكثر فأكثر، فقد كان يأمل أن تنساه «زدينا» بسرعة وبطيب خاطر، لاسيما أنها كانت تصنع لنفسها موقعا متميزا داخل الحزب.

لكنه كان مخطئا. ذلك أن «زدينا» لم تكن تترك فرصة ولا مكانا دون أن تتحدّث عنه. التقيا ذات مرة صدفة في أحد النوادي، فسارعت إلى إثارة ذكرى توحي بأن علاقة حميمة جمعتهما، فأغضبه ذلك.

وفي مناسبة أخرى سأله أحد الأصدقاء: «إذا كنت تمقت هذه الفتاة، فلماذا كنتما معا في ما مضى؟». فراح «ميريك» يفسر أنه كان حينذاك غرّاً في العشرين من عمره، وبما أنها كانت تكبره سنّاً، فقد كانت مُهابة الجانب، محترمة ومحط إعجاب. وكانت تعرف جميع أعضاء اللجنة المركزية، فكانت تساعده وتؤازره، وتقدمه لشخصيات ذات نفوذ في الحزب!

«لقد كنتُ وصوليا وبليدا!»، ثم أخذ يصرخ «لهذا السبب تعلقت بعنقها، ولم أكن آبه لكونها بشعة!»

9

لم يقل «ميريك» الحقيقة، فـ«زدينا» كانت في مثل سنّه. ورغم أنها ذرفت دموعا كثيرة عند موت «ماستوربوف»، لم تكن لها آنئذ علاقات بالقيادات العليا في الحزب، ولم تكن مؤهلة لاحتلال موقع داخله، ولم يكن بإمكانها تسهيل ذلك للآخرين.

فلماذا اختلق كل هذه الترهات؟ لماذا كان يكذب؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فيما كان يمسك مقود السيارة بيد واحدة، رأى في المرآة العاكسة سيارة الشرطة السرية في إثره، فتوردت وجنتاه فجأة. وتبادرت إلى ذهنه ذكرى غير مُتَوَقّعة: لما عابت عليه حين ضاجعها لأول مرة أساليبه التي تشبه أساليب المثقفين، فقد سعى منذ اليوم اللاحق إلى تصحيح هذا الانطباع، وإظهار عشق عفوي جامح. لا، ليس صحيحا أنه نسي المرات التي ضاجعها فيها! يحضر له هذا الأمر الآن بوضوح: كان يتحرك فوقها بعنف مصطنع مصدرا زمجرة ككلب يلاعب حذاء سيده، وهو يراقب في الآن نفسه (بخَدَر) المرأة الهادئة والتي تكاد تكون عديمة التأثر الممددة تحته.

زمجرت السيارة زمجرتها القديمة التي ما فتئت ترددها منذ خمس وعشرين سنة، وأصدرت ضجة مزعجة تشي بخضوعه واستكانته، وتدلّ على لهفته ومحاباته، تفاهته وبؤسه.

نعم، الأمر هكذا. فـ«ميريك» يفضل أن يُنعت بالوصولي كي لا يعترف بالحقيقة، حقيقة مضاجعة امرأة بشعة، لأنه لم تكن له حظوة عند الحسناوات. فقد كان يقول في سِرّه إنه لا يستحق امرأة أجمل من «زدينا». ولعل هذا الضعف وهذه الخسة هما ما حاول إخفاءه.

صفرت السيارة من أزيز العشق المسعور، مثبتة له أن «زدينا» لم تكن غير الصورة الممسوخة التي شاء بلوغها لكي يدمر فيها شبابه الكريه.

توقف أمام بيتها، فتوقفت خلفه السيارة التي تلاحقه.

10

تحاكي الأحداث التاريخية أحيانا بعضها البعض بلا موهبة. ولكن يبدو لي أن التاريخ في بوهيميا قام بتجربة لم تُختبر من قبل. إذ لم تقف جماعة من الناس (طبقة أو شعب)، كما جرت العادة، في وجه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جماعة أخرى؛ بل ثار الناس (جيل من الرجال والنساء) ضد شبابهم بالذات.

فقد بذل هؤلاء قصارى جهدهم لترويض عملهم الخاصة، وكادوا ينجحون. وفي الستينيات تزايد نفوذهم شيئا فشيئا، ولم تكد تحلّ سنة 1968 حتى تقوّى نفوذهم، ولم يعد لهم منازع. هذه المرحلة تدعى عموما ربيع براغ. وهكذا وجد حماة الفكرة المثالية أنفسهم مجبرين على نزع ميكروفونات التنصّت من الشقق الخاصة، وأُشرعت الحدود، وأخذت النوتات تفرّ من معزوفة «باخ» العظيمة، لتعزف كل منها على طريقتها. لقد عمّت بهجة عجيبة لا تصدق، إنه الكرنفال!

لكن لم تكن روسيا، التي أخذت على عاتقها تأليف معزوفة الكرة الأرضية العظيمة، لتسمح بشرود النغمات. وبذلك أرسلت يوم 21 غشت (آب) 1968 جيشا تعداده نصف مليون جندي إلى بوهيميا. وسرعان ما غادر مائة وعشرون ألف مواطن تشيكي البلاد، وأجبِر خمسمائة ألف تقريبا ممّن بقوا على التخلي عن وظائفهم للالتحاق بورشات ومصانع تقع في مناطق نائية، أو للعمل كسائقي شاحنات؛ أي بعثوا لأماكن معزولة حتى لا يسمع أحد لهم صوتاً على الإطلاق.

وحتى لا تشغل الذكرى السيئة البلادَ عن مثالها البريء المرمَّم، وجب محو آثار ربيع براغ ومجيء الدبابات الروسية اللذين يشكلان بصمة سوداء في التاريخ الرائع. ولهذا يُسدل اليوم ستار الصمت على ذكرى 21 غشت (آب)، وتُمسح أسماء من انتفضوا على شبابهم من الذاكرة بعناية كما يمسح خطأ من واجب مدرسي.

وقد مسحوا «ميريك» أيضا. وهو إذ يرتقي الآن السلم الذي سيفضي به إلى باب «زدينا»، فإنه لا يعدو أن يكون بقعة بيضاء أو قطعة من فراغ محصورة تتسلق السلم اللولبي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

11

جلس قبالة «زدينا» ويده المعلّقة بوشاح تتأرجح على صدره. نظرت زدينا بشكل جانبي لتتلافى التحديق في عينيه، ثم قالت باسترسال: «لست أعلم لماذا جئت، لكن مع ذلك أنا سعيدة بزيارتك. حدّثت بعض الأصدقاء عنك. قلت لهم إنه من غير المعقول أن تنهي حياتك عاملا في ورشة بناء. أنا متيقّنة أن الحزب لم يغلق الباب في وجهك بعد. ما زال الوقت أمامك.»

سألها عما عليه فعله، فأجابت: «عليك أن تطلب المقابلة، افعل ذلك بنفسك. فأنت من عليه القيام بالخطوة الأولى.»

أدرك ما يجري. فهم يبلغونه بأنه تبقّى أمامه خمس دقائق، خمس دقائق أخيرة ليعلن أمام الملأ تراجعه عما قال وفعل. هو يعرف جيدا هذه المساومة، يعرف أنهم مستعدين لمقايضة مستقبل الناس بماضيهم. سيرغمونه على الحديث في التلفزة بصوت خافت شارحا للناس بأنه أخطأ حين ناهض روسيا وناهض البلابل. سيرغمونه على التخلص من حياته ليصبح مجرّد ظل، ويغدو رجلا بلا ماض، وممثلا بلا دور؛ حتى الحياة التي تخلص منها والدور الذي تخلى عنه سيحولونهما إلى ظل، وسيتركونه يعيش هذه الحياة الممسوخة كظِلّ محض.

نظر إلى «زدينا» وتساءل عما يجعلها تتحدث بسرعة وبصوت غير واثق؟ لماذا تنظر إليه جانبيا؟ لماذا تتفادى النظر في عينيه؟

بدا الأمر واضحا. إنها تنصب له فخا، وتنفّذ تعليمات الحزب أو البوليس. مكلّفة بإقناعه ودفعه إلى الاستسلام.

12

غير أن «ميريك» مخطئ! لم يسخّر أحد «زدينا» لاستدراجه. لا!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لا أحد من الكبار يرضى اليوم بمقابلة «ميريك» حتى لو توسّل واستعطف. لقد فات الأوان.

وإذا كانت «زدينا» تدفعه لفعل شيء لإنقاذ نفسه، إذا كانت تزعم أنها تنقل له رسالة أحد الرفاق النافذين في الحزب، فذلك فقط لأنها تشعر برغبة غير مجدية وغامضة في مساعدته بقدر مستطاعها. وهي إن كانت تتحدث بسرعة وتتفادى النظر في عينيه، فليس لأنها تنصب له فخا، بل لأنها عاجزة عن فعل شيء.

ربما لم يكن ميريك يفهمها قط؟ كان دائما يعتقد أن وفاء «زدينا» للحزب راجع لتعصبها له. لم يكن ذلك صحيحاً. فهي ظلت وفية للحزب لأنها كانت تحب «ميريك». ولما تركها، لم تكن ترغب سوى في شيء واحد: أنه هو كان خائناً في كل شيء، وأنها هي كانت مخلصة في كل شيء. فما كان يبدو تعصبا سياسيا لم يكن في الواقع سوى ذريعة، ونموذجاً، وتجليا للوفاء. لم يكن سوى عتاب مرموز لحب فاشل.

أتخيّلها وقد استيقظت في أحد صباحات غشت (آب) مفزوعة من صوت الطائرات المروع. تخرج جارية إلى الشارع، ويقول لها بعض الناس المذهولين إن الجيش الروسي احتلّ بوهيميا. تنتابها نوبة من الضحك الهستيري! فقد جاءت الدبابات الروسية لمعاقبة كل الخونة! ستشهد أخيرا هلاك «ميريك»! ستراه أخيرا راكعا! ستتمكّن أخيرا من أن تنحني عليه انحناءة من يعرف معنى الإخلاص، وتساعده.

قرر «ميريك» أن ينهي المحادثة التي أخذت منحى سيئاً. «تعلمين أنني كتبت لك في الماضي عددا من الرسائل. أريد أستردادها.»

رفعت رأسها باستغراب: «رسائل؟»

– نعم، رسائلي. لقد كتبت لك العشرات من الرسائل في تلك المرحلة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- نعم، رسائلك، أعرف ذلك.

وفجأة كفّت عن تجنب النظر إليه، وحدقت في عينيه. أحس «ميريك» بشعور مقرف كما لو أنها تنظر في عمق روحه، فترى ما يريد ولماذا يريده. فردّدت: «رسائلك، نعم رسائلك، أعدت قراءتها مؤخرا. تساءلت كيف تفجرت عواطفك.» ردّدتْ «تفجرت عواطفك» عدة مرات. لم ترددها بسرعة بل بتأنٍّ، وبصوت رزين كما لو كانت تصوِّب نحو هدف لا تريد أن تخطئه. ولم تحوّل عينيها عنه لتتأكد من أنها أصابت الهدف.

13

كانت يده المجبوصة المعلقة على صدره تتأرجح، ووجهه شديد الحمرة كمن تلقى صفعة للتوّ.

نعم! هذا أكيد؛ فقد كانت رسائله مغرقة في العاطفية. وكان عليه أن يثبت بأن سبب تعلقه بهذه المرأة لم يكن بؤسه وضعفه، بل الحب! فالعشق الشديد وحده يستطيع أن يبرر علاقته بهذه الفتاة البشعة إلى هذا الحد.

«كنت تكتب لي بأنني رفيقتك في المعركة، هل تذكر ذلك؟».

ازداد احمراره: أهذا معقول؟ يا لسخافة كلمة معركة هذه! ماذا كانت معركتهم؟ لقد كانا يحضران اجتماعات لا تنتهي حتى تتقرح أردافهما، ولكنهما حين كانا يقفان للتعبير عن آراء متطرفة (الانتقام من العدو الطبقي، أو إعادة صياغة هذه الفكرة أو تلك بعبارات أجلى وأوضح)، كان يتهيأ لهما أنهما يشبهان شخصيات المشاهد البطولية: يسقط هو أرضا والمسدس في يده، وكتفه ينزف دما، أما هي فتشهر مسدسها وتتقدم إلى حيث لم يستطع هو الوصول.

في هذه المرحلة كان وجهه ما زال مكسوّا بحَب الشباب، وحتى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يخفيه كان يضع على وجهه قناع الثورة. كان يحكي لجميع من يلقاهم بأنه قطع الصلة بأبيه، ذلك الفلاح الثري. كان يقول إنه يبصق في وجه التقاليد الريفية العتيقة المرتبطة بالأرض والملكية، وكان يصف مشهد نزاعه مع أبيه ومغادرته للبيت الأبوي. لكن لم يكن في كلامه عن ذلك كلّه مثقال ذرّة واحدة من الحقيقة. والآن حين ينظر إلى الخلف لا يتراءى له غير الكذب والافتراء.

قالت «زدينا»: «في ذلك الحين كنت رجلا آخر، مختلفاً عمّا أنت عليه اليوم.»

تخيل نفسه حاملا علبة الرسائل، يقف أمام أول مكبّ قمامة، يأخذ الرسائل بين أنامله بحذر وكأنها ورق ملوث، ثم يرمي بها وسط الأزبال.

14

تسأله «زدينا»: «فيم تصلح لك هذه الرسائل؟ لماذا تريدها بالتحديد؟»

لم يكن يجرؤ على أن يقول لها بأنه يريد رميها في مكبّ القمامة. يخاطبها بصوت حزين شارحا بأنه بلغ السن الذي يتعين فيه على المرء أن ينظر إلى الوراء. (كان يشعر بالانزعاج وهو يقول لها هذا، وكان يدرك أن حكايته العجيبة ليست مقنعة، فانتابه بالخجل.)

نعم، هو الآن ينظر إلى الوراء لأنه نسي الشخص الذي كانه في الشباب. هو يعلم أنه أخفق، لهذا يريد أن يعرف نقطة الانطلاق، ليكشف أين كان الخطأ. هذا ما دعاه إلى التفكير في العودة إلى مراسلاته القديمة لعله يجد فيها سر شبابه، وسر بدايته وجذوره.

أومأت برأسها وقالت: «لن أسلمها لك أبدا»، فأجابها كاذبا: «أريد استعارتها منك فقط.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أومأت برأسها رافضة من جديد. فكر أن رسائله توجد في مكان ما من هذه الشقة، وأن بإمكانها أن تطلع عليها أيا كان وفي أي وقت. كان لا يطيق أن تحتفظ «زدينا» بقطعة من حياته، لذلك انتابته رغبة بشج رأسها بالمرمدة الزجاجية السميكة الموضوعة على المنضدة الواطئة الموجودة بينهما، واسترجاع رسائله. وبدلاً من هذا مضى يشرح لها بأنه ينظر إلى الوراء ليرى من أين انطلق.

رفعت عينيها، ونظرت إليه نظرة أخرسته، ثم قالت له: «لن أعطيك الرسائل أبداً، أبداً.»

15

عندما غادرا العمارة التي تقطنها «زدينا»، كانت السيارتان مركونتان الواحدة خلف الأخرى أمام الباب. وكان المخبران يذرعان الرصيف جيئة وذهابا، فلما أبصراه مع «زدينا» توقفا وراحا يراقبانه.

أومأ إليهما قائلا: «هذان السيدان تعقباني طول الطريق».

- «حقاً؟» أجابته «زدينا» بريبة وبسخرية مصطنعة، «أكلّ الناس يضطهدونك؟»

كيف أمكنها أن تكرهه إلى هذا الحد، وتعتبر أن الرجلين اللذين يحدقان فيهما بوقاحة ليسا سوى مجرد عابرين بالصدفة؟

ليس هناك غير تفسير واحد هو أنها متواطئة معهما، وتتظاهر بأن الشرطة السرية لا وجود لها، وأن لا أحد يخضع للمضايقة ولا أحد يُلاحق.

وفي هذه الأثناء، كان الشرطيان يعبران الطريق، ويركبان سيارتهما على مرأى من «ميريك» و«زدينا».

قال لها «ميريك»: «اعتني بنفسك» ومضى دون أن ينظر إليها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جلس خلف المقود، ورأى في المرآة العاكسة سيارة المخبرين تنطلق خلفه. لم ير «زدينا»، ولم يكن يرغب في رؤيتها. لم يكن يريد رؤيتها ثانية.

لهذا لم ينتبه إلى أنها ظلت واقفة على الرصيف تتابعه طويلا ببصرها. وكم كانت تبدو مفزوعة.

كلا، لم تكن كراهية «زدينا» هي التي جعلتها لا تعتبر الرجلين اللذين كانا يذرعان الرصيف مخبرَيْن. لقد شعرت بالهلع إزاء أشياء كانت تتجاوزها. كانت تريد أن تخفي عنه الحقيقة، وأن تخفيها عن نفسها أيضا.

16

فجأة ظهرت سيارة رياضية حمراء مندفعة بشكل أهوج بين «ميريك» والمخبرين. فضغط على دواسة السرعة، وكانوا قد دخلوا إلى منطقة مزدحمة. كانت الطريق متعرجة، فأدرك «ميريك» بأن مطارديه لن يرياه، فانعطف إلى زقاق صغير، وعندها سمع صرير الكوابح، وكاد يصدم فتى كان يهمّ بعبور الطريق لولا أنه تراجع إلى الخلف. ورأى «ميريك» في المرآة السيارة الحمراء تدلف في الطريق الرئيسي، لكن سيارة مطارديه لم تكن قد مرت بعد. وما هي إلا لحظة حتى انعطف إلى زقاق آخر، فاختفى بذلك نهائيا عن أنظارهما.

غادر المدينة من طريق تسير في وجهة مختلفة تماما، وظل يراقب المرآة ليتأكد من أن لا أحد وراءه. كانت الطريق خالية.

تخيَّلَ المخبرَيْن وهما يبحثان عنه، وقد ساورهما الخوف من غضب رئيسهما. انفجر ضاحكا. ثم خفّض السرعة وراح يستمتع بمناظر الطبيعة. الحقيقة أنه لم يشاهد مناظر الطبيعة هكذا قط. فقد كان دائما يركب سيارته مسرعاً لهدف، أو لقضاء مأرب من المآرب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لدرجة أن الطبيعة بالنسبة إليه غدت شيئا سلبيا، مضيعة للوقت وعائقا يعرقل نشاطه.

على مسافة منه كان حاجزان مخططان بالأبيض والأحمر يهبطان ببطء، فتوقف. فجأة شعر بإرهاق شديد. لماذا ذهب للقائها؟ لماذا أراد أن يسترجع رسائله؟

شعر بأنه محاصر وضايقه كل ما هو عبثي وتافه وضحل في سفرته. لم يكن يقوده عقل أو حساب، بل كان منقادا لرغبة عنيدة، رغبة أن يمدّ يديه بعيدا إلى ماضيه، ويهوي؛ الرغبة في أن يمزق بسكين لوحة شبابه؛ رغبة عارمة لم يستطع كبحها ولن يستطيع إشباعها قط.

شعر بعياء شديد. وقد أدرك أنه لن يكون بمقدوره -بلا شك- إخراج الأوراق المشبوهة من شقتها. يا لسوء المآل! فالمخبرون يتعقبونه، ولن يتركوه أبدا. لقد فات الأوان، فات الأوان على كل شيء.

سمع صفير قطار من بعيد، وقرب مقصورة حارس الحاجز وقفت امرأة تضع على رأسها منديلا أحمر. وصل القطار، وكان عبارة عن قطار بطيء، ومن إحدى نوافذه تدلى فلاح يضع غليونه في فمه، ويبصق. ثم سمع «ميريك» رنين جرس، فتقدمت المرأة ذات المنديل الأحمر بضع خطوات نحو الممر، وأمسكت مقبضاً وراحت تديره، وبدأ الحاجزان بالارتفاع، فأقلع «ميريك»، ودخل قرية هي بمثابة زقاق طويل تقع في نهايته محطة القطار. كانت المحطة عبارة عن دار صغيرة بيضاء واطئة يحيط بها سياج من خشب، تُرى من خلاله السكة والرصيف.

17

كانت نوافذ المحطة مزينة بزهريات غرست فيها زهرة البيغونيا. أوقف «ميريك» سيارته، وأخذ ينظر من وراء المقود إلى المبنى، إلى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

النافذة والأزهار الحمراء، فعادت إلى ذهنه صورة منزل آخر يرجع لمرحلة نسيها منذ مدة طويلة. منزل مطلي بالأبيض، وعلى جنباته تظهر النوافذ المزينة بحمرة أزهار البيغونيا. حدث ذلك في خلال العطلة الصيفية في فندق صغير بقرية جبلية. يظهر أنف بالغ الضخامة في النافذة من خلال الأزهار. كان «ميريك» في العشرين من عمره، رفع بصره إلى النافذة ورأى الأنف، فشعر بحبّ كبير.

غمرته رغبة في الضغط على دواسة السرعة حتى يتخلّص من هذه الذكرى. لكنني هذه المرة لن أستسلم للخدعة، سأستحضر هذه الذكرى لكي أتأملها لحظة. إذن أكرر: في النافذة بين الأزهار كان يظهر وجه «زدينا» بأنفها الضخم، و«ميريك» يساوره شعور بالحب.

أهذا ممكن؟

أجل ممكن. ولم لا؟ ألا يستطيع شاب ضعيف أن يشعر بحب حقيقي تجاه فتاة بشعة؟

كان يحكي لها عن تمرّده على أبيه الرجعي، في حين راحت هي تؤنب المثقفين. كانا يسيران يداً بيد. ظلا يداومان على حضور الاجتماعات، ويُبلّغان عن مواطنيهما ويتحابان. كانت هي تبكي على رحيل «ماستوربوف»، وكان هو، ككلب، يزمجر على جسدها، ولم يكن أحدهما يستطيع العيش من دون الآخر.

وهو إن كان يريد محو بعض الصور من حياته، فليس لأنه لم يكن يحبها، بل لأنه أحبها حقا. محاها هي وحبها. لقد مسح صورتها إلى أن اختفت مثلما مسحت شعبة الدعاية صورة «كليمانتس» من الشرفة التي ألقى منها «غوتوالد» خطبته التاريخية. فـ«ميريك» يعيد كتابة التاريخ تماما كما يفعل الحزب الشيوعي، وكما تفعل كل الأحزاب السياسية، وكما تفعل كل الشعوب. وإجمالا كما يفعل الإنسان. جميعهم يعلنون الرغبة في صنع غد أفضل، لكن الأمر غير صحيح،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لأن المستقبل ليس سوى فراغ مهمل لا يهم أحدا، مقابل الماضي المفعم بالحياة، ووجهه مزعج وبغيض إلى حدّ أننا نرغب في تدميره أو إعادة تلوينه. لذلك لا يطمح الناس إلى التحكم في المستقبل إلا بقصد اكتساب القدرة على تغيير الماضي. فهم يتصارعون من أجل الوصول إلى المختبرات التي تُجرى فيها الروتوشات على الصور، ومن ثمة تعاد كتابة السِّيَر والتواريخ.

كم من الوقت أمضى أمام هذه المحطة؟ وماذا كانت تعني تلك الوقفة القصيرة؟ لم تكن تعني شيئا. لذلك أزاحها من ذهنه، وهذا معناه أنه في ذلك الوقت لم يكن يعرف شيئا عن المنزل الصغير المزين بأزهار «البيغونيا». ومن جديد استأنف سيره بسرعة فائقة من دون أن يأبه للمناظر الطبيعية. ومن جديد لم يكن العالم بالنسبة إليه سوى عائق يعرقل حركته.

18

كانت السيارة التي نجح في التخلص منها مركونة أمام منزله، وكان الرجلان يقفان غير بعيد عنها. ركن «ميريك» سيارته خلف سيارتهما، وترجّل. ابتسما له بابتهاج وكأن انفلاته منهما مزحة سلّتهما كثيرا. وحين مرّ بمحاذاتهما أخذ الرجل ذو العنق الثخين والشعر المسرّح يضحك، ثم أومأ له برأسه. شعر «ميريك» بالانزعاج من هذه الألفة التي تدل على أن علاقته بهما ستتوثّق أكثر منذ الآن.

دلف «ميريك» إلى المنزل دون أن يُظهر قلقه. فتح باب الشقة بالمفتاح، فكان أول ما واجهه ابنه وقد ظهرت في عينيه آثار انفعال مكبوح. تقدم منه رجل غريب يرتدي نظارتين، وأعلن عن هويته قائلا: «هل تريد أن أريك أمر المدّعي العام بتفتيش شقتك؟»

– نعم. أجاب «ميريك».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان في الشقة شخصان آخران، أحدهما واقف أمام المنضدة التي يعمل عليها «ميريك»، حيث تكدست أكوام من الأوراق والكراسات والكتب، يتفحص ما وضع عليها واحدا واحدا. أما الرجل الثاني فكان جالسا إلى المكتب يسجّل ما يملي عليه الأول.

أخرج الرجل ذو النظارتين ورقة مطوية من جيبه ومدها لـ«ميريك» «خذ، إليك أمر الوكيل، وهناك -مشيرا إلى الرجلين الآخرين- نهيئ لك لائحة الأشياء المحجوزة.»

كان ثمة على الأرض عدد من الأوراق والكتب المتناثرة، وكانت أبواب الدواليب مشرعة، والأثاث مبعد عن الجدران.

انحنى الابن على «ميريك» وقال له: «جاؤوا بعد ذهابك بخمس دقائق».

أمام طاولة العمل كان الرجلان يسجلان جردا بالأشياء التي عثروا عليها: رسائل أصدقاء «ميريك»، وثائق تتعلق بالأيام الأولى للاحتلال الروسي، تحليلات للأوضاع السياسية، محاضر اجتماعات.

«يبدو أنك ليس عندك الكثير من المراعاة لأصدقائك» قال الرجل ذو النظارتين مشيرا بحركة من رأسه إلى الأشياء المحجوزة.

19

اختفى أولئك الذين هاجروا (وكان عددهم مائة وعشرين ألفا)، كما اختفى أولئك الذين أُجبروا على الصمت وطُردوا من عملهم (ويقدر عددهم بنصف مليون)، اختفوا كموكب يبتعد شيئا فشيئا في الضباب، ثم نُسوا.

ورغم كون السجن محاطا من جميع جوانبه بالجدران، فهو يشكل بالنسبة للتاريخ خشبةً رائعةَ الإضاءة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ذلك ما أدركه «ميريك» منذ زمن بعيد. فطيلة السنة الأخيرة، كانت عَظَمَة السجن تجذبه بشكل لا يقاوم. ومما لا شك فيه أن انتحار مدام بوفاري كان يجذب فلوبير بنفس الطريقة. كلا لم يكن بوسع «ميريك» أن يتخيّل نهاية لرواية حياته أفضل من هذه.

لقد كانوا يسعون إلى محو حياة مئات الآلاف من الذاكرة لكي لا يفضُل سوى فقط الزمن الطاهر للفكرة المثالية الطاهرة. لكن «ميريك» سيلقي بجسده على هذا المثال كبقعة، وسيبقى هناك مثلما بقيت قبّعة «كليمانتس» على رأس «غوتوالد».

طلبوا من «ميريك» التوقيع على لائحة الأغراض المحجوزة، ثم دعوه إلى اللحاق بهم مصحوبا بابنه. وبعد سنة من الحراسة النظرية، جرت محاكمتة، وحكم عليه بستّ سنوات سجنا، وعلى ابنه بسنتين، كما حكم على ثلّة من أصدقائهما بعقوبات تتراوح بين سنة وستّ سنوات سجنا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

الجزء الثاني

ماما

1

مضى زمن لم تكن فيه ماركيتا تحب حماتها. كان ذلك عندما كانت هي وكاريل يقيمان عندها (في حياة حماها) وكانت دائما عرضة لفظاظتها وشكوكها. لم يطيقا الحياة هناك طويلا، فانتقلا للعيش في مدينة تقع في الجهة الأخرى من البلاد وقد رفعا شعار: «أبعد ما يمكن عن الماما». وهكذا كانا يزوران والدَي كاريل بالكاد مرة واحدة في السنة.

ثم إن والد كاريل مات ذات يوم، فبقيت أمه وحيدة. رأياها في مراسم الدفن. كانت وديعة وبئيسة، كما بدت لهما أضأل مما كانت من قبل. ودارت بذهنيهما جملة واحدة: «ماما، لا يمكن أن تبقي وحيدة، تعالي اسكني معنا.»

ترددت هذه الجملة في نفسيهما، ولكنهما لم ينطقا بها. حتى إذا كان اليوم الذي تلا المأتم، وبينما هم في نزهة حزينة، عابت عليهما ماما بلهجة حادة -لم تَرُقْ لهما- كل السوء الذي ألحقاه بها. ولما ركبا القطار، قال كاريل لـ ماركيتا: «لا شيء يغيّرها، إنه أمر محزن؛ ولكن بالنسبة لي سأظل دائما: بعيدا من الماما.»

ومرت سنوات بعد ذلك، وتأكد أن ماما ظلت دائما كما هي. أما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ماركيتا فتغيرت بلا شك، لأنها شعرت فجأة بأن كل ما فعلته لها حماتها كان تافها، وأنها هي المخطئة حقا لأنها أولت أهمية لتلك الخصومات. فأخذت تنظر إلى ماما كما ينظر طفل إلى شخص راشد. إلا أن الأدوار الآن انقلبت: ماركيتا غدت راشدة، في حين صارت ماما تبدو لها صغيرة وبدون حماية، مثل طفلة. وهكذا غدت ماركيتا متسامحة معها، بل شرعت في مراسلتها بانتظام. وسرعان ما تعودت العجوز على ذلك، فكانت تجيبها بعناية، وأخذت تطلب منها الإكثار من مراسلتها، لأن لم يكن ثمّة ما يعينها على تحمل الوحدة غير تلك الرسائل.

وقد عادت الجملة التي تبادرت إلى ذهنيهما أثناء مراسيم دفن الأب تتردد من جديد. وانبرى الابن من جديد لردع طيبوبة الكنّة وعِوض أن يقول لماما «تعالي اسكني معنا»، فإنه دعاها لتقضي معهما أسبوعا.

كان الفصح قد حلّ، وابنهما ذو العشر سنوات سافر لقضاء عطلته. وكانا ينتظران إيفا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معهما. كانا يريدان أن تقضي معهما ماما الأسبوع باستثناء يوم الأحد. لذلك قالا لها: «تعالي عندنا لقضاء أسبوع، من السبت القادم إلى السبت الذي يليه، لأننا يوم الأحد مشغولان، ومن ثمّة ينبغي أن تسافري». لم يقولا لها شيئا دقيقاً ومحدداً، لأنهما لم يشاءا إطلاعها على قدوم إيفا. فكرر لها كاريل مرتين في الهاتف: «من السبت القادم إلى السبت الذي يليه، لأننا يوم الأحد مشغولان، ومن ثمة ينبغي أن تسافري»، فقالت ماما: «أجل يا أبنائي، ما أطيبكما! أنتما تعلمان أنني سأرحل متى شئتما. كل ما أطلبه هو أن أفلت قليلا من الوحدة.»

لكن، لما سألتها ماركيتا مساء السبت عن الساعة التي سيرافقانها فيها إلى محطة القطار، أجابت بتصميم وبلا تردد أنها سوف تبقى إلى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يوم الاثنين. حدجتها ماركيتا باستغراب، فتابعت ماما: «لقد قال لي كاريل بأنكما مشغولان يوم الاثنين، وأنكما راحلان، وأنا أيضا سأذهب صباح الاثنين.»

كان بإمكان ماركيتا أن تجيبها: «ماما، لقد أخطأت، نحن سنسافر غدا»، لكنها لم تجرؤ على ذلك. فهي لم تنجح في اختلاق كذبة عن اسم المكان الذي يقصدانه. وأدركت أن الكذبة التي هيآها لم تكن محبوكة بإتقان، فلم تقل شيئا، ورضيت بأن تقضي معهما حماتها يوم الأحد، وطمأنت نفسها أن حجرة الطفل حيث ستنام الحماة توجد في الجانب الآخر من الشقة، وأنها لن تزعجهما. وقالت لـ كاريل معاتبة: «أرجوك، لا تكن فظّا معها. أنظر إليها، إن مجرد النظر إليها يفطر القلب.»

2

هزّ كاريل كتفيه مستسلما. ماركيتا محقّة، لقد تغيرت ماما حقا. إنها تبدو راضية وتفيض عرفاناً وامتناناً. وظل كاريل يترقّب عبثا اللحظة التي سينشب بينهما خصام لأتفه الأسباب.

ذات يوم، وفي أثناء نزهة نظرت ماما إلى بعيد، ثم قالت: «ماذا تكون تلك القرية البيضاء هناك؟». لم تكن قرية، بل كانت أعمدة في جدار. وقد تملّك كاريل شعور بالشفقة على أمه التي ضعف بصرها.

ويبدو أن هذا العيب في البصر كان يعكس شيئا أهم: فما كانا يريانه كبيرا، كانت هي تراه صغيرا؛ وما كانا يريانه أعمدة، كانت تراه هي منازل.

والحقيقة أن هذا الخلل لم يكن حديثا عليها. الفرق هو أن ذلك كان يغيظهم في السابق. ففي ليلة مثلا اجتاحت دبابات البلد الجار الضخمة بلدهم، فتسبّب ذلك في صدمة ورعب كبيرين لدرجة لم يكن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بمستطاع أحد التفكير في شيء آخر لفترة طويلة. كان ذلك أثناء شهر غشت (آب)، وكانت فاكهة الأجاص قد نضجت في حديقتهم. وقبل ذلك بأسبوع، دعت ماما الصيدلاني لقطفها، غير أنه لم يأت، ولم يكلّف نفسه حتى الاعتذار. ولم تكن ماما لتغفر له هذه الزلة، الشيء الذي أغضب كاريل وماركيتا. كانا يعيبان عليها اهتمامها بالأجاص في الوقت الذي يهتمّ فيه الناس بالدبابات. إثر ذلك غادرا المنزل وذكرى حقارتها لا تبرح ذهنيهما.

لكن، هل الدبابات حقا أهمّ من الإجاص؟ ومع مرور الزمن فهم كاريل أن الإجابة عن هذا السؤال لم تكن بذلك الوضوح الذي اعتقد. وبدأ يشعر بتعاطف خفي مع منظور ماما، حيث كانت إجاصة ضخمة في مقدمة المشهد، ولم تكن الدبابات تبدو في الخلفية أكبر من حشرة متأهّبة للطيران، والاختفاء عن الأنظار. أجل! كانت ماما هي المحقة: فالدبابات زائلة في حين أن الإجاصة ستبقى إلى الأبد.

في ما مضى كانت ماما تسعى لمعرفة ما يتعلق بابنها، وكانت تغضب حين يخفي عنها شيئا من حياته. إذن، لاسترضائها هذه المرة، كانا يحدثانها عما يفعلان، وعما يحدث لهما، وعن مشاريعهما. لكنهما تنبها إلى أن اللباقة وحدها هي التي كانت تجعل ماما تنصت إليهما، وأنها كانت تقاطعهما للحديث عن كلبها الذي تركته عند جارتها للإهتمام به في خلال غيابها.

كان كاريل سيعتبر هذا فيما مضى أنانية وحبا للذات أو حقارة؛ لكنه الآن يعلم أن لا شيء من ذلك صحيح. لقد مرّ وقت أطول مما كانا يتصوران، وماما تخلّت عن عصا ماريشال أمومتها، وانتقلت إلى عالم مختلف. وفي مرة أخرى فاجأتهم عاصفة خلال نزهة، فأمسكاها كل واحد من ذراع، واضطرا لحملها، وإلا لكانت الريح جرفتها. أحس كاريل بالتأثر حيال وزنها الضئيل، وأدرك أن أمه تنتمي إلى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مملكة مخلوقات أخرى، مخلوقات أصغر وأخف، تستطيع الريح أن تجرفها بسهولة.

3

وصلت إيڤا بعد الغذاء، ووجدت بانتظارها في محطة القطار ماركيتا التي كانت تعتبرها صديقتها. لم تكن ماركيتا تحب أصدقاء كاريل، ولكن مع إيڤا كان الأمر مختلفاً، لأنها تعرفت عليها قبل تعرفها إلى كاريل.

مضى على ذلك ست سنوات، كانت تستجم مع كاريل في مدينة مياه ساخنة، وكانت تذهب إلى الصّونا مرة كل يومين. كانت جالسة في قاعة الصّونا على مقعد خشبي تنضح عرقا مع سيدات أخريات عندما رأت فتاة طويلة القامة، تدخل عارية. ابتسمت لها، فبادلتها الابتسامة بالرغم من أنهما لا تعرفان بعضهما. ولم تكد تمضي هنيهة حتى كانت المرأة الشابة تتحدث إلى ماركيتا. وبما أنها كانت صريحة، وماركيتا كانت ممتنة لها بسبب تعاطفها وطيبتها، فإن الصداقة بينهما توطدت سريعاً.

لعل ما شد ماركيتا إلى إيڤا هو سحر فرادتها، أي سرعة المبادرة إلى الكلام معها، وكأنهما كانا على موعد. فهي لم تكن لتضيّع الوقت لبدء المحادثة في الكلام عن مزايا الصونا الصحية، ودورها في فتح الشهية، كما تقتضي ذلك المواضعات والأعراف، بل شرعت بالحديث عن نفسها كما يفعل أولئك الذين يتعارفون عبر إعلانات قصيرة، والذين يحاولون التعريف بأنفسهم لشريكهم المستقبلي بإيجاز مكثّف منذ الرسالة الأولى.

فمن تكون إذن إيڤا من خلال كلام إيڤا نفسها؟ إيڤا صيادة رجال مرحة، لكنها لا تصطادهم لأجل الزواج. هي تصطادهم كما يصطاد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الرجال النساء. الحب لا وجود له في نظرها، بل هي تؤمن بالصداقة والشهوة. لهذا تملك أصدقاء كُثُر: الرجال لا يخشون أن تطمع في الزواج منهم، والنساء المتزوجات لا يخفن أن تسرق منهنّ أزواجهن. يضاف إلى هذا أنها إن تزوجت يوما، فسيكون زوجها صديقا تمنحه كل ما تملك، ولا تطلب منه شيئا بالمقابل.

بعد أن شرحت كل هذا لماركيتا، أسرّت لها بأنها تملك جسدا جميلا، وهو أمر نادر، لأن قليلا من النساء يملكن -حسب إيڤا- جسدا جميلا حقا. تقبّلت ماركيتا هذا الإطراء بتلقائية، ووجدت فيه متعة أكثر مما لو كان صادرا عن رجل. لقد بلغها هذا الإطراء بفيض من التلقائية أحسّت معه مركيتا أن هذه المرأة خلبت عقلها، وغمرها شعور بأنها دخلت مملكة الإخلاص، فضربت لإيڤا موعدا في اليوم اللاحق في نفس المكان والساعة. ولم تكد تمضي أيام حتى قدّمت لها كاريل، وهو يمثّل الطرف الثالث في هذه الصداقة الناشئة.

قالت لها ماركيتا بنبرة المذنب وهما تغادران بوابة المحطة: «حماتي معنا في البيت، سأقدمك لها على أنك ابنة عمي، أرجو ألا يزعجك هذا.»

«بالعكس» أجابت إيڤا، ثم طلبت من ماركيتا أن تقدّم لها بإيجاز بعض المعطيات عن عائلتها.

4

لم يسبق لماما أن أعارت اهتماما لعائلة كنتها، ولكن عبارات من قبيل ابنة عمي وابنة أخي وعمتي وحفيدتي كانت دائما تثلج صدرها، لأنها تشكل مملكة التسميات العائلية الأليفة.

وهي الآن قد تتلقى إثباتاً يؤكد ما كانت تظنه منذ زمن بعيد، وهو أن ابنها شخص ذا فرادة ويتعذّر تقويمه. فكأن وجودها في الوقت نفسه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الذي توجد فيه قريبة زوجته يزعجهم. أدركت أنهم يرغبون في التخلص منها حتى يخلو لهم الجو للثرثرة كما يحلو لهم. لكن هذا سبب تافه لإرغامها على السفر يوما قبل الموعد. ولحسن حظها أنها تعرف كيف تتصدى لهم، إذ ادعت أنها أخطأت في اليوم، وكادت تضحك حين لاحظت أن ماركيتا لم تجرؤ على أن تطلب منها السفر صباح الأحد.

فعلا، يجب الاعتراف بأنها بدت ألطف مما كانت في السابق. ولو وقعت هذه الحادثة قبل سنوات لكان كاريل أمرها بفظاظة أن ترحل. والواقع أنها بهذه الحيلة يوم أمس أسدت لهما خدمة جليلة. على الأقل أنهما لن يوبخا نفسيهما على إرسال والدتهما بلا سبب إلى وحدتها يوما قبل الموعد.

فوق ذلك بدَت إنها سعدت كثيرا بالتعرف على هذه القريبة الجديدة. وجدتها فتاة لطيفة (والغريب أنها تذكّرها بشخص ما، ولكن من هو؟). وعلى مدى ساعتين راحت تجيب عن أسئلتها. كيف كانت ماما تسرّح شعرها عندما كانت شابة؟ كانت تضفره. لقد كان ذلك في زمن الإمبراطورية النمساوية المجرية. وكانت فيينا عاصمتها. درست ماما في ثانوية تشيكية، وكانت وطنيّة متحمسّة. وفجأة تملّكتها رغبة في أن تُنشد لهم بعض الأغاني الوطنية التي كانت تردّد آنذاك، أو تلقي عليهم بعض القصائد الشعرية. كانت بالتأكيد ما تزال تحفظ الكثير منها عن ظهر قلب. ومباشرة بعد الحرب (طبعا المقصود الحرب العالمية الأولى، عندما تأسست جمهورية تشيكوسلوفاكيا. يا إلهي ابنة العم هذه لا تعرف متى أُعلنت الجمهورية!) أنشدت ماما قصيدة شعر في اجتماع مهيب نظمته الثانوية بمناسبة الاحتفال بنهاية الإمبراطورية النمساوية، بمناسبة الاستقلال. تصوروا أنها عندما وصلت إلى المقطع الأخير نسيت فجأة ما تبقى، وتعذر عليها تذكر ما تبقى من القصيدة،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فصمتت. كان العرق يتصبب من جبينها، كادت تموت خجلا. فجأة، وعلى غير المتوقع علا التصفيق الحاد من الجمهور. لقد اعتقد الجميع أن القصيدة انتهت، ولم يفطن أحد إلى اختفاء المقطع الأخير. لكن ماما شعرت مع ذلك باليأس، وسارعت خجلى إلى الاختباء في المراحيض. فلحِق بها الناظر نفسه وجعل يطرق الباب مدة طويلة وهو يرجوها أن تكف عن البكاء، وأن تخرج لأنها لاقت استحساناً باهرا.

كانت ابنة العم تضحك، وماما تحدق فيها: «إنك تذكريني بشخص ما، يا إلهي من هو...»

- ولكنك لم تذهبي إلى الثانوية بعد الحرب! لاحظ كاريل.

- يبدو لي أنني أعرف متى كنت أذهب إلى الثانوية!

- ولكنك اجتزت البكالوريا في آخر سنة من الحرب، وكانت امبراطورية النمسا- المجر ما تزال قائمة.

- أكيد أنني أعرف جيدا متى اجتزت البكالوريا، أجابت ماما بسخط. غير أنها في هذه اللحظة كانت تدرك أن كاريل لم يكن مخطئاً. صحيح أنها اجتازت البكالوريا أثناء الحرب. فمن أين جاءتها إذن ذكرى الاجتماع المهيب بالثانوية بعد الحرب؟ وفجأة ظهر التردد على ماما، فصمتت.

وخلال هذا الصمت القصير، كان يُسمع صوت ماركيتا. كانت تتحدث إلى إيڤا، ولم يكن ما تقوله لها يمتّ بصلة، إلى إنشاد الشِّعر، ولا لسنة 1918.

شعرت ماما بأنها تُركت لذكرياتها، وأن لامبالاة الآخرين خذلتها، كما خذلتها الذاكرة.

«تسلوا جيدا يا أبنائي، فأنتم شباب ولكم أشياء كثيرة تحكونها لبعضكم البعض»، ثم انسحبت لحجرة حفيدها وقد تملّكها غضب مفاجئ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

5

بينما كانت إيڤا تمطر ماما بأسئلتها، كان كاريل يراقبها بحنان. فهو يعرفها منذ عشر سنوات، وقد كانت هكذا دائما: صريحة وجريئة. تعرّف عليها (حين كان ما يزال يقيم هو وماركيتا مع أبويه) بنفس السرعة التي تعرفت بها ماركيتا عليها تقريبا بعد سنوات من ذلك. وذات يوم توصل في مكتبه برسالة من مجهولة. قالت في الرسالة بأنها تعرفه معرفة سطحية، وأنها قررت أن تكاتبه، لأنها لا تقيم للأعراف والمواضعات وزناً حين ينال رجل إعجابها. أعجبها كاريل، وكانت هي امرأة صيادة، تصيد التجارب التي تظل راسخة في الذاكرة. لم تكن تؤمن بالحب، لا تؤمن إلا بالصداقة والشهوة. كانت الرسالة مرفقة بصورة فتاة عارية في وضع مثير.

تردد كاريل في بادئ الأمر في الجواب، لأنه اعتقد أن الأمر يتعلق بمزحة؛ ولكنه لم يستطع المقاومة في نهاية المطاف. بعث برسالة للمرأة الشابة يدعوها إلى اللقاء في شقة أحد أصدقائه. وجاءت إيڤا إلى الموعد. كانت طويلة ونحيفة ومهملة الملبس. كانت تشبه مراهقا طويل القامة ارتدى ثياب جدته. جلست قبالته وقالت له إن الأعراف لم تكن تعنيها حين يعجبها رجل، وأنها لا تؤمن سوى بالصداقة والشهوة. كان يبدو على وجهها الانزعاج والتعب، فشعر كاريل نحوها بالعطف الأخوي أكثر من الاشتهاء. ولكنه قال في نفسه إثر ذلك إنه حريّ به اغتنام الفرصة، فقال لها مُطمئِنا: «ما أروع أن يلتقي صيادان!».

بهذه الكلمات قاطع كاريل الاعترافات الذلقة للمرأة الشابة، مما خفف عنها ثقل الموقف الذي ظلّت تتحمله وحدها بإقدام مدة ربع ساعة تقريبا. وسرعان ما استعادت جرأتها.

أسرّ لها بأنه وجدها جميلة في الصورة التي بعثتها له، ثم سألها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

(بصوت صياد ماهر) ما إذا كانت تجد في العري متعة.

«أنا استعرائية(*)»، قالت ذلك ببراءة كما لو أنها تقول له بأنها من دعلة تجديد العماد(**).

عبَّر لها عن رغبته في أن يراها عارية. فشعرت بالارتياح، وسألته إن كان في الشقة آلة فونوغراف. أجابها بالإيجاب، غير أن صديقه صاحب الشقة لم تكن تروقه سوى الموسيقى الكلاسيكية، كموسيقى باخ وفيفالدي وأوبرا فاغنر. وقد وجد كاريل من الغريب أن تتعرى المرأة الشابة على لحن غناء «إيزولد». إيڤا أيضا لم ترقها الأسطوانات: «أليس عنده أسطوانات پوپ؟». كلا، لا توجد موسيقى البوپ. وحين أعياه البحث، عمد إلى وضع أسطوانة تحوي مجموعة من المعزوفات الراقصة لباخ على إيقاع آلة البيانو، ثم جلس في ركن من الحجرة ليستمتع برؤية بانورامية.

حاولت إيڤا أن ترقص على إيقاع الأغنية، لكنها انتهت إلى القول إن تلك الموسيقى لا تصلح للرقص.

صرخ كاريل بغضب: «انزعي ملابسك، واصمتي!». كانت موسيقى باخ السماوية تغمر الحجرة، واستمرت إيڤا في الاهتزاز. لكن مع تلك الموسيقى التي كانت تصلح لأي شيء إلا للرقص، كان من الصعب عليها أن تبرهن عن مهارتها في الرقص. ودار في خلد كاريل أنها من لحظة نزع البلوفر إلى لحظة نزع السوتيان، ستكون الطريق التي ستعبرها لا نهاية لها. وأخذت ترقص على إيقاع البيانو وهي تتلوى وتنزع قطع ملابسها الواحدة تلو الأخرى وترمي بها دون أن تنظر إلى

(*) استعرائية: ذات ميل لا يقاوم للتعرّي أمام الآخرين.

(**)مذهب بروتيستانتي يقول بإمكانية قيام الفرد بإعادة التعميد في سن يكون قادرا فيه على فهم الالتزام الذي يأخذه على نفسه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كاريل. كانت مركزة على ذاتها وعلى حركاتها كعازف كمان يعزف قطعة يحفظها عن ظهر قلب، ويخشى إن هو رفع عينيه نحو الجمهور أن يشرد. وحين صارت عارية تماما، استدارت إلى الحائط واضعة إحدى يديها بين فخذيها. على أن كاريل كان قد تعرى بدوره، وأخذ ينظر إلى ظهر الفتاة باستمتاع وهي تستمني. كان المشهد رائعا، أصبح دفاع كاريل عن إيڤا منذ ذلك الوقت أمرا جليا.

يضاف إلى هذا أنها كانت المرأة الوحيدة التي لا تغار من حب كاريل لـ ماركيتا: «عليك أن تجعل زوجتك تُدرِك أنك تحبّها، لكن عليها أن تدرك كذلك أنك صيّاد، وأن ممارستك الصيد لا تهددها.» أضافت بنبرة حزينة كما لو كانت هي ذلك الرجل الذي لا تفهمه المرأة: «على أيٍّ لا توجد امرأة تفهم هذا. لا، لا وجود لامرأة تفهم الرجل.» ثم اقترحت على كاريل أن تفعل ما بوسعها لمساعدته.

6

كانت غرفة الإبن التي انسحبت إليها ماما تبعد بالكاد ستة أمتار عن الصالون، ولم تكن جدرانها الفاصلة سميكة. ولعل هذا ما جعل ظلّ ماما مخيما عليهم رغم انسحابها، وجعل ماركيتا تشعر بالضيق.

ولحسن الحظ كانت إيڤا ثرثارة. وكانت قد مرت فترة طويلة على لقائهم، وخلالها وقعت أشياء كثيرة. فقد انتقلت للعيش في مدينة أخرى، وتزوجت من رجل أكبر منها سنا، وجد فيها صديقة لا مثيل لها، لأنها -كما نعلم- تحتفي بالصداقة، وترفض أنانية الحب وجنونه.

عثرت إيڤا أيضا على شغل جديد. وبالرغم من أنها كانت تكسب جيدا، إلا أنها لم تعد تملك الوقت، ولا حتى للراحة. وهكذا كان يتعيّن عليها الالتحاق بعملها في الغد.

تضايقت ماركيتا من ذلك، فقالت: «كيف! متى تنوين السفر؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- هناك قطار مباشر في الساعة الخامسة صباحا.

- «يا إلهي! عليك الاستيقاظ عند الساعة الرابعة! يا للفظاعة!» شعرت إيڤا في هذه اللحظة بالغضب، فعلى الأقل تملكها شعور بالمرارة لبقاء أم كاريل عندهم، ذلك أن إيڤا تسكن بعيدا، ومع ذلك خصصت هذا الأحد لزيارة ماركيتا، لكنها لم تستطع أن تستفرد بها كما تريد بسبب حماتها التي كان شبحها يلازمهم كل الوقت.

تكدّر مزاج ماركيتا. وما دام سوء الحظ حين يبدأ لا يتوقف بسهولة، فقد رنّ جرس الهاتف، وتناول كاريل السماعة وأجاب بصوت متردد، مما جعل ماركيتا تلمس في إجاباته الموجزة والملتبسة شيئا مريبا، إذ بدا لها أنه ينتقي ألفاظه بعناية ليخفي عنها معنى كلامه. كانت واثقة من أنه يضرب موعدا لامرأة.

«مع من تحدثت؟» سألت ماركيتا. أجاب كاريل إنها زميلة في العمل من مدينة مجاورة، وقد تمرّ في الأسبوع المقبل لتتناقش معه في أمر. ومن هذه اللحظة أمسكت ماركيتا عن الكلام.

أكانت الغيرة تلتهم أحشاءها؟ من المؤكد أن ذلك كان في السنوات الأولى لزواجهما. وبمرور السنوات لم يعد ما تحس به من غيرة يتجاوز كونه مجرّد عادة.

لنقُل الأمور بطريقة مختلفة: تقوم كل علاقة غرامية على اتفاق غير مدوّن يبرمه العاشقان في الأسابيع الأولى من علاقتهما. يعيشان في هذه الفترة في ما يشبه الحلم، لكنهما في الآن نفسه -وبدون وعي منهما- يكونان بصدد كتابة الشروط التفصيلية للعقد الذي سيجمعهما. يا معشر العشاق خذوا حذركم من هذه الفترة الخطرة! فإذا قدّمتم للطرف الآخر وجبة الفطور في الفراش، كان عليكم أن تفعلوا ذلك مدى الحياة، وإلا اتهمتم بعدم الحُبّ والخيانة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

منذ بداية العلاقة بين كاريل وماركيتا، تقرّر أن يكون كاريل هو الخائن، وأن تقبل ماركيتا ذلك. بالمقابل تكون ماركيتا هي الأفضل في حين يشعر كاريل أمامها بالذنب. ولم يكن أحد يدرك أكثر من ماركيتا كم هو محزن أن يكون المرء هو الأفضل. وفي غياب البديل، لم يكن أمامها إلا أن تكون الأفضل.

كانت ماركيتا تعرف، في صميم نفسها، أن تلك المكالمة الهاتفية في حقيقتها شيء تافه. لكن الأهم ليس ماهية تلك المكالمة، بل ما كانت تمثّله. لقد كانت تعبّر باقتضاب بليغ عن وضعيتها. فكل ما كانت تقوم به ماركيتا كان لأجل كاريل، وبسبب كاريل وحده. فهي كانت تعتني بأمه، وقدّمت له أغلى صديقاتها، بل أهدتها له. فعلت ذلك من أجله، ومن أجل متعته. لكن لِم كانت تفعل كل هذا؟ لِم كانت تتحمل كل هذا العناء؟ لِم كانت تحمل صخرتها وحدها مثل سيزيف؟ وبالرغم مما كانت تفعل، كان كاريل غائب الذهن عنها. كان يضرب موعدا لامرأة أخرى. ويتملّص منها على الدوام.

راحت تستحضر في ذهنها، أيام كانت تدرس في الثانوي، وكانت عصيّة على الترويض، متمردة وحيوية. وكان أستاذ الرياضيات العجوز يحبّ معاكستها قائلا: «أنت يا ماركيتا، ألا يمكن إلجامك؟ إنني أرثي مسبقا لحال زوجك.» وكان هذا الكلام يضحكها كثيرا، ويجعلها فخورة بنفسها، ويبدو لها فأل خير. لكنها وجدت نفسها فجأة تلعب دورا آخر، مغايراً تماماً لتوقّعها، ويتعارض مع إرادتها وذوقها. وكل ذلك لأنها لم تكن حذرة بما فيه الكفاية خلال الأسبوع الذي صيغ فيه العقد.

لم يعد يسليها أن تكون دائما هي الفضلى. وها هي تهوي عليها كل سنوات زواجها ككيس ثقيل جدا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

7

كان كَدَر ماركيتا يزداد شيئا فشيئا، كما ظهر الغضب على سحنة كاريل، فشعرت إيڤا بالهلع، إذ طالما كانت تشعر بأنها المسؤولة عن سعادتهما الزوجية. ولذلك راحت تثرثر بلا انقطاع علّها تبدّد سُحب الكدر التي خيمت على جوّ الغرفة.

غير أن الأمر كان فوق طاقتها. لاذ كاريل بالصمت، وقد بدا عليه التأثر من ذلك الحيف الظاهر الذي لحقه. أما ماركيتا، فلأنها لم تكن تستطيع مغالبة شعورها بالمرارة، وأيضاً لم تكن قادرة على تحمّل غضب زوجها، قامت وذهبت إلى المطبخ.

حاولت إيڤا إقناع كاريل بعدم إفساد سهرة طالما انتظروها جميعا. لكن كاريل كان عنيدا: «تأتي لحظة يحسّ فيها المرء باستحالة الاستمرار في هذا الوضع. بدأت هذه الحياة تضنيني! فأنا متّهم دائما بهذا الأمر أو ذاك. لم أعد أطيق الإحساس المستمر بالذنب! كل ذلك لسبب تافه! لا، لا. لم أعد أطيق رؤيتها مطلقا».

وراح يردد الكلام نفسه رافضا الإصغاء لتوسلات إيڤا.

انتهت إيڤا إلى تركه وحيدا، والتحقت بـ ماركيتا اللابدة في المطبخ، وقد أدركت أن ما حدث ما كان يجب أن يحدث. حاولت إيڤا أن تقنعها بأن ليس في تلك المكالمة ما يبرر شكوكها مطلقا، فأجابتها ماركيتا التي كانت متأكدة في قرارة نفسها بأنها لم تكن على حق هذه المرة: «لا يمكنني أن أستمر هكذا. سنوات تلو سنوات، وشهور بعد شهور، لا يشغله سوى النساء والكذب. لقد تعبت، تعبت! وطفح الكيل!»

أدركت إيڤا أن كلا الزوجين مصرّان على موقفيهما. وأيقنت بأن فكرة المجيء إلى هنا، التي بدت لها غامضة في بادئ الأمر، كانت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فعلا فكرة حسنة. واقتنعت بأنها إن كانت تريد مساعدتهما حقيقة، فعليها ألا تخشى المبادرة بالتصرف. فهما يحبان بعضهما، لكنهما في حاجة إلى من يخفف عنهما العبء الذي ينوءان تحته، وإلى من يحررهما. إذن فالمشروع الذي جاءت من أجله لم يكن في مصلحتها هي فقط (بكل تأكيد كان في مصلحتها أولا، وهذا ما كان يؤرقها قليلا، لأنها لم تكن تريد أن تتصرف مع أصدقائها بأنانية)، بل كان في مصلحة ماركيتا وكاريل أيضا.

«ماذا ينبغي أن أفعل» سألت ماركيتا.

- اذهبي إليه، واطلبي منه أن يتخلى عن عناده.

- لكنني لا أطيق رؤيته، لا أطيقه مطلقا!

- إذن، خفضي ناظريك. سيكون ذلك أبلغ تأثيراً.

8

هكذا أنقذت إيڤا الموقف. قدمت ماركيتا قنينة خمر إلى كاريل بحفاوة لكي يفتحها كما لو كانت تعطى إشارة انطلاق آخر سباق في الألعاب الأولمبية. سالت الخمرة في الأقداح الثلاثة، ثم توجهت إيڤا مترنحة إلى الكراموفون، واختارت قرصا (لم يكن لباخ هذه المرة، بل لدوق إلنغتون)، ووضعته في الآلة، وأخذت تجوب الغرفة راقصة.

- هل تعتقد أن ماما نامت؟

- قد يكون من الحكمة أن تقولي لها ليلة سعيدة، قال كاريل ناصحا.

- إذا قمت لتحيتها في هذه الساعة فسنضيّع ساعة أخرى في الثرثرة، وأنت تعلم أن إيڤا ستسافر باكرا غدا.

فكرت ماركيتا أنهم ضيّعوا من الوقت ما فيه، فتناولت يد صديقتها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إيفا، وعوض أن تقودها إلى ماما لتُحيّيها، سحبتها إلى غرفة الحمام، وتوارتا هناك.

ظل كاريل وحيدا في الغرفة مع موسيقى «إلينغتون». شعر بالراحة لأن غيوم الخصام تبدّدت، لكنه لم يعُد ينتظر شيئا من السهرة. لقد أبانت له المكالمة الهاتفية عما كان يرفض قبوله، وبدا متعباً جدّاً، ولم يكن يرغب في شيء.

قبل سنوات كانت ماركيتا قد حرضته على مضاجعتها هي وإحدى عشيقاته التي كانت تغار منها. في تلك اللحظة أحسّ بالدوار من شدة الإثارة، غير أنه لم يشعر بأي متعة خلال السهرة. بل على العكس، استنزف ذلك منه جهدا رهيبا. فقد كانت المرأتان تقبّلان بعضهما وتتعانقان أمام عينيه، لكنهما لم تكفّا عن مراقبته بحذر لمعرفة من منهما كانت تحظى باهتمامه أكثر. لذلك كان يزن بكثير من الحيطة كل كلمة تصدر عنه وكل لمسة. وكان يتصرف كدبلوماسي، فائق اللطافة وجمّ الأدب. ومهما يكن فقد أخفق في مهمته. فالعشيقة انتابتها نوبة من البكاء أثناء المضاجعة، أما ماركيتا فأحاطت نفسها بسور من الصمت العميق.

لو كان مقتنعا بأن الدافع إلى مجون ماركيتا هو الشبق الصرف - وقد كانت الأسوأ في هذا- فإنهما كانتا ستعملان على إمتاعه بالتأكيد. لكن، بما أن الاتفاق يقضي من البداية أن يكون هو الأسوأ، فلم يكن يرى في هذه الخلاعة غير تضحية أليمة منها، ومجرد جهد سخي تبذله زوجته استجابة لنزوعاته الشبقية، لتجعل منها تروسا لحياة زوجية سعيدة. إن ملاحظة غيرة ماركيتا بَصَمَته إلى الأبد، هذا الجرح الذي شقّه في نفسها منذ بداية عهدهما بالزواج. ولطالما أوشك أن يجثو أمامها طالبا الصفح عندما يراها بين أحضان امرأة أخرى.

لكن، أيُعدّ هذا المجون تكفيرا عن ذنب؟ وخطرت بباله فكرة أنه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لو كانت مضاجعة زوجته وامرأة أخرى في الوقت نفسه أمرا مبهجا، فلا ينبغي أن تشعر الزوجة بأن الأخرى منافسة لها. وبذلك كان على ماركيتا أن تُحضِر صديقة لها لا تعرف كاريل، ولا تحفل به. لهذا السبب اصطنع كاريل حيلة لقاء إيڤا وماركيتا في حمام الصونا. وقد نجحت الخطة، إذ أصبحت المرأتان صديقتين وحليفتين، بل صارتا متواطئتين على اغتصابه واللعب معه. وتتسليان، وهما تشتهيانه معا. وقد كان كاريل يأمل أن تزيل إيڤا من ذهن ماركيتا قلق الحب هذا، فتحرره بذلك، وتبرئ ذمته.

لكنه لاحظ في تلك اللحظة أن لا سبيل لتغيير ما تقرر لسنوات من قبل. كانت ماركيتا هي هي دائما، وكان هو المتهم على الدوام.

إذن ما الذي دفعه لأن يهيئ اللقاء بين ماركيتا وإيڤا؟ لماذا ضاجعهما معا؟ لأجل مَنْ فعل ذلك؟ فأي رجل كان بإمكانه أن يجعل من ماركيتا امرأة مرحة، شهوانية وسعيدة. أي رجل غير كاريل. فهو كان يعتبر نفسه مثل «سيزيف» إزاءها.

أحقا هو مثل «سيزيف»؟ ألم تشبّه ماركيتا نفسها بسيزيف؟

أجل، بمرور السنوات أصبح الزوجان مثل توأمين. كانا يستعملان نفس المفردات ونفس الأفكار، بل كان لهما نفس القَدَر. كان كل منهما يقدم للآخر إيڤا هدية بقصد إسعاده. وكان يتهيأ لكل منهما أنه يدفع الصخرة. كانا متعبين معا.

ظل كاريل يسمع قرقرة الماء وضحكات المرأتين في الحمام؛ وفكر أنه لم يتمكن يوما من العيش كما حَلُم، ولم يحصل على النساء اللواتي كان يشتهيهن وبالطريقة التي يريد. كان يرغب في أن يفرّ إلى مكان يستطيع فيه أن ينسج قصته الشخصية كما يريد، أن يعيش وحيدا وكما يحلو له، بعيدا عن العيون العاشقة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ولم يكن في العمق يرغب حتى في نسج قصة، بقدر ما كان يرغب ببساطة أن يكون وحيدا.

9

لم تكن ماركيتا حكيمة، لما نفذ صبرها، فأحجمت عن الالتحاق بماما في الغرفة المجاورة لتقول لها ليلة سعيدة، واعتقدت أنها كانت نائمة. أما ماما فقد كانت خلال زيارتها لابنها مشغولة البال، ولاسيما هذا المساء على نحو خاص، فقد كانت أفكارها مضطربة. ويرجع الذنب في ذلك إلى هذه القريبة المؤنسة التي ذكّرتها بشخص عرفته في شبابها. ولكن، من هو هذا الشخص؟

وتمكنت أخيرا من التعرف إليه: إنها «نورا»! أجل، لهما القدّ نفسه، ولهما القوام نفسه الذي يناسب تلك الأرجل الطويلة الرائعة.

لم تكن «نورا» لطيفة ومتواضعة، ولطالما عانت ماما من تصرفاتها المشينة. لكنها لا تفكر في هذا الآن. ما كان يعنيها أكثر هو تذكرها المفاجئ لهذا المقطع من شبابها، وكأنها إشارة أتتها من مسافة بعيدة تقدر بنصف قرن. وأسعدتها فكرة أن كل ما عاشته في الماضي ما زال موجودا معها، يؤنسها في وحدتها، ويتبادل معها الحديث. وبالرغم من أنها لم تستلطف «نورا» أبدا، فقد سعدت بلقائها هنا، لاسيما أن طبعها قد لان، وحلّت في شخص آخر شديد الاحترام لماما.

كلّما راودتها هذه الفكرة، هفت نفسها للحاق بهم، لكنها تتمالك نفسها. كانت تعلم أنها لم تمكث ذلك اليوم هناك إلا بالحيلة، وأن هذين الغبيين يريدان قضاء الليلة بمفردهما مع القريبة. فليتبادلوا الحديث عن أسرارهم إذن! ولم تشعر بالملل في غرفة حفيدها. فقد كان بإمكانها أن تحبك «التريكو»، وأن تقرأ إن شاءت، بل كان معها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دائما شيء يستطيع أن يشغل بالها. إن كاريل شوّش ذهنها. نعم، كان على حق، والأمر واضح، فقد اجتازت البكالوريا خلال الحرب. لقد أخطأت. فمشهد إلقاء الشّعر، ونسيان الأبيات الأخيرة أحداث وقعت قبل ذلك بخمس سنوات على الأقل. صحيح أن مدير الحفل لحق بها إلى دورة المياه حيث اختبأت باكية، وطرق عليها الباب، لكنها في هذه السنة كانت قد أكملت بالكاد الثالثة عشرة، وحدث هذا في حفل نظّم بالمدرسة الإعدادية قبيل عطلة عيد الميلاد. كانت على المنصة شجيرة صنوبر مزينة، والأطفال ينشدون أناشيد الميلاد، ثم أنشدت هي قصيدة قصيرة، وحين بلغت المقطع الأخير، نسيته، فلم تعد قادرة على الاستمرار.

شعرت ماما بالخجل من ضعف ذاكرتها؟ ماذا ستقول لـ كاريل؟ أتعترف له بأنها أخطأت؟ على أي حال هما يعتبرانها امرأة عجوزا. كانا فعلا لطيفين معها. لكن، لم يكن يغيب عنها أنهما يعاملانها كطفلة صغيرة، وبسماحة لم تكن تروقها. فإذا ما اعترفت لـ كاريل بصواب ملاحظته، وأنها خلطت بين صبيحة أطفال بمناسبة عيد الميلاد وبين اجتماع سياسي، فإن ذلك سيزيدهما عجرفة، بينما ستشعر هي بمزيد من الصِّغَر.

كلا، كلا، لن تمنحهما هذه الفرصة.

ستقول لهما بأن ما حكت عنه صحيح، وأنها أنشدت قصيدة بعد الحرب في أثناء ذلك الحفل، وأنها كانت فعلا قد اجتازت البكالوريا. وبالرغم من كونها غادرت تلك المدرسة، فإن المدير تذكرها لأنها كانت أمهر التلاميذ في إلقاء الشعر، وطلب منها المشاركة في تلك المناسبة. وكان قد أسعدها وشرّفها شرفاً عظيماً! وهو أمر تستحقه ماما، فهي وطنية! أما هؤلاء فلا يعرفون شيئا عمّا كانه سقوط الإمبراطورية النمساوية المجرية بعد الحرب! هذا الفرح! وتلك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأناشيد! والأعلام! ثم استبدت بها الرغبة في الحديث إلى ابنها وكنتها عن عالم شبابها.

إنها تشعر الآن بضرورة الالتحاق بهما. وهي إن كانت فعلا وعدتهما بعدم إزعاجهما، فإن ذلك لم يكن سوى نصف الحقيقة. أما النصف الآخر فهو أن كاريل لم يفهم كيف استطاعت أن تشارك في اجتماع مهيب بالمدرسة بعد الحرب. لقد كانت ماما امرأة عجوزاً، وكانت ذاكرتها تخونها أحيانا. ولم يكن بوسعها أن تشرح لابنها الأمر في أوانه، لكنها حين تذكرت كيف وقعت الأحداث في الواقع، ما عاد بإمكانها التظاهر بنسيان سؤاله. عليها أن تلحق بهم (وعلى كل حال ليست لهم أشياء مهمة يتداولونها بينهم) وتطلب منهم المسامحة. لم تكن تريد إزعاجهم، وما كان لها أن تعود إليهم لولا أن كاريل سألها كيف أنها ألقت شعراً في احتفال للثانوية بعد الحرب وقد كانت اجتازت البكالوريا.

وفجأة سمعت بابا يفتح ويغلق، وتناهى إلى سمعها صوتان نسويان، ثم سمعت بابا يفتح. سمعت بعد ذلك ضحكا، وضجة ماء يسكب. قالت في نفسها إن المرأتين الشابتين تغتسلان قبل الخلود للنوم. رأت أن الوقت مناسب للحاق بهما إذا شاءت أن تثرثر معهما قليلا.

10

لقد كانت عودة ماما يداً إلهية ودود مُدّت إلى كاريل. فبقدر ما كان الوقت غير مناسب، بقدر ما كان مجيئها في محلّه. لم يتطلب منها الأمر ابتداع عذر، فلم تكد تظهر حتى حاصرها كاريل بوابل من الأسئلة الودودة عن: ماذا فعلت بعد الظهيرة، وهل شعرت بشيء من الحزن، لِمَ لمْ تأتِ لرؤيتهم؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شرحت له ماما بأن الشباب لديهم دائما ما يقولونه لبعضهم بعضا، وعلى المسنين أن يدركوا ذلك، ويتجنبوا إزعاجهم.

سُمع صوت المرأتين تتوجهان إلى الباب وهما تقهقهان. دخلت إيڤا أولا وقد ارتدت قميصا قصيرا داكن الزرقة يصل تماما إلى حيث تنتهي عانتها السوداء. تملَّكها الخوف عندما رأت ماما، ولم يكن بوسعها العودة من حيث أتت. كان بإمكانها فقط الابتسام لها والتقدم نحو الأريكة لتخفي فيها جسدها شبه العاري.

كان كاريل يعلم أن ماركيتا آتية على إثر إيڤا، وكان يشك أن تكون لابسة فستان السهرة، والمقصود به في عرفهم أن تضع قلادة من اللؤلؤ على عنقها، وتضع وشاح قطيفة قرمزي اللون على خصرها. كان يدرك أن عليه أن يفعل شيئا لمنعها من ولوج الغرفة، وتجنيب ماما هذا المنظر المفزع. لكن ماذا بيده أن يفعل؟ أكان عليه أن يصرخ «لا تدخلي»؟ أو «البسي بسرعة، ماما هنا»؟ كانت هناك ولا شك طريقة أخرى أفضل لمنع ماركيتا، غير أن كاريل لم تكن أمامه غير ثانية أو ثانيتين للتفكير لم تراوده خلالهما أي فكرة، بل أحسّ أثناءهما بخدر مرح أَذْهَبَ عنه كل حضور ذهني. لم يقوَ على فعل شيء حتى كادت ماركيتا تتجاوز عتبة باب الغرفة، وكانت فعلا عارية إلا من القلادة والوشاح على خصرها.

وفي هذه اللحظة ذاتها استدارت ماما نحو إيڤا وقالت لها وابتسامة لطيفة تعلو محياها: «ترغبون في النوم ولا شك، لن أؤخركم أكثر». أجابت إيڤا بالنفي، وكانت قد رأت ماركيتا بطرف عينها، وصار صوتها شبيها بالصراخ، وكأنها كانت تسعى إلى ستر جسد صديقتها بصوتها، ففهمت الصديقة الموقف، وانسحبت إلى الممرّ.

ولما عادت بعد لحظة ترتدي مئزر حمام طويل، أعادت عليها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ماما ما قالته لإيڤا: «يا ماركيتا، لا أريد أن أؤخركم، كنتم تهمّون بالنوم ولا شك.»

كادت ماركيتا تجيب بالإيجاب لولا أن كاريل أدار رأسه بمرح وقال: «لا يا ماما، نحن سعداء بوجودك معنا». وهكذا استطاعت ماما أخيرا أن تحكي لهم قصة إلقاء الشعر خلال اجتماع المدرسة المهيب بعد حرب 14، عند سقوط الإمبراطورية النمساوية المجرية، لما طلب المدير من تلميذته السابقة أن تتلو نشيدا وطنيا.

لم تكن المرأتان الشابتان تنصتان لما تقوله ماما. أما كاريل فكان يصغي باهتمام. وأودّ هنا أن أدقق قولي السابق: فحكاية المقطع المنسي لم يكن يهمّه كثيرا، لأنه سمعه من قبل مرات كثيرة، ولمرّات كثيرة نسيه. ما كان يعنيه ليست القصة التي تحكيها ماما، بل ماما وهي تسرد القصة. ماما وعالمها الذي يشبه إجاصة عظيمة حطّت عليها دبابة روسية أشبه بدعسوقة. وقد خيّل إليه أن باب الحمّام الذي يدق عليه المدير، يقع في مقدمة الصورة، وخلف هذا الباب بدا نفاذ صبر المرأتين المتلهفتين واضحا.

إليك ما راق كاريل كثيرا. كان ينظر باستمتاع لإيڤا وماركيتا، وكان عريهما يتراقص تحت المئزر والقميص من شدة نفاذ صبرهما. وقد جعله هذا أكثر اندفاعا لطرح مزيد من الأسئلة حول المدير والمدرسة وحرب الـ 14، وطلب من ماما أخيرا أن تلقي على أسماعهم القصيدة الوطنية التي كانت نسيت مقطعا منها.

أطرقت ماما ثم شرعت بتركيز شديد في إلقاء القصيدة التي أنشدت في حفل المدرسة يوم كانت في الثالثة عشرة من عمرها. وعوض أن تنشد قصيدة وطنية، ألفت نفسها تنشد قصيدة حول صنوبرة الميلاد ونجمة بيت لحم، ولم ينتبه أحد لهذا التفصيل، ولا هي انتبهت. ولم تفكر سوى في شيء واحد: هل ستفلح في تذكّر أبيات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المقطع الأخير؟ وقد أفلحت وتذكرت. كانت نجمة بيت لحم تتوهّج، نجمة بيت لحم تلمع، فستنير لها الملوك الثلاثة ويصلون إلى المغارة. تأثرت لهذا النجاح، فأخذت تضحك وتهز برأسها.

صفقت لها إيڤا، وحين نظرت الماما إليها، تذكرت الأمر الأهم الذي جاءت من أجله: «كاريل هل تعرف بمن تذكرني قريبتك؟ تذكرني بنورا.»

11

كان كاريل يحدق في إيڤا، ولم يصدّق أنه سمع فعلا: «نورا؟ السيدة نورا؟»

فهو يذكر صديقة ماما هذه أيام طفولته. كانت باهرة الجمال، طويلة القامة مع وجه ملوكي رائع. ولم يكن يحبها بسبب عنجهيتها وتمنّعها، ورغم ذلك لم يكن قادرا على تحويل بصره عنها. يا إلهي، أي شبه يمكن أن يقوم بينها وبين إيڤا الودود هذه؟

«أجل، أجابت ماما. نورا! يكفي أن تنظر إليها. هذا القوام الرشيق، وهذه المشية وهذا المحيا!»

– قفي يا إيڤا، قال كاريل.

خشيت إيڤا أن تقوم، لأنها لم تكن متأكدة من أن قميصها القصير سيستر عانتها بما يكفي. لكن كاريل ألحّ عليها كثيرا بحيث لم تجد بدّا من الامتثال لطلبه، فقامت وقد ألصقت يديها بجسدها وهي تشد قميصها إلى الأسفل. نظر إليها كاريل بإمعان، وفجأة تهيأ له أنها تشبه نورا. كان الشبه بينهما طفيفا لا يدرك إلا بطول النظر، ولا ينكشف إلا كومضات خاطفة سرعان ما تتلاشى. لكن كاريل ظل متمسكا بها، لأنه كان يريد أن يرى السيدة الحسناء نورا من خلال إيڤا.

– أديري لنا ظهرك! قال آمرا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ترددت إيفا في الاستجابة لطلبه، لأنها كانت تعلم أنها عارية. لكن كاريل ظل يلحّ، بالرغم من أن ماما احتجّت عليه قائلة: «لا تجبر الآنسة على القيام بما يشبه التدريب العسكري!»

استمر كاريل في إلحاحه: «كلا، كلا، أريد أن تدير لنا ظهرها». وانتهت إيفا إلى الامتثال له.

لا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن ماما كانت ضعيفة البصر ولا ترى جيداً. فقد سبق أن خلطت بين الأعمدة وقرية، كما خلطت بين السيدة نورا وإيفا. لكن حسْبُ المرء أن تكون عيناه نصف مغمضتين حتى يخلط بين الأعمدة والبيوت. ألم يغبط ماما ولمدة أسبوع على رؤيتها تلك؟ جعل جفنيه نصف مغمضتين، فتبدى له جمال الزمن الخالي.

لقد احتفظ من هذا الجمال بذكرى خفية لا تنسى. كان في الرابعة من عمره تقريبا، وكان بصحبة الماما والسيدة نورا في مدينة مياه ساخنة (هو لا يذكر أين توجد تلك المدينة)، وكان عليه أن ينتظرهما في قاعة الملابس الخالية. كان ينتظر هناك وحيدا بصبر بين الملابس النسائية المتروكة، ثم دخلت عليه في الحجرة امرأة عارية. كانت طويلة القامة ورائعة. أدارت ظهرها للطفل ومدّت يدها إلى المشجب المثبت على الحائط حيث عُلّق مئزرها. إنها نورا.

لم تبرح صورة هذا الجسد المنتصب العاري المنظور إليه من الظهر ذاكرته أبدا. لقد كان صغيرا، وكان ينظر إلى هذا الجسد من تحت، كما لو كان ينظر إليه من منظور نملة، فكأنه ينظر اليوم إلى تمثال بطول خمسة أمتار. كان قريبا من ذلك الجسد، ولكنه في الآن ذاته كان بعيدا عنه. بعيد مرتين، في المكان وفي الزمان. لقد كان هذا الجسد المنتصب فوقه شاهقا، كما كان يفصله عنه عدد لا متناه من السنوات، وكان هذا البعد المزدوج يشعر الطفل ذي الأربع سنوات بالدوار. وهو الآن يحس بنفس الدوار من جديد، وبقوة فائقة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان ينظر إلى إيڤا التي أدارت إليهم ظهرها، فرأى السيدة نورا. كان يفصله عنها متران ودقيقة أو دقيقتان. ثم قال: «إن مجيئك عندنا وثرثرتك معنا لَلُطفٌ منك، لكن السيدتين تريدان النوم الآن».

وما كادت ماما تغادر الغرفة في دِعة وتواضع، حتى طفق كاريل يحكي للمرأتين الذكرى التي بقيت له عن السيدة نورا، فقرفص أمام إيڤا وهو يجول ببصره حولها لكي يراها من الخلف، مقتفيا بعينيه أثر نظرات الطفل الذي كانه.

ها إن التعب قد زال عنه دفعة واحدة، فطرح إيڤا أرضا إلى أن صارت ممددة على بطنها، وقرفص عند رجليها، وترك بصره ينفلت بين فخذيها حتى الردف، ثم ارتمى عليها وواقعها.

تهيأ له أن هذه الارتماءة على جسدها قفزة على فترة زمنية كبيرة، قفزة طفل يرتمي من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة. بعد ذلك، لما كان يهتز فوقها إلى الأمام ثم إلى الخلف، خُيّل له أنه يحاكي نفس الحركة من الطفولة إلى الرجولة، ومن الرجولة إلى الطفولة، وأيضا من الطفل الذي كان ينظر ببؤس إلى ذلك الجسد الأنثوي الضخم إلى الرجل الذي يعانقه ويروّضه. هذه الحركة التي يبلغ مداها بالكاد خمسة عشر سنتمترا، بدت طويلة بمقدار ثلاثة عقود.

كانت المرأتان تنثنيان تحت هيجانه. فانتقل من السيدة نورا إلى ماركيتا، ثم عاد إلى السيدة نورا، وهكذا. واستمر على هذه الحال مدة طويلة. ثم أحس بالحاجة إلى شيء من الراحة، وعندها انتابه شعور رائع. شعر بأنه أقوى مما كانه في أي وقت مضى. ظلّ ممددا على الأريكة يتأمل المرأتين الممدّدتين أمامه على الأريكة الأخرى الواسعة. وخلال فترة الراحة القصيرة هذه لم يعُد يرى أمامه السيدة نورا، بل صديقتيه القديمتين، الشاهدتين على حياته: ماركيتا وإيڤا. وتملّكه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شعور لاعب شطرنج ماهر قهر خصمين على رقعتين اثنتين. راقه هذا التشبيه كثيرا حتى إنه لم يستطع منع نفسه عن الصياح بصوت عال : «أنا بوبي فيشر، أنا بوبي فيشر(*)».

12

لما كان كاريل يصيح بأنه «بوبي فيشر» (الذي فاز في هذه الفترة تقريبا بكأس العالم في الشطرنج في إيسلاندا)، ظلت ماركيتا وإيڤا ممددتين على الأريكة، تلتصق واحدتها بالأخرى، ثم همست إيڤا في أذن صديقتها ماركيتا: «أموافقة؟»

أجابتها ماركيتا بالموافقة، وراحت تعتصر شفتي إيڤا.

ساعة قبل هذا، لمّا كانتا في الحمام، طلبت منها إيڤا (وهي الفكرة التي جاءت من أجلها إلى هنا، وإن كانت ترتاب في مدى صحتها) أن تزورها يوما لكي تكافئها بدورها. وكم كان بودّها أن تدعوها مع كاريل، لكنه على غرار زوج إيڤا كان غيورا، إذ لا يطيق أيّ منهما حضور رجل ثان.

في تلك اللحظة بدا لـ ماركيتا من المستحيل قبول الدعوة، واكتفت بالضحك، مع أن اقتراح إيڤا أصبح يشغل بالها بعد دقائق من ذلك، أي لمّا كانا في الغرفة، وكانت ثرثرة أم كاريل تلامس بالكاد سمعها. وصار طيف زوج إيڤا حاضرا معهما.

وحين مضى كاريل يصرخ بأنه كان في الرابعة من عمره لما جلس القرفصاء ليشاهد من تحت إيڤا واقفة. قالت ماركيتا في نفسها إنه

(*) هو Robert James Fischer الملقب بـ Bobby Fischer (1943-2008) لاعب شطرنج أمريكي، حصل على الجنسية الإيسلندية سنة 2005. بطل العالم في الشطرنج بين 1972-1975.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يتصرف كطفل في الرابعة حقا، يفعل كما لو كان يهرب من أمامها نحو طفولته. ثم مكثت المرأتان معا بمفردهما وليس معهما إلا جسده. ذلك الجسد الفحل، القوي الحركة لدرجة يبدو لاشخصيا وفارغا، بحيث يمكن إضفاء أي روح عليه، حتى لو كانت روح زوج إيڤا. وكان على ماركيتا أن تتحاشى النظر لوجهه حتى لا تتخيله جسد رجل غريب. إنه حفل تنكري وضع فيه كاريل على وجه إيڤا قناع نورا، وارتدى هو قناع طفل، وفصلت ماركيتا رأسه عن جسده. كان جسد رجل بلا رأس. اختفى كاريل فحدثت المعجزة: صارت ماركيتا حرّة مرحة.

هل قصدت من هذا تأكيد شكوك كاريل بأن الحفلات التهتكية الصغيرة المقامة في البيت لم تكن بالنسبة لـ ماركيتا -وإلى حدود تلك اللحظة- سوى تضحية ومعاناة؟

كلا، هذا تبسيط كبير للموقف. فـ ماركيتا كانت تشتهي فعلا بجسدها وحواسها من تعتبرهنّ عشيقات كاريل، وهي تشتهيهم أيضا برأسها. فهي إذ تحقق نبوءة أستاذ الرياضيات العجوز، كانت تريد أن تظهر نفسها -على الأقل في حدود العقد المشؤوم- كمبادِرة ومتحمِّسة حتى تثير إعجاب كاريل.

لكن بمجرد أن تجد نفسها عارية بجانبهن على الأريكة، حتى تختفي الهذايانات الشبقية من رأسها، وتكفي رؤية زوجها لإرجاعها إلى دورها، دور من يُساء لها بالرغم من كونها هي الفضلى. وحتى وهي مع إيڤا التي تحبها كثيرا، ولا تغار منها، فإن حضور الرجل المحبوب يثقل عليها، ويخنق شهوة حواسها.

ففي اللحظة التي فصلت فيها الرأس عن الجسد شعرت بملامسة الحرية ملامسة ساحرة لا عهد لها بها. وكان إخفاء هوية الجسد بالنسبة إليها جَنَّة تتكشف فجأة. وهكذا جعلت تسلخ عنها، وبمتعة غريبة، روحها المكلومة البالغة التيقظ، وأخذت تتحول إلى مجرد جسد بلا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ذاكرة ولا ماض، ولكنه جسد أكثر تفتحا ولهفة. كانت تداعب وجه إيڤا بحنان، بينما كان الجسد المفصول عن الرأس يتحرك فوقها بحيوية.

إلا أن الجسد بلا رأس توقف عن الحركة، وبصوت ذكّرها بصوت كاريل، تفوّه بجملة بالغة البلاهة: «أنا «بوبي فيشر»! أنا «بوبي فيشر»!»

كانت هذه الجملة بمثابة منبّه أخرجها من حلمها. وفي هذه الأثناء، وبما أنها كانت ملتصقة بإيڤا (مثلما يتمسك النائم الذي يوقظه نور الصباح بوسادته ليخفي بها رأسه)، سألتها إيڤا: «أموافقة؟»، فأومأت لها بأنها موافقة، وعصرت بشفتيها شفتَيْ إيڤا. لقد أحبتها دائما، لكنها في ذلك اليوم، أحبتها بكل جوارحها، أحبتها لِذاتها ولجسدها ولبشرتها، ثم انتشت بهذا الحب الحسي كما ينتشي المرء بإلهام مفاجئ.

مكثتا إثر ذلك ممددتين على بطنيهما جنبا لجنب، ومؤخرتاهما مرفوعتان شيئا ما؛ ثم شعرت ماركيتا من خلال بشرتها أن ذلك الجسد الفحل يحدّق إليها، وأنه ربما سيعيد الكرة. كانت تبذل ما في وسعها لكي لا تسمع الصوت الذي يصرخ بأنه يرى السيدة نورا الحسناء، كما كانت تبذل ما وسعها لكي تكون مجرد جسد لا يسمع، ويلتصق بجسد صديقة لطيفة وبجسد رجل لا رأس له.

وما إن انتهى كل شيء حتى نامت صديقتها، فغبطتها على هذا النوم الحيواني، وكان بودّها أن تمتص هذا النوم من شفتيها، علّها تنام على شاكلتها. لذلك التصقت بها، وأغلقت عينيها لإيهام كاريل بأنها نامت أيضا. ولما أيقن هو أن المرأتين نامتا، ذهب إلى الغرفة المجاورة لينام.

على الساعة الرابعة والنصف صباحا فتحت ماركيتا باب غرفته،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نظر إليها والنوم ملء جفنيه، فبادرته: «نم، أنا سأهتم بإيڤا»، ثم قبلته بحنان. انقلب على جنبه الآخر، وغرق في النوم.

في السيارة، سألتها إيڤا ثانية: «أموافقة؟»

لم تكن ماركيتا حاسمة كالأمس. أجل، كم كان بودّها تجاوز الأعراف البالية غير المدوّنة. ولكن كيف لها أن تفعل ذلك دون أن تقضي على الحب؟ كيف لها ذلك وهي ما تزال تحب كاريل أيما حبّ؟

فقالت لها إيڤا: «لا تخافي، لن يلحظ شيئا. فقد تعودتما على أنك أنت من تشكّين فيه وليس العكس. لا داعي للخوف من أن يرتاب في شيء.»

13

غفت إيڤا في مقصورة القطار المهتزة. أما ماركيتا فعادت من المحطة وواصلت النوم (كان عليها أن تصحو بعد ساعة وتتهيأ للذهاب إلى العمل)، وجاء دور كاريل لكي يصطحب ماما إلى المحطة. إنه يوم قطارات. بعد ساعات (عندما يكون الزوجان في العمل) سيصل ابنهما بالقطار ليضع نهاية لهذه القصة.

كان كاريل ما يزال مفعما بروعة ليلة الأمس. فهو يدرك أن من بين ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف مضاجعة (كم مرة نكح في حياته؟) لم يبق في ذاكرته سوى مضاجعتين أو ثلاث، في حين أن المرات الأخرى لا تعدو أن تكون إعادات أوتكرارات أو إيحاءات. وكاريل يعلم أن مضاجعة الأمس تشكل إحدى تلك المضاجعات الرائعة. فشعر برضا كبير.

رافق كاريل ماما في السيارة، وخلال الطريق لم تتوقف عن الكلام. ماذا تقول؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شكرته أولا، فقد شعرت بأنها كانت فعلا عند ابنها وكنتها. ثم عبّرت له عن بعض المآخذ، لأنهم أساؤوا إليها كثيرا في السابق. فحين كانا يسكنان معها، هو وزوجته، لم يكن صبورا معها، بل غالبا ما كان فظا ولا مباليا في معاملتها، وهذا كان يؤلمها. أجل، هي تعترف بأنهما كانا لطيفين معها هذه المرة بخلاف السابق. لقد تغيرا، ولكن لماذا كان لا بدّ من انتظار كل هذا الوقت؟

ظل كاريل ينصت لهذه اللازمة الطويلة من المؤاخذات (فهو يحفظها عن ظهر قلب) دون أن يضايقه ذلك. كان ينظر إلى ماما بطرف عينه، وفوجئ من جديد بضآلتها، كما لو كانت حياتها بكاملها سلسلة من الانكماشات المتدرّجة.

ولكن، ما حقيقة هذا الانكماش؟ أهو انكماش واقع الإنسان الذي يهجر وجوده كراشد ليسافر عبر الشيخوخة والموت باتجاه الأقاصي، حيث لا وجود إلا لعدمٍ بلا أبعاد؟ أم أن هذا الانكماش ليس سوى وهم بصري، راجع لكونِ ماما تبتعد، وتوجد في مكان قصيّ، ومن ثمة فهو لا يراها بعيدة جدا، فتبدو له مثل خروف أو قرقف أو فراشة؟

وحين قطعت ماما سلسلة مآخذها للحظة، سألها كاريل: «كيف هي السيدة نورا الآن؟»

- إنها عجوز الآن، هي عمياء تقريبا.

- هل ترينها بين الفينة والأخرى؟

- «ألا تعلم؟» قالت ماما بغضب وضيق. فالمرأتان لم تعودا تلتقيان منذ زمن بعيد، افترقتا متخاصمتين، ولم تتصالحا قط. وكان على كاريل أن يتذكر ذلك.

«ألا تذكرين أين قضينا معها العطلة حين كنت صغيرا؟»

«بلى، أذكر بطبيعة الحال!» قالت ماما، ثم ذكرت اسم مدينة مياه ساخنة ببوهيميا. كان كاريل يعرف هذه المدينة جيدا، لكنه لم يكن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يدري أن في تلك المدينة توجد غرفة الملابس التي رآى فيها السيدة نورا عارية تماما.

تراءى له منظر مدينة المياه تلك بأوديتها المتدرجة، وباحتها المكسوة بالخشب، وأعمدتها المنقوشة، تحيط بها ربى تغطّيها مراع ترعى فيها خراف يُسمع ثغاؤها وطنين أجراسها. غرس في خياله وسطَ هذا المنظر (كما يصنع مؤلف كولاج حين يضع على صورة قطع صورة أخرى) جسد السيدة نورا عاريا، فتبادرت إلى ذهنه فكرة أن الجمال هو الشرارة التي تقدح فجأة حين يلتقي عصران مختلفان عبر مسافة السنين. وأن الجمال هو تدمير لتسلسل الأحداث، وتمرّد على الزمن.

كان مفعما بجمالها، وممتنّاً لها. ثم قال بلهفة متحرقة: «ماما، فكرنا أنا وماركيتا أنك ربما ترغبين في السكن معنا. لن يصعب علينا استبدال هذه الشقة بأخرى أوسع.»

داعبت ماما يده، وقالت: «إنك لطيف يا كاريل، لطيف جدا. كم سرني سماع هذا منك، ولكنك تعلم أن كلبي قد صارت له عادات هناك، ولي هناك أيضا صديقات من جيراني.»

صعدا بعد ذلك إلى القطار، وبحث لها كاريل عن مقصورة، كانت كل المقصورات ممتلئة وغير مريحة، فأجلسها أخيرا في مقصورة من الدرجة الأولى، ومضى يبحث عن المراقب لكي يؤدي الفارق. وبما أنه كان يمسك بيده حافظة نقوده، أخرج منها ورقة من فئة مائة كورونة ووضعها في يد ماما، وكأنها فتاة صغيرة يرسلها ذووها إلى مكان بعيد من هذا العالم الشاسع. وبحركة عادية مثل تلميذة متعودة على تسلم بعض المال بين الفينة والأخرى من الراشدين أمسكت ماما الورقة من دون دهشة. تحرك القطار وظلت ماما تطل على كاريل في الرصيف من النافذة وتومئ له طويلا طويلا حتى آخر لحظة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

الجزء الثالث

الملائكة

1

«وحيد القرن» عنوان مسرحية لأوجين يونيسكو. وهي تعرض شخصيات استبدّت بها الرغبة في أن تكون متشابهة، فأخذت تتحول الواحدة تلو الأخرى إلى وحيد القرن. وقد كانت غابرييل وميشيل، وهما طالبتان أمريكيتان، تدرسان هذه المسرحية ضمن دروس العطلة التي تُقدّم للطلبة الأجانب بمدينة صغيرة واقعة على شاطئ المتوسط. وكانت هاتان الطالبتان أثيرتين عند السيدة رافاييل أستاذتهما، لأنهما كانتا دائما تشاهدان المسرحية بانتباه، وتسجلان بعناية الملاحظات التي تعنّ لهما.

وقد طلبت منهما الأستاذة اليوم أن تحضّرا عرضاً حول المسرحية للحصة القادمة.

«أنا لا أفهم جيدا ما معنى أن يتحولوا جميعا إلى وحيدي القرن»، قالت غابرييل.

- «ينبغي تأويل هذا باعتباره رمزا»، أجابت ميشيل.
- قالت غابرييل: «صحيح، فالأدب عبارة عن رموز.»
- وحيد القرن رمز قبل كل شيء، قالت ميشيل.
- أجل، ولكن حتى وإن سلّمنا بأنهم لم يتحولوا إلى وحيدي قرن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حقيقيين، بل إلى رمز فقط، فلماذا أصبحوا هذا الرمز تحديدا وليس غيره؟

- أجل، هذه مشكلة بالطبع، قالت ميشيل بأسى؛ ثم ساد صمت فيما كانت الفتاتان في طريقهما إلى بيت الطالبات لأخذ استراحة.

وما لبثت غابرييل أن كسَرت الصمت قائلة: «ألا تعتقدين أن الأمر يتعلق برمز قضيبي؟»

- ماذا؟ سألت ميشيل.

- القرن. أجابت غابرييل.

- صحيح، صاحت ميشيل، لكنها استدركت «ولكن لماذا سيتحولون جميعا إلى رمز قضيبي؟ الرجال والنساء على حد سواء؟»

ثم خيّم الصمت من جديد على الفتاتين اللتين كانتا تهرولان في اتجاه بيت الطالبات.

«لديّ فكرة»، قالت ميشيل فجأة.

- سألت غابرييل باهتمام: «ما هي؟».

إن السيدة رافاييل أوحت بها تقريبا، قالت ميشيل، وهي تستفز فضول غابرييل:

«إذن ما هي؟ قولي» طلبت غابرييل بإلحاح وقد نفذ صبرها.

- لقد هدف الكاتب إلى خلق أثر كوميدي!

شغلت هذه الفكرة غابرييل إلى حد أنها من شدة التركيز على ما يدور في رأسها، أرخت ساقيها، وراحت تبطئ السير، ثم توقفت الفتاتان.

- تعتقدين أن رمز وحيد القرن ورد لخلق أثر كوميدي؟ سألتْ.

- «أجل»، قالت ميشيل، ثم ابتسمت ابتسامة من عثر على الحقيقة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

– «أنت محقّة»، قالت غابرييل.

تبادلت الفتاتان النظر وهما سعيدتان بجرأتهما، واهتز طرف فميهما فخرا. ثم فجأة أصدرتا أصواتا حادة قوية ومتقطّعة يتعذر وصفها بالكلمات.

2

«الضحك؟ هل يُهتمّ بالضحك؟ أقصد الضحك الحقيقي الذي يتجاوز المزاح والسخرية والسخافة. الضحك باعتباره متعة عظيمة وعارمة، بل كل المتعة...

كنت أقول لأختي، أو تقول لي هي، «هلا نلعب معاً بالضحك؟» كنا نتمدد على السرير جنبا لجنب، ونشرع في اللعب. كنا نتظاهر بذلك طبعا. ضحكات مصطنعة. ولا يلبث الضحك الحقيقي الكامل أن يحِلّ، فتجرفنا دفقاته العاتية. ضحكات متفجّرة مكرورة متدافعة عنيفة، ضحكات رائعة فاخرة ومجنونة... آه من الضحك! ضحك المتعة، ومتعة الضحك. أن تضحك معناه أن تعيش بعمق.»

اقتبست هذا النص من كتاب بعنوان «كلام امرأة». وهو كتاب ألفته امرأة سنة 1974 تُعَدّ من المدافعات عن قضية المرأة اللواتي طَبَعْنَ عصرنا هذا بطابع خاص. والكتاب عبارة عن بيان صوفي يدور حول الفرح، تُقابل فيه المؤلفة بين الشهوة الجنسية الذكورية المحكومة بلحظة الانتصاب العابرة، المقرونة من ثمة بالعنف والفناء والتلاشي، وبين «اللذة» الأنثوية اللطيفة والملازمة والمستمرة. فالمرأة، إن هي ظلت على فطرتها، تجد المتعة في كل أفعالها «من أكل وشرب وتبول وتبرز ولمس وسمع، بل حتى في مجرد وجودها». ويمتد جرد المتع هذا على مدى الكتاب. «فالحياة سعادة: البصر والسمع واللمس والشرب والأكل والتبول والتبرز والغطس في الماء والنظر إلى السماء والضحك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والبكاء». وإذا كانت المضاجعة ممتعة، فلأنها تضمّ كل «مُتع الحياة الممكنة: من لمس وبصر وسمع وكلام وإحساس؛ وأيضا الشرب والأكل والتبرز والمعرفة والرقص». والرضاعة متعة كذلك، بل حتى الولادة متعة، والحيض لذّة، إنه هذا «اللعاب الدافئ، والحليب الغامق، وهذا الدم السائل الفاتر المحلّى، وهذا الألم الذي يحمل طعم السعادة الحارق».

الأحمق وحده يجرؤ على الهُزء من بيان الفرح هذا. فأساس النُّسْك هو الغلوّ. فإذا شاء الناسك بلوغ المنتهى، منتهى الإهانة، ومنتهى اللذة، تعيّن عليه ألا يخشى السخافة. فعلى غرار القديسة «تيريزا» التي كانت تبتسم أثناء احتضارها، أكدت القديسة «آني لوكليرك» (هذا هو اسم مؤلفة الكتاب التي اقتبست منه هذه الفقرات) أن الموت قطعة من البهجة، وأن الذّكر وحده هو من يخافها، لأنه متمسك بشكل بئيس بـ «أناه الصغيرة، وبسلطته الصغيرة».

يدوّي الضحك في الأعلى فيما يشبه قبّة معبد الشهوة، «إنه جذبة السعادة اللذيذة، وذروة اللذة القصوى. الضحك من اللذة، ولذة الضحك». ومما لا شك فيه أن هذا الضحك «أسمى من المزاح والسخرية والسخافة.» فالأُختان الممدّدتان على السرير لم تكونا تضحكان من أي شيء محدد. فضحكهما لا موضوع له. إنه تعبير الكائن عن فرحة وجوده. ومثلما يعبّر المتألم عن ألمه بالأنين (ويكون مفصولا تماما عن الماضي والمستقبل)، فإن المنفجر بهذا الضحك الانتشائي يتجرّد من كلّ ذكرى ومن كلّ رغبة، ويكون ضحِكُه راسخا في تلك اللحظة، متركزا حولها.

لعلّكم تذكرون هذا المشهد الذي رأيتموه في عشرات الأفلام الرديئة: فتاة وفتى أمسك أحدهما بيد الآخر وهما يجريان في فضاء ربيعي (أو صيفي)، يعدوان ويعدوان ضاحكين، كما لو كان ضحكهما يقول للعالم أجمع ولجميع المتفرجين: نحن سعيدان وفرحان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بوجودنا، نحن متوافقان مع الوجود! وبالرغم من غباوة المشهد، فهو يعبّر عن موقف إنساني جوهري: الضحك الجاد، «الضحك الذي يتجاوز المزاح».

فكل الكنائس، وكل صانعي الألبسة، وكل الجنرالات، وكل الأحزاب السياسية متّفقون على هذا الضحك. كلهم يتهافتون على وضع صورة هذين العدّاءَيْن الضاحكَيْن على ملصقاتهم عندما يقومون بالدعاية لعقائدهم وسلعهم وإيديولوجياتهم وشعوبهم وعوراتهم ومسحوقهم لغسل الأواني.

مِن هذا الضحك تحديدا تضحك ميشيل وغابرييل. تخرجان من ورّاقة وقد شدّت إحداهما على يد الأخرى، وفي اليد الثانية لكل منهما تتأرجح علبة فيها ورق ملون ولصاق وخيوط مطاطة.

«سترين كم ستُسرّ السيدة رافاييل» قالت غابرييل، وهي تصدر أصواتا قوية حادة. وافقتها ميشيل الرأي، وهي تصدر نفس الأصوات تقريبا.

3

بعد احتلال الروس لبلدي عام 1968 طردوني من عملي (على غرار آلاف التشيكيين)، ولم يُسمح لأحد بتشغيلي. حينذاك زارني مجموعة من الأصدقاء الشباب، وكانوا أصغر من أن يُسجّلوا على لوائح الروس، وبالتالي كان بوسعهم المكوث في قاعات التحرير والمدارس واستوديوهات السينما؛ فاقترح عليّ هؤلاء الأصدقاء، الذين سأظل وفيا لهم ما حييت، كتابة مسرحيات إذاعية ومقالات وتحقيقات وسيناريوهات أفلام، وتوقيعها بأسمائهم، وذلك حتى أضمن معاشي. كنت ألجأ إلى هذه الخدمات أحيانا، لكنني كنت أرفضها في غالب الأحيان، لأنني لم أكن أستطيع القيام بكل ما كان يُقترح علي. إضافة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إلى أن ذلك لم يكن يخلو من خطورة، ليس عليّ أنا، بل عليهم. لقد كان البوليس السري قد عزم على تجويعنا وتفقيرنا وإكراهنا على إعلان استسلامنا وخضوعنا، لذلك كان يراقب بحذر كل منافذ الإغاثة التي كنا نحاول اللجوء إليها لكسر الحصار المضروب علينا. كما كان البوليس يعاقب بصرامة كل من سوّلت له نفسه مساعدتنا.

من بين هؤلاء المتبرّعين الكرماء امرأة تدعى (ر)، (وليس لدي ما أخفي بهذا الخصوص، لأن كل شيء انفضح). كانت هذه الشابة الخجولة الذكية تعمل محرِّرة في مجلة للشباب يُطبع منها عدد هائل من النسخ. وبما أن هذه المجلة كانت مضطرة لنشر مجموعة كبيرة من المقالات السياسية العسيرة الهضم، التي تشيد بالشعب الروسي الشقيق، فقد كانت هيئة التحرير تبحث عن وسيلة تثير بها اهتمام الجماهير. لذلك قررت الخروج استثناءً عن نقاء الإيديولوجيا الماركسية، واستحداث زاوية لقراءة الطالع والأبراج.

خلال هذه السنوات التي عشتها معزولا، أنجزت آلافا من طوالع الأبراج. وإذا كان «ياروسلاف هاشيك(*)» العظيم قد تحول في فترة من حياته إلى بائع كلاب (إذ كان يبيع كثيرا من الكلاب المسروقة، كما كان يبيع كلابا هجينة على أنها كلاب أصيلة نادرة)، فلماذا لا أصير أنا منجّما؟ وكان قد بعث لي بعض الأصدقاء من باريس بكثير من مؤلفات «أندري باربو»(**) الذي كان اسمه مقرونا بصفة: رئيس المركز العالمي

(*) Jaroslav Hasek (1883–1923) كاتب روائي وصحفي من أصل تشيكي اشتهر برائعته الهجائية «الجندي الشجاع «شيفك»». وهو يمثل مع «فرانز كافكا» تيار التجديد الأدبي في بداية القرن العشرين في «براغ».

(**)(André Barbault) منجّم فرنسي شهير مولود سنة 1921، كتب العديد من المؤلفات في مجال التنجيم. ويعد كتابه «بحث تطبيقي في التنجيم» من أشهر ما كتب في هذا المجال.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للتنجيم، فكتبت على صفحته الأولى بالريشة، وبخط مخالف لخطي: إلى ميلان كونديرا، مع إعجابي. وكنت أترك هذه الكتب المهداة على الطاولة زاعما لزبنائي البراغيين المذهولين بأنني قضيت شهورا بباريس كنت فيها مساعدا للمنجّم الشهير.

وعندما طلبتْ مني (ر) الإشراف سرّا على زاوية التنجيم من أسبوعيتها، استجبت لطلبها بحماس، ونصحتها بأن تعلن لهيئة التحرير بأن كاتب التنبؤات متخصص لامع في الذّرّة يفضل عدم ذكر اسمه مخافة سخرية زملائه. وهكذا تهيّأ لي أنّ اتفاقنا كان محميا مرتين: بالعالِم الذي لا وجود له، ثم بالاسم المستعار.

كتبت من ثمة مقالا مطوّلا عن الأبراج باسم مستعار، ثم واظبت كل شهر على كتابة نص موجز وسخيف عن مختلف الأبراج التي رسمتها بنفسي، ودوّنت عليها أسماءها: الثور، الحمل، العذراء، الحوت. كان مردود هذا العمل ضئيلا، كما أنه لم يكن مسليا. ولعل ما كان يرضيني في كل هذا هو وجودي، وجود إنسان ممحو من التاريخ ومن الكتب المدرسية ومن دليل الهاتف. رجل ميّت يعود الآن إلى الحياة من جديد متقمصا شخصية مثيرة تبشر آلاف الشباب في بلد اشتراكي بحقيقة علم التنجيم العظيمة.

وذات يوم أخبرتني (ر) بأن رئيس التحرير أعجب بالمنجِّم، وطلب أن يقرأ له طالعه. وكم أبهجني ذلك. فرئيس التحرير عيّنه الروس على رأس المجلة، وقد أفنى نصف حياته في دراسة الماركسية اللينينية في براغ وموسكو.

«كان خجِلا وهو يطلب مني ذلك» قالت لي (ر) وهي تبتسم. وهو لا يريد لإثارة ضجّة حول الأمر، ولا أن يُقال إنه يؤمن بهذه المعتقدات العتيقة. لكن الأمر استهواه مع ذلك.

«حسنا»، قلت لها برضا. وكنت أعرف رئيس (ر)، ففضلا عن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كونه رئيس (ر)، كان عضوا في اللجنة العليا للحزب المكلفة بإعداد الكوادر، وقد دمّر حياة كثير من أصدقائي. «انه يصرّ على أن لا تُكشف هويته. لي أن أعطيك تاريخ ميلاده، لكنه لا يرغب في أن تعلم بأن الأمر يتعلق به.» راقني الأمر أكثر، «هذا أفضل!»

– سيمنحك مائة كورونة لتقرأ طالعه.

– مائة كرونة؟ ماذا يعتقد هذا البخيل؟

لقد جعلته يدفع لي ألف كرونة، وهكذا سوّدت عشر صفحات رسمت فيها ملامح شخصيته، وصورت ماضيه (الذي كنت أعرفه) ومستقبله. اشتغلت على ما طُلب مني أسبوعا كاملا، وتشاورت بضع مرات مع (ر). وبطبيعة الحال تتيح لك قراءة الطالع إمكانية توجيه سلوك الناس بأعجوبة، إذ يمكن نصحهم بأفعال معينة، وتحذيرهم من أخرى، وإذلالهم عبر إطلاعهم على كوارثهم المستقبلية.

وعندما التقيت (ر)، ضحكنا كثيرا، إذ أخبرتني أن معاملة رئيسها صارت أفضل بعدما كُشف طالعه، وأصبح قليل الصراخ، وغدا يتوجس من قساوته التي نبّهه لها طالعه، ويقيم وزنا للطيبوبة التي كان بإمكانه التعبير عنها. وأصبح يُظهِر في نظرته، التي كان غالباً ما يوجّهها نحو الفراغ، حزن رجل يعلم أن النجوم لا تعِده إلا بالمعاناة.

4

(بشأن الضحكتين)

إن النظر إلى الشيطان باعتباره نصيراً للشر، وإلى الملاك على أنه نصير للخير معناه تبنّي ديماغوجية الملائكة. إذ الأشياء أعقد من ذلك بكثير.

فالملائكة ليسوا أنصار الخير، بل هم أنصار الخلق الإلهي؛ بخلاف الشيطان الذي يرفض أن يكون للعالم الإلهي معنى عقلاني.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فالهيمنة على العالم يتقاسمها كما نعلم الملائكة والشياطين. ومع ذلك لا يقتضي الخير غلبة الملائكة على الشياطين (كما كنت أعتقد حينما كنت طفلا)، بل التعادل بينهما. فإذا ما سيطر على العالم كثير من المعنى اليقيني (سطوة الملائكة)، رزح الإنسان تحت ثقله. وإذا ما فقد العالم معناه (سطوة الشياطين)، استحالت الحياة عبثاً لا يُحتمل.

فإذا ما فقدت الأشياء معناها المفترض فجأة، واختلّ موقعها داخل نظام الأشياء المزعوم، أثارت ضحكنا (كأن يؤمن ماركسي تلقى تكوينه في موسكو بقراءة الطالع). فالضحك في أصله إذن يدخل ضمن مجال الشيطان. إنه يبدو شرّيراً (إذ تبدو الأشياء مخالفة لما وجدت من أجله)، لكن في الضحك أيضا شيئا مفيداً لما فيه من الترويح (تصير الأشياء معه أكثر خفّة مما ظهرت عليه، ومن ثمة نتحرر منها، وتكف عن قهرنا تحت وطأة جديتها القاسية.)

حين سمع الملاك ضحكة الشيطان للمرة الأولى أصابه الذهول. حدث ذلك خلال حفل. كانت القاعة تغصّ بالحاضرين، وكانوا يقعون الواحد تلو الآخر في إسار ضحكة الشيطان المعدية بشكل رهيب. فهِم الملاك من ذلك أن الضحك موجّه ضد الإله وضد خلقه، وكان عليه أن يتصرف بطريقة ما وبسرعة، لكنه شعر بالضعف والعجز عن الرد. ولما أعيته الحيلة، لجأ إلى تقليد غريمه، ففتح فمه وراح يصدر أصواتا متقطعة، في فواصل عالية من طبقته الصوتية (إنها نفس الأصوات تقريبا التي تصدرها ميشيل وغابرييل في زقاق مدينة شاطئية) ولكنه منحها معنى مناقضا: ففي حين يدلّ ضحك الشياطين على عبثية الأشياء، أراد الملاك، على العكس، أن يعبّر عن خضوع الأشياء في هذا العالم لنظام محكم، لأنها خُلقت بعناية، خَيّرة ومليئة بالمعنى.

هكذا إذن كان يتواجه الشيطان والملاك، يفتحان فميهما، ويصدران الأصوات نفسها تقريبا، لكن كل منهما يقصد بهذه الأصوات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شيئا مناقضا لما يقصده الآخر. كان الشيطان ينظر إلى ضحك الملاك فيضحك أكثر منه وأفضل، وبكيفية أكثر صراحة تجعل ضحك الملاك مثيراً للضحك.

ما أبشع الضحك السخيف! ومع ذلك حقق الملائكة نتيجة، فقد خدعونا من خلال دلالة الكلمات. ذلك أن كلمة واحدة تدلّ على ضحكهم المزوّر والضحك الأصلي (ضحك الشيطان). ونحن اليوم لا نكاد نشعر بأن التجلّي الخارجي نفسه يغطّي موقفين متعارضين. هناك نوعان من الضحك، لكننا لا نملك ألفاظا للتمييز بينهما. هناك نوعان من الضحك، لكننا لا نملك لفظاً للتمييز بينهما.

5

نشرت إحدى المجلات هذه الصورة الفوتوغرافية: صفّ من الرجال يرتدون لباسا رسميا ، يحملون بنادق على أكتافهم، ويضعون خوذات على رؤوسهم، ويحمون وجوههم بنوع من الزجاج الواقي. وتتجه أنظارهم إلى شباب وشابات يرتدون سراويل الجينز وقمصان قصيرة، يمسكون بأيدي بعضهم بعضا، ويرقصون في حلقة.

يتعلق الأمر فيما يبدو باستراحة قبل الصدام مع الشرطة التي تحرس مفاعلاً نووياً أو معسكراً للتدريب العسكري، أو الأمانة العامة لحزب سياسي أو نوافذ سفارة. فالشباب استغلوا هذا الوقت الميت لتشكيل حلقة، وهم يرددون لازمة شعبية، ويقومون بخطوتين، في أماكنهم ثم خطوة إلى الأمام، ثم يرفعون الرجل اليسرى فاليمنى.

أظن أنني أفهم قصدهم: يخيّل إليهم أن الدائرة التي يخطّونها على الأرض تشكل الدائرة السحرية التي تجمع بينهم كالخاتم، وأن صدورهم يملؤها شعور عارمٌ بالبراءة. فما يجمعهم ليس الخطوات المتراصة مثل العساكر أو التشكيلات الفاشية، بل تجمعهم رقصة، مثل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأطفال، فهم يريدون أن يبصقوا براءتهم في وجه المخبرين.

هكذا رأى المصوّر هذا التناقض الصارخ، وبهذه الطريقة البليغة أبرز هذا التعارض: من جهة يوجد البوليس الذي يظهر موحّدا، لكن وحدته مزيّفة (مفروضة عن طريق الأمر)؛ ومن جهة ثانية هناك الشباب الذين تجمعهم وحدة الدائرة (وفي وطبيعي). من جانب وحدة البوليس الكئيبة المختفية، ومن جانب آخر الشباب المغتبطون باللعب.

الرقص في الحلقة له سحر خاص، ذلك أن الحلقة تخاطبنا من أعماق الذاكرة الضاربة في الماضي. قصّت الأستاذة السيدة رافاييل هذه الصورة من المجلة، ثم أخذت تتأملها حالمة. فقد كانت هي أيضا ترغب في الرقص داخل حلقة، إذ بحثت طوال حياتها عن حلقة من الرجال والنساء تمسك بأيديهم وترقص. بحثت عنهم أول الأمر في الكنيسة الميتودية(*) (وكان أبوها متديناً متعصبا في عقيدته)، ثم في الحزب الشيوعي، ثم في الحزب التروتسكي، ثم في الحزب التروتسكاوي المنشق، وبعدها في الحركة المناهضة للإجهاض (للطفل الحق في الحياة!)، ثم في حركة تشريع الإجهاض (للمرأة حق التصرف في جسدها!). لقد بحثت عن الحلقة عند الماركسيين والمحللين النفسانيين ولدى البنيويين. بحثت عند لينين وفي بوذية الزّن، وعند ماو تسي تونغ وأتباع اليوغا، وفي تيّار الرواية الجديدة، وفي الأخير سعت على الأقل إلى أن تكون منسجمة مع تلاميذها فتتوحّد معهم. وهذا معناه أنها سعت لأن تجبرهم دائما على أن يفكروا ويقولوا نفس ما تفكر فيه وتقوله، وأن يشكلوا معها جسدا واحدا بروح واحدة في الحلقة نفسها والرقصة نفسها.

(*) الميتودية (Méthodisme) نظرية كنيسة الميتوديين أو تعاليمها، وهي حركة دينية إصلاحية قادها في أكسفورد عام 1729م تشارلز وجون ويزلي، سعت إلى إحياء كنيسة أنجلترا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

توجد تلميذتاها ميشيل وغابرييل في هذه الأثناء في غرفتيهما، في بيت الطالبات، تعكفان على نص «يونيسكو». راحت ميشيل تقرأ بصوت مرتفع:

«قال عالم المنطق للرجل الشيخ: خذ ورقة واحسب. إذا انتزعنا قائمتين للهرّين، فكم قائمة يبقى لكل هرّ؟

قال الرجل الشيخ لعالم المنطق: للمسألة حلول عديدة ممكنة. يمكن أن يكون لأحد الهرّين أربع قوائم، في حين لا يكون للآخر غير قائمتين. وقد يكون لأحدهما خمس قوائم، وللآخر قائمة واحدة. وبإزالة قائمتين من أصل قوائم الهرّين الثّمان، يمكن الحصول على هرّ بست قوائم، وآخر لا قوائم له البتة.»

توقفت ميشيل عن القراءة ثم قالت: «لم أفهم كيف يمكن إزالة قوائم القط. أيكون قادراً على بترها؟»

- «ميشيل»! صاحت غابرييل

- لا أفهم أيضا كيف يمكن أن يكون لقط ست قوائم.

«ميشيل»! صاحت غابرييل من جديد.

- «ماذا؟» سألت ميشيل.

- «أنسيت؟ مع أنك أنت التي قلت ذلك!»

- «ماذا؟» سألت ميشيل ثانية.

- هذا الحوار يتوخى بكل تأكيد خلق أثر كوميدي!

- «أنت محقّة»، قالت ميشيل، ثم نظرت إليها بابتهاج. حدقت الشابتان في عيني بعضهما بعضا. بدت في زاوية شفاههما ما يشبه ارتعاشة فخر، ثم صدرت عن فميهما أصوات حادة ومتقطعة، تقع في الطبقات العالية من صوتيهما. رددا الأصوات نفسها «ضحكات مصطنعة... ضحكات سخيفة... ضحكات متقطعة، مكرورة، متدافعة،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هائجة، ضحكات ساحرة، فخمة ومجنونة... يا له من ضحك! ضحك المتعة ومتعة الضحك...»

أما السيدة رافاييل فكانت تذرع، وحيدة، أزقة مدينة صغيرة على شاطئ البحر الأبيض المتوسّط. رفعت رأسها فجأة كما لو سمعت لحنا صافيا تناهى إليها من بعيد عبر الهواء الخفيف، أو كما لو أن رائحة زكية آتية من بعيد زكمت منخريها. توقفت فسمعت في جمجمتها صراخ الفراغ المتمرّد المُطالب بأن يُملأ. وتهيّأ لها أن غير بعيد عنها تتراقص جذوة الضحك العظيم، وأن قريبا منها في مكان ما، يوجد أناس يمسكون بأيدي بعضهم بعضا، ويرقصون في حلقة...

ظلت هنيهة تنظر حولها بعصبية، ثم ما لبثت تلك الموسيقى أن توقفت (كانت ميشيل وغابرييل قد كفتا عن الضحك، إذ شعرتا فجأة بالعياء، وهما مُقبلتان على ليلة خالية من الحب). عادت السيدة رافاييل إلى بيتها عبر أزقة المدينة الشاطئية الدافئة وهي تشعر بالانزعاج وعدم الرضا.

6

أنا أيضا رقصت في الحلقة. كان ذلك سنة 1948 حين انتصر الشيوعيون في بلدي، ولجأ الوزراء الاشتراكيون والديمقراطيون المسيحيون إلى الخارج. أما أنا فكنت أمسك بأيدي طلبة اشتراكيين آخرين أو بأكتافهم، وكنا نقوم بخطوتين في مكاننا، خطوة إلى الأمام نرفع فيها الرجل اليمنى، ثم الرجل اليسرى. كنا نقوم بهذا كل شهر تقريبا، لأننا كنا نجد دائما شيئا نحتفل به: ذكرى سنوية أو حدث كيفما كان. فكلما أُصلحت مظالم، ارتُكبت مظالم أخرى جديدة. فلئن أمّمت الدولة المعامل، فقد بعثت آلاف الناس إلى السجون؛ وحين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صارت الطبابة مجانية، صودرت دكاكين بائعي التبغ، ومضى العمال القدامى لقضاء العطلة لأول مرة في فيلات مصادرة. كانت تظهر على وجوهنا معالم السعادة. ثم قلت ذات يوم أمرا ما كان لي أن أقوله، فطُردتُ من الحزب، وأُخرِجْتُ من الحلقة.

عندها فهمت الدلالة السحرية للدائرة. فإذا غادر المرء الصف، أمكنه العودة إليه، لأن الصف تشكيل مفتوح. أما إذا غادرت الدائرة، انغلقت دونك، وتعذرت عليك العودة إليها. فليس من الصدفة أن تتحرك الكواكب في دائرة، فلا تكاد الصخور تنفصل عنها حتى تطرد من مدارها، وتقذِف بها القوة النابذة إلى بعيد. وعلى غرار نيزك انفصل عن كوكب، خرجت من الدائرة، وما زلت أسقط إلى اليوم. وهناك من الناس من يموت خلال السقوط، ومنهم من لا يموت إلا في آخر المطاف عند الارتطام. وهؤلاء (وأنا منهم) يحتفظون في أعماقهم بحنين خجول إلى الدائرة المفقودة، لأننا جميعا نسكن عالما تدور فيه كل الأشياء في دائرة.

ذات احتفال سنوي يعلمه الله، كانت شوارع براغ حافلة بحلقات الشباب الراقصين، وكنت أتجَّول بينهم قريبا منهم جدا، لكن المشاركة في حلقاتهم كانت محظورة علي. كان هذا سنة 1950 غداة شنق «ميلادا هوراكوفا»(*). كانت هذه المرأة منتخبة باسم الحزب الاشتراكي، واتهمتها المحكمة الشيوعية بالقيام بأعمال معادية للدولة. وقد شُنِقَ معها في الوقت نفسه «زافيس كالاندرا» الفنان التشكيلي السريالي التشيكي صديق «أندريه بروتون» و«بول إيلوار». ومع ذلك كان الشباب

(*) Milada Horakova (1901-1950) مناضلة سياسية تشيكوسلوفاكية أعدمها الشيوعيون بعد محاكمتها بتهمة الخيانة العظمى والتآمر على النظام. وهي من النساء القلائل اللواتي أعدمن في تشيكوسلوفاكيا، كما أنها تشكل إحدى أبرز رموز مقاومة النظام الشيوعي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التشيكي يرقص وهو يعلم بأن امرأة وفنان سوريالي أُعدما في اليوم السابق، وفي المدينة نفسها. كانوا يرقصون بمزيد من الهياج، وكان الرقص تعبيرا عن براءة تميزهم عن سواد الذنب الذي سقط في دركه المشنوقان، خائنا الشعب وأملِه.

ولم يكن «أندريه بروتون» في باريس يؤمن بأن «كالاندرا» خان شعبه وأمل شعبه، فدعا «بول إيلوار» (بواسطة رسالة مفتوحة مؤرخة في 13 يونيو 1950) إلى الاحتجاج على تلك التهمة الغبية، والسعي إلى إنقاذ صديقهما القديم. لكن «إيلوار» كان يرقص في حلقة عظيمة بين موسكو وبراغ وفارسوفيا وصوفيا واليونان، أي بين كل الدول الاشتراكية وكل الأحزاب الشيوعية في العالم. وكان ينشد أينما حلّ قصائده الجميلة حول الفرح والأخوّة. ولما قرأ رسالة «بروتون»، قام بخطوتين في مكانه، ثم خطوة إلى الأمام، فحرك رأسه رافضا الدفاع عن خائن الشعب (في أسبوعية «العمل» المؤرخة بـ 19 يونيو 1950)، وراح ينشد بصوت رنان:

«سنملأ البراءة
بالقوة التي طالما
أعوزتنا
لن نكون وحيدين أبدا.»

كنت أطوف في أزقة براغ، وحولي كانت تدور حلقات التشيكيين يضحكون ويرقصون. وكنت أعلم أنني لست من جانبهم، بل من جانب «كالاندرا» الذي انفصل هو الآخر عن المدار الدائري وتهاوى لينهي مشواره في نعش منْ أدانه الشعب. غير أنني حاولت عبثا ألا أكون من جانبهم، نظرت إليهم مع ذلك يرقصون ونفسي مليئة بالحسد والحنين، ولم أستطع أن أبارحهم بعيني. وفي هذه اللحظة بالذات رأيته أمامي!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان يمسك بأكتافهم ويغني معهم لحنين بسيطين أو ثلاثة. كان يرفع قدمه اليمنى من جانب، واليسرى من جانب آخر. أجل، هو ذاك، «إيلوار»! طفل براغ المدلل. وفجأة سكت أولئك الذين كان يرقص معهم، وتابعوا الرقص في صمت مطلق في حين راح هو يوقع الشعر وفق إيقاع قرقعات النعال:

«سنهجر الراحة، ونهجر النوم،
ونلحق مسرعين بالفجر والربيع
ونهيء أياما وفصولا
بقدر أحلامنا»

ثم عاد الجميع بغتة إلى إنشاد هذه النوطات الثلاث أو الأربع البسيطة، مع تسريع إيقاع رقصهم. كانوا يتجنبون الراحة والنوم، ويشحنون براءتهم. كانوا جميعا يبتسمون، ومال «إيلوار» على فتاة كان يمسك بكتفها وقال: «الإنسان المهووس بالسلام يكون دائم الابتسامة»، فطفقت الفتاة تضحك، وضربت بقدمها الرصيف بقوة حتى ارتفعت ببضع سنتمترات عن الأرض، جاذبة الآخرين معها نحو الأعلى، وما هي إلا لحظة حتى لم يعد أحد منهم يلامس الأرض، وظلوا يقومون بخطوتين في مكانهم، وخطوة إلى الأمام دون أن يلامسوا الأرض. أجل، كانوا يحلّقون فوق ساحة القديس «فانسيسلاس»، وكانت حلقتهم تشبه تاجا ضخما محلّقا. أما أنا فكنت أسير على الأرض، وأرفع عيني لأراهم. كانوا يبتعدون شيئا فشيئا. كانوا يطيرون عبر رفع الرجل اليمنى أولا ثم اليسرى، وتحتهم كانت براغ بمقاهيها المليئة بالشعراء، وسجونها الغاصة بخونة الشعب، وفي المحرقة كان يجري إحراق نائبة اشتراكية مُنتَخَبة وفنان سوريالي، وكان الدخان يتعالى في السماء مثل بشرى سعيدة. وسمعت صوت «إيلوار» الرنان:

«الحب يعمل بلا كلل»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وظللت أعدو خلف هذا الصوت حتى لا يحتجب عني التاجُ الرائع المكون من أجساد تُحلّق فوق المدينة. وكنت أدرك بأسى ومرارة أنهم يحلقون مثل الطيور في حين أسقط أنا كحجر. كانت لهم أجنحة لن تكون لي أنا أبدا.

7

بعد إعدام «كلاندرا» بثمانية عشر عاما، سيعاد له الاعتبار. لكن بعد ذلك بشهور، ستجتاح الدبابات الروسية بوهيميا، وعندها سيتهم عشرات الآلاف من الناس بدورهم بخيانة الشعب وآماله. فَرُمِيَ بعضهم في غياهب السجون، وطُرِدَ معظمهم من العمل. وسنتين بعد هذا (أي عشرين سنة بعد تحليق «إيلوار» فوق ساحة القديس «فانسيسلاس»)، سيشرف لمدة سنة أحد هؤلاء (المقصود أنا) على زاوية قراءة الطالع في مجلة مصوَّرة موجهة للشبيبة التشيكية. وبعد مضي سنة على نشر مقالتي حول برج القوس (حدث هذا إذن في شهر ديسمبر من سنة 1971) زارني شاب لم تكن لي معرفة به، وسلمني مظروفا دون أن ينبس بكلمة. فتحتُه، وقرأت الرسالة. استغرقت وقتا لأفهم بأنها رسالة من (ر). كان الخط غير واضح، يظهر منه أنها كانت متوترة لحظة كتابتها. ويبدو أنها صاغت جمل الرسالة بطريقة لا يفهمها غيري حتى إنني أنا نفسي وجدت صعوبة في إدراك فحواها. والشيء الوحيد الذي فهمته هو أنهم كشفوا هويتي بعد مرور سنة.

في هذا الوقت كنت ما أزال أملك شقة صغيرة بشارع «بارتولوميسكا» في براغ، وهو شارع صغير، لكنه شهير. وكانت كل عماراته -باستثناء اثنتين، أسكن إحداهما- في ملك الشرطة. وحين كنت أنظر إلى الخارج من نافذتي الكبيرة الواقعة في الطابق الرابع، كنت أرى في الأعلى فوق السقوف أبراج «هرادشين»، وتحتها مراكز

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

البوليس. ففي الأعلى كان يدور التاريخ المجيد لملوك بوهيميا، وفي الأسفل يجري تاريخ المعتقلين البارزين. كلهم مروا من هنا: «كالاندرا» و«هوراكوفا»، «سلانسكي» و«كليمانتيس»، وصديقاي «ساباطا» و«هوبل».

ظل الشاب (الذي تشير كل القرائن إلى أنه خطيب «ر») ينظر حوله باحتراز بالغ. يبدو أنه متيقن أن البوليس يراقب شقتي بواسطة ميكروفونات خفية. أومأنا لبعضنا برأسينا، ثم خرجنا. سرنا مسافة دون أن ننبس بكلمة، ولم يتكلم إلا حين اندمجنا في ضوضاء شارع «نارودني تريدا»، حيث أخبرني بأن (ر) ترغب في لقائي، وأن أحد أصدقائه، وأنا لا أعرفه، مستعد لإعارتنا شقته الواقعة في الضاحية كي نلتقي فيها سرا.

في اليوم التالي قطعت مسافة طويلة بالترام حتى ضاحية براغ. كان ذلك في شهر ديسمبر، وكانت يداي مثلجتين، والأحياء ـ مهاجع النوم تلك فارغة في الصباح. عثرت على الشقة بفضل الوصف الذي قدمه لي الشاب. ركبت المصعد حتى الطابق الثالث، تفحصت بطاقات الزيارة المثبتة على الأبواب، ثم قرعت الجرس. كانت الشقة صامتة. قرعت مرة أخرى، لكن الباب لم ينفتح. عدت إلى الشارع، وتجوّلت نصف ساعة في ذلك البرد القارص، مفترضا أن (ر) تأخرت عن الموعد، وأنني ربما التقيتها وهي في طريقها من محطة الترام إلى الشقة. لكن لم يأتِ أحد. ركبت المصعد من جديد حتى الطابق الثالث، ضغطت على الجرس من جديد، وبعد ثوان سمعت صوت طرادة الماء بالداخل. وفي هذه الأثناء شعرت كما لو أن أحدا يصبّ بداخلي مكعب ثلج من شدة القلق. أحسست بداخلي الخوف الذي يغمر تلك المرأة الشابة التي لم تكن تجرؤ على فتح الباب لأن القلق كان يمزق أحشاءها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فُتح الباب. كانت شاحبة، لكنها كانت تبتسم مع ذلك، وتبذل ما في وسعها لتبدو لطيفة كما كانت دائما. قامت ببعض الدعابات الخرقاء وقالت بأننا سنكون أخيرا معا لوحدنا في شقة فارغة. جلسنا فرَوَتْ لي بأن البوليس استدعاها مؤخرا، واستنطقوها ليوم كامل. في الساعات الأولى سألوها عن أشياء مختلفة تافهة، فشعرت بأنها سيدة الموقف، وداعبتهم بجرأة حتى أنها سألتهم إذا كانوا سيحرمونها من الغداء بسبب ترّهات مماثلة. عندها سألوها: عزيزتي (ر)، من يكتب لمجلتك مقالات الأبراج؟ احمرّ وجهها، ومضت تحدّثهم عن عالم فيزياء شهير لا يمكنها كشف اسمه، فسألوها: هل تعرفين «م.كونديرا»؟ فأجابتهم بأنها تعرفني، وسألتهم ما إذا كان في ذلك سوء، فأجابوها بأن لا سوء في ذلك، ولكن هل تعرفين أن السيد كونديرا يهتم بالتنجيم؟ إنه أمر لا علم لي به، قالت لهم. أحقا تجهلين ذلك؟ قالوا لها ضاحكين. كل براغ تعرف هذا الأمر، وأنت تجهلينه؟! واصلت حديثها عن عالم الذرة لهُنيهة، لكن أحد أفراد الشرطة صرخ في وجهها: لا تنكري!

باحت لهم بالحقيقة. قالت لهم إن المجلة كانت ترغب في إضافة زاوية للأبراج، لكنها لم تكن تدري بمن تستعين. وبما أن (ر) كانت تعرفني، فقد طلبت مني المساعدة، وهي متأكدة من أنها لا تخرق القانون بفعلها ذاك. أكّدوا على قولها إنها لم تخرق أي قانون. لكنها خالفت مقتضيات النظام الداخلي الذي يمنع التعاون مع بعض الأشخاص المذنبين الخائنين لثقة الحزب والدولة. أثارت انتباههم إلى أنه لم يحدث أي مكروه لأن اسم «ميلان كونديرا» ظل متواريا خلف اسم مستعار، ولم يسئ من ثمة لأحد. أما بالنسبة للمكافآت التي كان يتوصل بها فلا تستحق الذكر. صدّقوا كلامها، وقالوا لها أن لا شيء خطير وقع، وأنهم سيكتفون بتحرير محضر رسمي حول الحادث، يتعين عليها توقيعه، وليس لها أن تخشى شيئا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بعد يومين من توقيع المحضر استدعاها رئيس التحرير وأخبرها بأنها مطرودة من العمل، وأن أثر القرار يسري من لحظة توقيع المحضر. ذهبت في اليوم نفسه إلى محطة الراديو حيث كان بعض زملائها يقترحون عليها منذ مدة طويلة العمل معهم. استقبلوها بحرارة، لكن حين عادت في اليوم اللاحق لملء الأوراق، استقبلها رئيس التحرير -وقد كان يكنّ لها معزّة خاصة- وعلامات الأسف بادية عليه: «أي حماقة ارتكبت يا صغيرتي؟! لقد دمّرت حياتك، وليس بمقدوري مساعدتك.»

تردّدت أول الأمر في إخباري بالواقعة، لأنها كانت قد وعدت الشرطة بكتمان أمر الاستنطاق، لكنها لما استدعيت ثانية من الشرطة (وكان عليها أن تذهب إليهم في اليوم التالي)، ارتأت أن من الأفضل أن تقابلني لكي نتفق حول التصريحات التي سندلي بها إذا استدعيت أنا أيضا، وذلك تلافيا للتناقض بين أقوالنا.

افهموا جيدا، فـ (ر) لم تكن جبانة، هي ببساطة شابة كانت تجهل كل شيء عن العالم. تلقّت الضربة الأولى، وكانت بالنسبة لها مفاجئة وغير مفهومة، ومن ثمة فهي لن تنساها أبدا. وأدرَكَتْ أنهم اختاروني لأكون ساعي البريد الذي يوزع على الناس الإنذارات والعقوبات، حتى صرتُ أخاف من نفسي.

سألتني والغصة تكاد تخنقها: «هل تعتقد أنهم على علم بآلاف الكورونات التي تلقيتَها مقابل تحليل الأبراج؟»

- اطمئني، فمن درس الماركسية اللينينية بموسكو لمدة ثلاث سنوات لن يجرؤ على الاعتراف بأنه طلب كشف طالعه.

ضحكت، ورغم أن ضحكها هذا دام بالكاد نصف ثانية، فإنه رن في أذني مثل وعد خجول بالخلاص. لأن هذا الضحك تحديدا هو ما كنت آمل أن أسمعه عندما كنت أكتب تلك المقالات القصيرة والسخيفة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عن الحوت والعذراء والحَمَل. هذا الضحك هو ما كنت أتصوره مكافأة لما كنت أقوم به، لكنه لم يكن يأتيني من أي مكان، لأن الملائكة حينها كانوا قد احتلوا كل مراكز القرار، وكل مواقع القيادات في العالم بأسره؛ واستولوا بالقوة على اليسار واليمين، العرب واليهود، الجنرالات والمنشقين الروس. كانوا يراقبوننا من كل جانب بعينهم الجامدة وبنظرتهم التي تنزع عنا لباس المخادع الساخر، وتسقط عنا الأقنعة لنبدوا كمنافقين مساكين كانوا يشتغلون لحساب مجلة الشبيبة الاشتراكية، مع أنهم لا يؤمنون لا بالشبيبة ولا بالاشتراكية؛ وكانوا يقرأون طالع رئيس التحرير مع أنهم يهزأون برئيس التحرير وبالأبراج على السواء، كما كانوا ينشغلون بأشياء تافهة في الوقت الذي كان فيه الجميع من حولنا (اليسار واليمين، العرب واليهود، الجنرالات والمنشقون) يناضلون من أجل مستقبل النوع البشري. كنا نشعر بثقل نظرتهم علينا، تلك النظرة التي كانت تحوّلنا إلى حشرات لا تصلح إلا للسحق تحت النعال.

سيطرتُ على قلقي، وحاولتُ أن أبتدع لـ(ر) الخطة الأنسب للإجابة على أسئلة الشرطة في اليوم الموالي. وخلال محادثتنا، قامت مرات عدة إلى المرحاض، وكانت عودتها منه مرفوقة بصوت طرادة الماء وبملامح الهلع البادية عليها. كانت هذه الفتاة الشجاعة تشعر بالخجل من خوفها. كانت هذه المرأة الرفيعة تشعر بالخجل من أحشائها التي تتمزق على مرأى من ناظرَيْ رجل غريب.

8

جلس حوالي عشرين طالبا من جنسيات مختلفة على مقاعدهم وهم ينظرون بشرود إلى ميشيل وغابرييل الواقفتين أمام كرسي السيدة رافاييل وقد بدا عليهما القلق. وكانتا تمسكان بضعة أوراق كتبتا عليها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

العرض الذي تهمّان بإلقائه، كما كانتا تحملان شيئا غريبا من الكرتون مزودا بخيط مطاطي.

قالت ميشيل: «سنتحدث عن مسرحية «يونسكو» المعنونة بـ(وحيد القرن)»، ثم مالت برأسها لتضع على أنفها أنبوبا من الكرتون ألصقت به قطعا من الورق الملون، ثم ثبّتت الانبوب بتمرير الخيط المطاطي خلف رأسها، ومثلها فعلت غابرييل، ثم أخذتا تنظران إلى بعضهما بعضا وشرعتا في إصدار أصوات حادة قصيرة ومتقطعة.

فهم الصف بسهولة أن الفتاتين كانتا تعنيان أولا أن لوحيد القرن قرنا مكان الأنف، وثانياً أن مسرحية يونسكو مسرحية كوميدية. لقد أرادتا التعبير عن هاتين الفكرتين، طبعاً بواسطة الكلمات، لكنهما عبرتا عنها بالمقام الأول بواسطة الحركة الجسدية.

كان القرنان يتأرجحان في طرفي وجهيهما، فأحس الطلبة الحاضرون إزاءهما بعطف مربك، كما لو أن ذا عاهة وفد على قاعة الدرس ليعرض عليهم ذراعه المبتورة.

وحدها السيدة رافاييل أعجبت بصنيع تلميذتيها الأثيرتين، واستجابت لأصواتهما الحادة والمتقطعة بصراخ مماثل. وهكذا مضت الفتاتان في تحريك أنفيهما الطويلين، وشرعت ميشيل في تلاوة مساهمتها في العرض.

وكان من بين الحضور طالبة يهودية تدعى سارة. وكانت التمست من الفتاتين الأمريكيتين قبل أيام قليلة السماح لها بإلقاء إطلالة على الملاحظات التي دونتاها (إذ كان الجميع يعلم أنهما تلتزمان حرفيا بما تطلبه منهما السيدة رافاييل)، لكنهما رفضتا قائلتين: «ليس عليك إلا حضور الدروس عوض الذهاب إلى الشاطئ.» ومنذ ذلك الحين صارت سارة تكرههما بمودة، ومن ثمة فهي الآن فرحة بمنظر سخافتهما.

كانت ميشيل وغابرييل تقرآن بالتناوب تحليلهما لـ«الخرتيت»،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وكان القرنان الطويلان يخرجان من وجهيهما كصلاة لا جدوى منها. فأدركت سارة بأنه سيكون من المؤسف عدم اغتنامها الفرصة التي أتاحتها لها الفتاتان. وهكذا لما توقفت ميشيل هنيهة والتفتت إلى غابرييل لتشير لها بأن دورها قد أتى لتواصل، قامت سارة من مكانها وتوجهت نحو الفتاتين، وعوض أن تأخذ غابرييل الكلمة، وجهت فتحة أنفها المزيّف نحو سارة، وقد علتها الدهشة. وحين بلغت سارة الطالبتين، تفادتهما (فلم تستطع الأمريكيتان الالتفات لرؤية ما يقع خلفهما، كما لو أن الأنف المصطنع قد أثقل رأسيهما)، وما كادت تصل حتى عادت إلى الخلف لتستجمع قوتها، وهوت على مؤخرة ميشيل بركلة قوية، ووجّهت مثلها لمؤخرة غابرييل، ثم عادت إلى مقعدها بهدوء، بل بوقار.

وفي تلك الأثناء عمّ القاعة صمت مطبق، ثم أخذت الدموع تنهمر على خد ميشيل، وبعدها مباشرة على خد غابرييل. وما هي إلا لحظة حتى انفجر الطلبة ضاحكين، بينما جلست سارة في مكانها. أما السيدة رافاييل فلم تكد تفيق من أثر المفاجأة، حتى أنها فهمت أن تدخل سارة يشكل جزءا من مزحة هيأتها الطالبات بعناية، قصدن منها تسليط الضوء على الموضوع الذي كنّ بصدده (لأن تأويل العمل الفني لا يمكن أن يكتفي بالمقاربة النظرية التقليدية، ومن اللازم اعتماد مقاربة عصرية تقوم على قراءة عبر التطبيق العملي، والحَدَث(*))، وبما أنها لم تكن ترى دموع طالبتيها المفضلتين (إذ كانت جالسة في مقابل الطلبة، ومن ثمة كانت تدير ظهرها لهما)، فإنها مالت برأسها إلى الخلف وانفجرت ضاحكة.

(*) happening هو نوع من المسرح يقوم على الارتجال ويتطلب مشاركة الجمهور مشاركة فاعلة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وما كادت ميشيل وغابرييل تسمعان قهقهة أستاذتهما المحبوبة حتى شعرتا بالخذلان، فزاد نحيبهما، وبلغ بهما الشعور بالإهانة حد الإحساس بما يشبه التشنج في المعدة.

لكن السيدة رافاييل اعتقدت أن تشنجات تلميذتيها ما هي إلا حركات رقص، وفي هذه اللحظة قذفتها قوة أشد من رزانتها الأستاذية خارج كرسيها، وراحت تضحك حتى سالت دموعها، وباعدت ما بين يديها، وأخذ جسدها يهتز حتى أن رأسها مال فوق عنقها إلى الأمام تارة، وإلى الخلف تارة أخرى مثل جرس صغير مقلوب في قبضة خادم كنيسة يقرعه بعنف. تقدمت من الفتاتين المتشنجتين، وأخذت ميشيل من يدها. وها هن ثلاثتهن أمام الطلبة، يتلوّين والدموع تسيل من عيونهن.

ثم راحت السيدة رافاييل تقوم بخطوتين في مكانها، وترفع رجلها اليمنى من جهة، ثم رجلها اليسرى، وراحت الفتاتان تقلدانها بحياء. كانت الدموع تنحدر على الأنف المصنوع من الورق، وكانتا تتلوّيان وتقفزان في مكانهما، ثم سحبت الأستاذة غابرييل من يدها، فأصبحن الآن على شكل دائرة أمام التلاميذ، وقد صُرنَ وكلٌّ منهنّ بيد الأخرى، تقمن بخطوة في مكانهنّ، ثم خطوة إلى الجانب وهنّ يدرن في حلقة على أرضية قاعة الدرس. وظللن يرمين الساق، يمينا تارة، وشِمالا تارة أخرى، واستحالت تقطيبة البكاء على وجهي ميشيل وغابرييل إلى تقطيبة ضحك واضحة.

ظلت النساء الثلاث ترقصن وتضحكن، وظل الأنفان الورقيان يتأرجحان والتلاميذ ينظرون في صمت مروع. لكن النساء الثلاث لم تُعِرن انتباها للآخرين، إذ كنّ مركّزات تماما على أنفسهن وعلى مُتعتهنّ. وبغتة، أخذت السيدة رافاييل تضرب برجليها بشدة أكبر، وراحت ترتفع عن الأرضية ببضعة سنتمترات، وفي الخطوة الموالية لم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تعد تلامس الأرض، وما لبثت أن جرت معها رفيقتيها. وما هي إلا لحظات حتى كنّ يدرن ثلاثتهن فوق المصطبة، وهن يرتفعنَ ببطء وبشكل لولبي. كان شعرهن قد بلغ السقف الذي أخذ ينفتح شيئا فشيئا، فرُحْنَ يرتفعن أكثر فأكثر من خلال تلك الفتحة، ولم يعد الأنفان الورقيان باديان، وكل ما يظهر من الأسفل ثلاثة أزواج أحذية تتجاوز الثقب الفاغر إلى أن اختفت الأحذية بدورها، في حين ظل يتناهى إلى سمع التلاميذ المذهولين صوت الضحك الذي يتباعد، ضحك الملائكة الثلاث الرائع.

9

كان لقائي مع (ر) في الشقة المعارة حاسما بالنسبة إلي. في هذه اللحظة أدركت أنني صرت طالع نحس للآخرين، فلم يعد بوسعي الحياة بين الناس الذين أحبهم لأنني لا أريد التسبّب لهم في المتاعب، وأنه لم يبق أمامي سوى مغادرة وطني.

لكن هناك داع آخر للحديث عن هذا اللقاء مع (ر). فقد أحببت هذه المرأة الشابة كثيرا. وكان حبي لها بريئا، أبعد ما يكون عن الشهوة الجنسية، كما لو أن جسدها كان محتجبا خلف ذكائها الوقاد، وأيضا خلف تواضعها الجم وظرف زينتها. لم تمنحني أدنى فرصة لاستكشاف وميض عُريها. لكن فجأة بَقرَها الخوف مثل سكين جزار. وتهيأ لي كما لو أنني أراها مشرّحة أمامي كعِجلَة مُقطّعة ومعلّقة على خطاف في دكان جزار. كنا جالسَيْن جنبا إلى جنب على الأريكة في هذه الشقة المعارة، وكان يتناهى إلى مسامعنا نشيش المياه المنسابة في خزان الطرادة، وانتابتني فجأة رغبة ملحة في مضاجعتها، أو بعبارة أدق: رغبة جامحة في اغتصابها، في الانقضاض عليها، وجرها إلي بقبضة واحدة بكل تناقضاتها المثيرة وغير المحتملة، بلباسها البديع وأمعائها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المتمردة، بتعقلها وخوفها، بكبريائها وخيبتها. وخُيّل إلي أن جوهرها يختبئ في وسط هذه التناقضات، هذا الكنز، كتلة الذهب هذه، هذا الماس المدفون في أعماقها. كنت أهم بالارتماء عليها ونزعه منها. كنت أريد احتواءها كاملة بفضلاتها وروحها الفائقة المتمنعة عن الوصف.

غير أنني رأيت عينين قلقتين تحدقان فيّ (عينان قلقتان في وجه ذكي). وأحسست أنه كلما زاد قلقهما، زادت رغبتي في اغتصابها، وهي رغبة عبثية وبليدة فاضحة مبهمة وغير قابلة للتحقق.

وعندما غادرت الشقة المعارة وألفيت نفسي في ذلك الشارع المقفر من ضاحية براغ (وقد مكثت (ر) هنيهة بعدي في الشقة مخافة أن يراها أحد معي). لم أكن أقوَ على التفكير في شيء آخر غير تلك الرغبة العارمة في اغتصاب صديقتي اللطيفة. وقد ظلت هذه الرغبة بداخلي سجينة كعصفور في كيس، عصفور يستيقظ من حين لآخر، ويخفق بجناحيه.

وقد تكون هذه الرغبة في اغتصاب (ر) مجرد مجهود يائس من جانبي للتشبث بشيء أثناء السقوط، لأنني ومنذ طردت من الحلقة وأنا لا أتوقف عن السقوط، وما زلت إلى الآن أسقط، وهم إلى الآن لا يفعلون شيئا سوى دفعي إلى السقوط أبعد وأعمق، وأبعد فأبعد عن بلدي في فضاء العالم المقفر، حيث يعلو ضحك الملائكة المرعب، فيغطي برنينه على كل عباراتي.

أعلم أن سارة، الفتاة اليهودية سارة، سارة أختي، توجد في مكان ما، ولكن كيف لي العثور عليها؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الجزء الرابع

الرسائل المفقودة

1

قمت بعملية حسابية توصلت بنتيجتها إلى أنه في كل ثانية يتمّ تعميد شخصيتين خياليتين أو ثلاث في هذه الدنيا، ولهذا أتردد دوما في الانضمام إلى هذا الحشد الضخم من القديسين المدعوين يوحنا المعمدان. ولكن ما العمل؟ فمن اللازم أن أسمي شخصياتي. وفي هذه المرة، وحتى يظهر بوضوح أن بطلتي في ملكيتي، لا أحد يشاركني فيها (وأنا شديد التعلق بها أكثر من سواي)، سأدعوها باسم لم تحمله امرأة قبلها: تامينا. أتصورها حسناء وطويلة القامة، تبلغ الثالثة والثلاثين من عمرها، وهي من براغ.

أراها في مخيلتي تنزل شارعا بإحدى المدن الريفية في أوروبا الغربية. أجل، لا شك أنكم لاحظتم أنني اشير إلى براغ البعيدة باسمها، في حين لا أذكر اسم المدينة التي تقع فيها حكايتي. وأنا بهذا أخرق قاعدة المنظور، ولكن ليس أمامكم غير القبول بهذا الأمر.

تشتغل تامينا نادلة في مقهى صغير يملكه زوجان. ودخل المقهى ضئيل جدّا إلى حدّ أن صاحبه التحق بأول عمل تيسّر له تاركا مكانه لتامينا. والفرق بين الراتب الهزيل الذي يتلقاه الزوج من شغله الجديد، والراتب الأهزل الذي يعطيانه لتامينا هو ما يمثّل هامش ربحهما.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت تامينا تقدم الطلبات للزبناء (ولم يكن عددهم كبيرا، إذ كانت القاعة نصف فارغة دائما) القهوة والكلفادوس(*) ثم تعود إلى خلف الكونتوار. ولم يكن يخلو البار من شخص جالس على مقعد أمام البار، يريد الثرثرة معها. وكان الجميع يحبون تامينا، لأنها تتقن الإنصات لما يُحكى لها.

لكن هل كانت تنصت حقا؟ أم أنها كانت تكتفي بالنظر إليهم بانتباه وصمت؟ لست أعلم، ثم هذا أمر لا أهمية كبيرة له. على أن الأهم هو أنها لم تكن تقاطعهم. أنتم تعلمون ما يقع حين يكون شخصان بصدد الثرثرة. أحدهما يتكلم، والآخر يقاطعه قائلاً: «هذا يشبه ما وقع لي تماما، أنا...»، ويمضي في الحديث عن نفسه إلى أن ينجح الأول في الفوز بالكلمة قائلا: «هذا شبيه بما وقع لي تماما، أنا...»

وتبدو جملة «هذا ما وقع لي تماما، أنا...» كصدى لموافقة الآخر، وطريقة لمواصلة تفكيره، غير أنها خديعة، لأنها في الحقيقة انتفاضة عنيفة ضد انتفاضة مماثلة. فهي مجهود نقوم به لتحرير آذاننا من العبودية، واحتلال أذن الغريم قسرا. فحياة الإنسان بين بني جنسه ليست سوى معركة للاستحواذ على آذان الآخرين. ولعل سر تامينا يكمن في أنها لا ترغب في الحديث عن نفسها، وتقبل بلا مقاومة احتلال الآخرين لأذنها، ولا تقول أبدا: «هذا ما وقع لي تماما، أنا...»

2

بيبي تصغر تامينا بعشر سنوات، وهي تتحدث لها عن نفسها يوما بعد يوم منذ ما يقارب السنة. وقد قالت لها منذ زمن ليس بالبعيد

(*) calvados شراب مسكر من عصير التفاح يعرف باسم موطنه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

(والواقع أن كل شيء بدأ من هذه اللحظة) بأنها تنوي السفر إلى براغ مع زوجها خلال العطلة.

وهنا خُيّل لتامينا أنها استيقظت من سبات دام سنوات. كانت بيبي ما تزال تواصل كلامها، فقاطعتها تامينا على غير عادتها: «بيبي إذا كنت ستذهبين إلى براغ، هل يمكنك أن تمرّي على منزل والدي لكي تحضري لي شيئا؟ ليس ضخما، هو علبة صغيرة يمكن أن تضعيها في حقيبتك»

فأجابت بيبي متعجّلة: «لك أنتِ، أجلب ما تشائين!».

«سأكون ممتنة لك مدى الحياة» ردّت تامينا.

فردّت بيبي: «يمكنك الاعتماد علي».

واصلت المرأتان حديثهما قليلا عن براغ، فتورّدت وجنتا تامينا. ثم قالت بيبي: «أريد تأليف كتاب».

فكرت تامينا في علبتها الصغيرة هناك في بوهيميا، وأدركت أن عليها أن تتأكد من إخلاص بيبي في صداقتها، وما لبثت أن عادت وأهدتها إصغاءها: «كتاب؟ حول ماذا؟»

كانت ابنة بيبي ذات العام تحبو تحت مقعد البار الذي تجلس عليه أمّها، وكانت تحدث ضجّة كبيرة، فقالت لها بيبي: «اصمتي!»، ثم نفخت في الفضاء دخان سيجارتها والتفكير بادٍ على محيّاها: «حول العالم كما أراه». كانت الطفلة تصدر أصواتا حادّة أكثر فأكثر. وسألت تامينا: «هل تستطيعين تأليف كتاب؟»

فأجابتها بيبي: «ولم لا؟»، ثم تابعت وهي ساهمة: «ينبغي بالتأكيد أن أستفسر قليلا حتى أعرف كيف تُؤلّف الكتب. ألا تعرفين باناكا؟».

- «من هو؟»، سألت تامينا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أجابتها بيبي: «إنه كاتب يقطن قريبا من هنا. ينبغي أن أتعرف عليه.»

- ماذا كتب؟

- لا أعرف، أجابت بيبي، ثم تابعت ساهمة: «ينبغي أن أقرأ شيئا مما كتب.»

3

عوض أن تستقبل الحماة كنتها تامينا عبر السمّاعة بالفرح والترحاب، لم تسمع منها غير نبرتها الجامدة: «هكذا إذن! تذكّرتني أخيرا؟»

- أنت تعلمين أنني ثريّة، والهاتف مكلف، أجابتها تامينا.

- بإمكانك الكتابة، فالطوابع البريدية ليست باهظة الثمن حسب علمي. فأنا لا أذكر متى تلقّيت رسالتك الأخيرة.

ولما أدركت تامينا أن بداية المكالمة مع حماتها سيئة، سألتها مطوّلا حول صحتها، وحول مشاغلها، قبل أن تقرّر مفاتحتها في الموضوع:

- «لديّ خدمة أريد أن أطلبها منك. قبل سفرنا تركنا رزمة في بيتك.»

- رزمة؟

- أجل، لقد تركها «بافيل» في مكتب أبيه القديم، وضعها في الدرج، وأغلقه بالمفتاح. أتذكرين، كان له دائما درج خاص به في هذا المكتب. وأودع المفتاح عندك.

- لا، ليس عندي مفتاحكما.

- ولكن يا حماتي هذا المفتاح عندك بلا شك، فقد أعطاك «بافيل» إياه، كنت أنا حاضرة حينها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- لم تعطوني شيئا.

- لا شك أنك نسيت، فقد مضى على هذا سنوات. كل ما أطلب منك هو أن تبحثي عن هذا المفتاح، ستجدينه بالتأكيد.

- وماذا تريدين أن أفعل به؟

- أريدك فقط أن تتأكدي ما إذا كانت الرزمة ما تزال في موضعها.

- ولماذا لا تكون في موضعها؟ ألم تضعاها هناك!؟

- بلى.

- إذن لماذا تطلبين مني أن أفتح الدرج؟ ماذا تظناني فاعلة بدفاتركما؟

استغربت تامينا كيف علمت حماتها أن بالدرج دفاتر، فقد كانت ملفوفة بإتقان، وكانت الرزمة مغلقة بورق لاصق، ولكنها كتمت مع ذلك مفاجأتها:

- أنا لا أقول ذلك، وددت فقط أن تتأكّدي من أنّ كل شيء ما زال في مكانه. سأخبرك بالمزيد في المرة القادمة.

- ألا يمكن أن تشرحي لي الأمر الآن؟

- يا حماتي، لا يمكنني أن أتكلم أكثر، إن الاتصال مكلّف جدا.

وشرعت الحماة في البكاء: «إذن لا داعي لمهاتفتي إذا كان ذلك مكلّف جدّا!»

- لا تبك يا حماتي، أجابتها تامينا.

فقد كانت تعرف نشيجها عن ظهر قلب، إذ كانت تلجأ للبكاء كلما أرادت أن تفرض عليهما أمرا. كانت تتّهمهما بواسطة بكائها، ولم يكن هناك شيء أكثر فتكا من دموعها.

كانت السماعة تهتز بفعل النحيب، فقالت لها تامينا: «إلى اللقاء يا حماتي، سأهاتفك فيما بعد».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لكن الحماة واصلت البكاء، ولم تجرؤ تامينا على إنهاء المكالمة قبل أن تسمع منها إلى اللقاء. ولما أيقنت أن النحيب لن ينتهي، وكل دمعة كانت تكلفها مالا كثيرا، وضعت السماعة.

قالت لها المسؤولة عن خط الهاتف بصوت حزين وهي تشير إلى العداد: «لقد تكلمت مدّة طويلة»، ثم حسبت ثمن المكالمة إلى «بوهيميا»، فارتعبت تامينا من المبلغ الباهظ، وفكّرت أن عليها أن تعُدّ كل فلس لكي تصمد حتى موعد الحصول على الأجرة، لكنها سدّدت الحساب دون أن يرف لها جفن.

4

كانت تامينا وزوجها قد غادرا بوهيميا بطريقة غير شرعية، إذ تسجلا في رحلة لإقامة قصيرة على شاطئ البحر نظّمتها وكالة الأسفار الرسمية إلى يوغوسلافيا. وعند وصولهما، غادرا المجموعة، واجتازا الحدود النمساوية، ثم توجّها نحو الغرب.

وخوفا من اكتشاف أمرهما خلال الرحلة مع المجموعة، لم يأخذا معهما سوى حقيبتين كبيرتين، حمل كل منهما واحدة. ولم يجرؤ أي منهما في آخر لحظة على أخذ الرزمة الكبيرة التي كانت تحوي مراسلاتهما وكذا كراسات تامينا. ذلك أنهما لو خضعا للتفتيش خلال المراقبة الجمركية، فأي شرطي في بوهيميا المحتلّة سيرتاب في أمر حملهما لأرشيف حياتهما الخاصة في سفرة لا تتعدّى الأسبوعين إلى شاطئ البحر. وبما أنّهما لم يكونا يرغبان في ترك الرزمة في بيتهما، لمعرفتهما بأن الدولة ستصادر شقّتهما بعد الرحيل، فإنّهما تركاها في بيت حماة تامينا، داخل درج في المكتب المهجور الذي لم يعد يصلح لشيء بعد رحيل حماها.

مرض زوج تامينا في الغربة، ولم يكن أمامها إلا النظر إلى الموت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يختطفه منها ببطء. ولما فارق الحياة، سئلت ما إذا كانت تريد دفنه أو إحراقه، فاختارت إحراقه؛ ثم سألوها إن كانت تريد الحفاظ على رماده في قارورة، أم تفضل نثره. كانت تشعر بالغربة أينما حلت، وخشيت أن تحمل معها زوجها مدى الحياة مثل حقيبة يد. لهذا السبب آثرت أن يُنثر رماده.

أتخيّل أن العالم يرتفع أكثر فأكثر حول تامينا مثل جدار دائري، وأن هناك في أسفله عشب، وفوق هذا العشب لا تظهر غير زهرة واحدة، هي ذكرى زوجها.

أو أتخيّل أن حاضر تامينا (ويتمثل في تقديم القهوة وإعارة سمعها) عبارة عن قارب تجرفه المياه، وهي فوق هذا القارب تنظر إلى الخلف، إلى الخلف فقط منذ وقت قصير شعرت باليأس، لأن ماضيها أخذ يشحب أكثر فأكثر. لم يبق معها من زوجها سوى صورة جواز سفره، لأنّ الصور الأخرى بقيت في براغ في الشقة المصادرة. كانت تحدّق في هذه الصورة المسكينة المختومة والمبتورة الزوايا، المأخوذة لزوجها من الأمام (كمجرم أخذ له بوليس الجنايات القضائي هذه الصورة)، والتي لم تكن تشبهه في شيء. وكانت تعكف على نوع من التمرين الروحي كل يوم أمام هذه الصورة، إذ كانت تبذل ما في وسعها لتتخيّل صورة زوجها الجانبية، ثم نصف الجانبية، ثم ثلاثة أرباع الجانبية. كانت تبعث الحياة في خط أنفه وذقنه. وتلاحظ كل يوم برهبة أن رسمه الخيالي فيه نقط عديدة قابلة للنقاش، لأن الذاكرة التي ترسمه تنتابها شكوك كثيرة.

وكانت تبذل قصارى جهدها خلال هذه التمارين لتتذكر البشرة ولونها، وكل التشوهات الرفيعة فيها، والبثور والزوائد الفطرية والعروق الدقيقة. وكانت تجد الأمر صعبا، بل يكاد يكون مستحيلا. ذلك أن الألوان التي كانت تستعملها الذاكرة لم تكن واقعية، ومع هذه الألوان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يكن بالإمكان محاكاة الجلد البشري. هكذا إذن، وحتى تتذكر، لجأت إلى تقنية خاصة. كانت حين تجلس قبالة رجل، تستعمل رأسه مادة للنحت: تحدق فيه بإمعان، وتصنع منه بمخيلتها نموذج الوجه، تضفي عليه صبغة أغمق، وتوطّن فيه بقع النمش والبثور، وتصغّر الأذنين ثم تلوّن العينين بالأزرق.

غير أن كل هذه المجهودات إنما كانت تثبت أنّ صورة زوجها كانت تتوارى نهائيا. في بداية علاقتهما، طلب منها (كان يكبرها بعشر سنوات، وكان يدرك فقر الذاكرة الإنسانية) أن تكتب يوميات تسجّل فيها حياتهما، إلا أنها انتفضت عليه محتجّة بأنه كان يسخر من حبّهما. كان حبّها له أكبر من أن تسلّم بأن ما كانت تعتبره لا ينسى يمكن أن يطاله النسيان. وبالطبع انتهت إلى الإذعان له، ولكن دون حماس. وهو أمر يُستشفّ من الكراسات، فقد ظلّت كثير من صفحاتها بيضاء، وما كتب منها كان متقطّعا.

5

عاشت تامينا مع زوجها في بوهيميا أحد عشر عاما، وهو عدد الكراسات التي أودعتها بمنزل حماتها. وقبل وفاته بوقت قصير، اشترت دفترا وقسمته إلى أحد عشر قسما. وتمكنت بالتأكيد من تذكر بعض الوقائع والمواقف المنسيّة جزئيا، لكنها لم تكن تدري في أيّ جزء من الدفتر يجب أن تضعها، فقد نسيت بالمرّة التراتب الزمني لهذه الوقائع.

لقد حاولت في بادئ الأمر استرجاع ذكريات يمكن أن تكون بمثابة نقاط ارتكاز في مجرى الزمن، تشكل هيكلا أساسيا للماضي المستعاد. فعدد العطل مثلا كان إحدى عشرة عطلة، لكنها لا تذكر منها سوى تسع. أما العطلتان المتبقيتان، ففُقِدتا إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثم عمدت بعد ذلك إلى ترتيب تلك العطل التسع المستَرْجَعَة في الأقسام الأحد عشر من الدفتر. ولم تفلح في هذه المهمة إلا في ما يتعلق بالسنوات التي تميزت بشيء استثنائي. ففي سنة 1964 توفيت أم تامينا، فسافرت شهرا بعد هذه الواقعة إلى جبال «التتراس»(*) حيث أمضت عطلة حزينة. وتذكر أيضا أنها في السنة اللاحقة سافرت إلى الشاطئ في بلغاريا، كما تذكر عطلة 1968 وعطلة السنة التي بعدها، لأنهما العطلتان الأخيرتان اللتان قضياها في بوهيميا.

وهي إن كانت وُفِّقت في تذكر معظم العطل (من دون التمكن من تحديد تواريخها)، فقد أخفقت تماما في تذكّر أعياد الميلاد وليالي رأس السنة. فمن أصل أحد عشر عيدا للميلاد لم تعثر في زوايا ذاكرتها إلا على اثنين؛ ومن أصل اثنتا عشرة ليلة من ليالي رأس السنة، لم تتذكر سوى خمس.

ودّت أيضا لو تتذكّر كل الأسماء التي ناداها بها. ذلك أنه لم يدعها باسمها الحقيقي إلا في الأسبوعين الأولين. فقد كان حنانه ورقّته بمثابة آلة تبتكر ألقاباً على الدوام. اصطنع لها أسماء كثيرة، وبما أن هذه الأسماء كانت سرعان ما تتقادم، ظل يبتدع لها أسماء جديدة باستمرار. ففي غضون الاثنتي عشرة سنة التي قضياها معا، اتخذ لها عشرين أو ثلاثين اسما؛ كلٌّ منها ينتمي لمرحلة محددة من حياتهما.

ولكن كيف لها إعادة اكتشاف العلاقة الضائعة بين الألقاب وإيقاع الزمن؟ ذلك أن تامينا لم تفلح في العثور عليها إلا في حالات نادرة. فهي تذكر مثلا الأيام التي تلت موت أمها، حين وشوش لها زوجها بإصرار اسمها في إذنها (اسم تلك الفترة، بل تلك اللحظة)، وكأنه بذلك يحاول إيقاظها من حلم. إنها تذكر هذا الاسم، وقد سجلته في

(*) Tatras سلسلة جبلية تقع في الحدود بين بولونيا وسلوفاكيا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القسم المعنون بـ 1964. أما الأسماء الأخرى فقد طارت خارج الزمن، حرة ومجنونة مثل عصافير انفلتت من قفص.

ولعل هذا هو ما يجعلها تهفو للحصول على تلك الرزمة من الكراسات والرسائل.

كانت تعلم كذلك أن هذه الكراسات تتضمن كثيرا من الأشياء السيئة، والأيام البئيسة والشجارات، بل حتى الضجر. لكن هذا كلّه لا يهم. فهي لا تتوخى إضفاء الشاعرية على الماضي بقدر ما ترمي إلى أن تستعيد جسده المفقود. ما يدفعها ليس الوازع الجمالي، بل الرغبة في الحياة.

تشعر تامينا بأن المياه تجرف قاربها، وهي لا تنظر إلا إلى الخلف، إلى الخلف فقط، ومن ثمة فإن ما يحدد حجم وجودها هو ما ترى هناك لا غير، ما يوجد بعيدا خلفها. وبمقدار ما يتقلص ماضيها ويتفكك ويذوب، تنكمش تامينا وتتلاشى حدودها.

إنها ترغب في استرجاع كراساتها لكي تشيّد جدرانا لهيكل الذكريات الهش الذي أقامته في دفترها، فيصبح بذلك بيتا تأوي إليه. فلو تهاوى هذا البناء المترنح مثل خيمة متداعية، لما بقي من تامينا غير الحاضر، غير هذه النقطة التي لا تكاد تُرى، غير هذا العدم المتقدم ببطء نحو الموت.

6

ولكن، لِم تأخرت في مطالبة حماتها بإرسال تلك الكراسات؟

البوليس السري في بلدها يراقب المراسلات مع الخارج، وهي لم تكن تقبل أن يطّلع موظفو الشرطة على حياتها الخاصة. ثم من الأكيد أن اسم زوجها (الذي كان اسمها هي أيضا) كان مسجلا على اللوائح السوداء، والشرطة تولي كل وثيقة متصلة بحياة أعدائها -حتى ولو كانوا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أمواتا- أهمية خاصة (وحول هذه النقطة لم تكن تامينا مخطئة البتّة، ذلك أننا لا نحظى بالخلود إلا في أرشيف البوليس). لعل هذا ما جعلها تؤمن بأن بيبي هي أملها الوحيد، وهي مستعدة لكل شيء من أجل التمسك بهذا الأمل. قالت تامينا في نفسها: ما دامت بيبي ترغب في التعرف على باناكا، فلا بد أنّها مطلعة على حبكة أحد كتبه على الأقل. إنها فعلا محتاجة إلى أن تورد في سياق حديثها معه جملة: «هذا بالضبط ما تقولونه في كتابكم»، أو «إنكم تشبهون كثيرا شخصياتكم، يا سيد باناكا!» غير أن تامينا كانت تعلم أن بيبي لا تملك كتابا واحدا في بيتها، وأنها تضجر من القراءة. لهذا كانت تريد إذن أن تكتشف ما في كتب باناكا لكي تهيّئ لصديقتها هذا اللقاء.

كان هيغو في القاعة، وكانت تامينا قد وضعت لتوّها فنجان القهوة أمامه، فسألته: «هل تعرف باناكا يا هيغو؟»

كان نفَسُه كريها، لكن تامينا كانت تستلطفه مع ذلك. فهو رجل هادئ وخجول، يصغرها بخمس سنوات. كان يفد على المقهى مرة في الأسبوع، وكان ينظر إلى كتبه تارة، وتارة أخرى ينظر إلى تامينا الواقفة خلف الكونتوار.

«نعم» أجابها.

- أرغب في معرفة موضوع كتاب من كتبه.

ردّ عليها هيغو: «يمكنك القول يا تامينا بأن لا أحد قرأ كتابا لباناكا قط. فمن المستحيل أن يقرأ المرء كتابا من كتبه دون أن يكون أحمق. فباناكا ولا شك كاتب من الدرجة الثانية، أو بالأحرى الثالثة بل حتى العاشرة. وأؤكد لك بأنه وقع ضحية شهرته لدرجة أنه يكره الناس الذين قرأوا كتبه.»

وهكذا عَدَلَت عن فكرة الحصول على كتب باناكا، ولكنها ظلّت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مصرّة على أن تُحضّر للقاء باناكا بنفسها. فقد كانت تعير من حين لآخر شقتها -الخالية خلال النهار- إلى يابانية ضئيلة القامة ومتزوجة تدعى جوجو، قصد الاختلاء سرا بأستاذ فلسفة متزوج هو أيضا. وكان هذا الأستاذ يعرف باناكا، فانتزعت وعدا من العشيقين بأن يصطحباها إلى منزله ذات يوم تكون فيه بيبي عندها.

وحين علمت بيبي بالأمر، قالت لها: «قد يكون باناكا هذا وسيما، فتتبدل حياتك الجنسية أخيرا.»

7

كان ذلك صحيحا، فمنذ وفاة زوجها لم تمارس تامينا الجنس، وهو أمر لا ينبع من مبدأ. بالعكس، كان الإخلاص بعد الموت يبدو لها منافيا للعقل، وهي لم تكن تتباهى به أمام أحد. ولكنها ما تخيّلت نفسها تتعرّى أمام رجل (وغالبا ما كانت تتخيّل ذلك) إلا ولاحت لها صورة زوجها، فكانت تدرك حينئذ أنها ستراه، وأنها سترى وجهه وعينيه وهما تراقبانها.

كانت تدرك بالتأكيد أنّ هذا الأمر غير لائق، بل عبثي، لأنها لم تكن تؤمن بأن روح زوجها الميّت ما تزال حية، كما أنها لم تكن تعتقد بأنها ستسيء إلى روحه إن هي اتخذت عشيقا. لكنها كانت عاجزة عن ذلك.

بل لقد خامرتها فكرة طريفة: كانت خيانة زوجها في حياته أيسر مما هي بعد مماته. فقد كان زوجها رجلا مرحا وذكيا وقويا، وكانت تحسّ معه بأنها أضعف منه كثيرا، وكان يتهيّأ لها أنها لا تستطيع إيذاءه حتى ولو بذلت أقصى ما في وسعها.

ولكن اليوم صار كل شيء مختلفا. فهي تجرؤ على الإساءة حتى لمن هو غير قادر على الدفاع عن نفسه، وخاضع لسلطانها مثل طفل،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لأن زوجها بعد موته الآن لم يعد له أحد في العالم غيرها.

لهذا السبب ما إن تفكر في مضاجعة رجل آخر حتى تتبدّى أمامها صورة زوجها مصحوبة بحنين قاس، ومع هذا الحنين رغبة عارمة في البكاء.

8

كان باناكا رجلاً دميماً، ومن ثمة ما كان له أن يوقظ في امرأة شهوة جنسية غافية. سكبت تامينا الشاي في فنجانه، فشكرها بأدب بالغ. كان الجميع يشعر بالراحة في منزل تامينا بما فيهم باناكا الذي استدار نحو بيبي باسما وأوقف محادثة متقطعة:

«يبدو أنك تنوين تأليف كتاب، ما موضوعه؟»

- إنه في منتهى البساطة، أجابت بيبي، رواية حول العالم كما أراه.

- رواية؟ سأل باناكا بنبرة تدل على الاستهجان.

فقالت بيبي متهرّبة: «ليس بالضرورة رواية».

أجابها باناكا: «فكري فقط في ما تعنيه الرواية، في العدد الهائل من الشخصيات المتباينة. أتريدين إشعارنا بأنك تعلمين عنها كل شيء؟ وتعرفين كيف هي، وفيم تفكّر، وكيف تلبس، ومن أي عائلة تتحدر؟ اعترفي بأن هذه الأمور لا تعنيك على الإطلاق!»

- «هذا صحيح»، قالت بيبي معترفة، «كل ذلك لا يعنيني.»

- «أتعلمين»، قال باناكا، «الرواية ثمرة وهم إنساني. وهم القدرة على فهم الآخر. ولكن، ماذا نعرف عن بعضنا بعضا؟»

- «لا شيء»، قالت بيبي.

- «هذا صحيح»، قالت جوجو.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فحرّك أستاذ الفلسفة رأسه موافقا.

ثم أضاف باناكا: «كل ما يستطيع المرء القيام به هو تقديم تقرير عن ذاته، وما عدا ذلك ليس إلا إفراطا في السلطة. كل ما تبقى كذب.»

ووافقت بيبي بحماس: «صحيح! صحيح تماما! أنا أيضا لا أنوي كتابة رواية! ربما أسأت التعبير. فأنا أريد بالضبط القيام بما قلت، أي الكتابة عن نفسي، وتقديم تقرير عن حياتي؛ وفي الوقت نفسه لا أنوي إخفاء أن حياتي عادية تماما، وأنني لم أعش أشياء فريدة.»

- «أجل»، صاحت بيبي. «فبالنظر من الخارج، لم أعش شيئا. من الخارج! لكن لدي انطباع بأن تجربتي الداخلية تستحق أن تكتب ويمكن أن تهمّ كل الناس».

كانت تامينا تملأ أكواب الشاي وهي مبتهجة بكون هذه الرجلين النازلين من سماء الفكر إلى شقتها يفهمان صديقتها.

كان أستاذ الفلسفة يسحب غليونه ويختفي خلف الدخان كما لو أنه يشعر بالخجل، ثم قال: «من المعلوم منذ جيمس جويس أن أعظم مغامرة في حياتنا هي غياب المغامرة. فـ«أوليس» الذي قاتل في طروادة، وعاد يجوب البحار، وهو يقود مركبه بنفسه، كانت له في كل جزيرة عشيقة. لا، ليست هذه هي حياتنا. وأوديسّة هوميروس انتقلت إلى دواخلنا، استضمرناها. فالجزر والبحار وعرائس البحر التي تستهوينا، إيتاك التي تدعونا، كل هذا لا يشكل اليوم إلا أصوات كياننا الداخلي.

- «أجل! هذا بالضبط ما أحسه!» صاحت بيبي، ثم توجهت بالكلام إلى باناكا: «لهذا أود أن أسألك عن كيفية التعبير عن كل ذلك. غالبا ما أشعر بأن جسمي مفعم بالرغبة في التعبير والكلام، الرغبة في العثور على من يصغي إلي. أقول في نفسي أحيانا سيصيبني الجنون من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شعوري بالامتلاء، فتجتاحني الرغبة في الصراخ من جراء ذلك، ولعلك أدرى بهذا يا سيد باناكا. أريد أن أعبِّر عن حياتي ومشاعري التي أعلم أنها فريدة. لكنني ما إن أجلس أمام الورقة حتى لا أعود أعرف ما أكتب، فقلت في نفسي إنها ربّما مسألة تقنية، أي أن بعض المعارف التي تملكها أنت تعوزني. لقد كتبت كتبا غاية في الجمال. . . »

9

سأعفيكم من الدرس الذي تكرم به السقراطان على المرأة الشابة حول فن الكتابة. سأحدثكم عن شيء آخر. منذ زمن ليس بالبعيد، عبرت باريس على متن سيارة أجرة كان سائقها ثرثارا. لم يكن يستطيع النوم ليلا، لأنه يعاني من سهاد مزمن أصيب به أيام الحرب. كان بحارا، غرقت سفينته، فسبح ثلاثة أيام وثلاث ليال إلى أن انتُشل. قضى شهورا عديدة بين الحياة والموت شفي بعدها، لكنه أصيب بالسهاد.

قال باسما: «خلّفت ورائي الثلث من حياتي، وهو الذي أكبرك به.»

سألته: «وماذا عساك تفعل بهذا الثلث الزائد؟».

أجابني: «أكتب.»

فوددت أن أعرف ماذا كان يكتب. كان يكتب حياته. حكاية رجل سبح لمدة ثلاثة أيام في البحر، وصارع الموت، وفقد النوم، لكنه حافظ رغم ذلك على الرغبة في الحياة.

- أتكتب ذلك لأولادك؟ يوميات للعائلة؟

ابتسم بمرارة وقال: «لأولادي؟ هذا لا يهمّهم. هو مجرّد كتاب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أكتبه هكذا. أعتقد أنه قد يساعد كثير من الناس.»

هذه المحادثة مع سائق الطاكسي جعلتني أكتشف فجأة جوهر النشاط الذي يمارسه الكاتب. نحن نؤلف الكتب لأن أبناءنا لا يهتمون بنا. نخاطب عالما مجهولا لأن زوجاتنا تغلقن آذانهن عندما نكلّمهنّ.

ستعترضون عليّ بأن سائق سيارة الأجرة مهووس بالكتابة عن نفسه وليس بكاتب. لذا يجدر الشروع بتدقيق المفاهيم. فالمرأة التي تكتب لعشيقها أربع رسائل في اليوم ليست مولعة بالكتابة، إنها بالأحرى ولهانة. أما صديقي الذي ينسخ رسائله الأنيقة بغرض نشرها ذات يوم، فمهووس بالكتابة. ذلك أن هوس الكتابة(*) ليس هو الرغبة في كتابة الرسائل أو اليوميات أو مذكرات الأسرة (أي الكتابة للنفس وللأقربين)، بل هو تأليف الكتب (أي الكتابة لجمهور مجهول). بهذا المعنى يكون ولع سائق سيارة الأجرة هو نفسه ولع «غوته». وما يميّز واحدهما عن الآخر ليس اختلاف الولع، بل النتيجة المختلفة لهذا الولع.

فالولع بالكتابة (عادة تأليف الكتب) يصبح بالضرورة وباء حين تتحقق في المجتمع ثلاثة شروط أساسية:

1- مستوى عال من الرفاهية العامة تسمح للناس بالتفرغ لنشاط غير ذي جدوى.

2- درجة عالية من تفتّت الحياة الاجتماعية، ومن ثمة درجة عالية من عزلة الأفراد.

3- خلوّ الحياة الداخلية للأمة من التغيّرات الكبرى (ومن هذا المنظور، يبدو لي ذا دلالة كون النسبة المئوية لعدد الكتّاب في فرنسا أعلى بواحد وعشرين مرة منه في إسرائيل. ولعل بيبي أحسنت التعبير

(*) Graphomanie

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حين قالت إنها «من الخارج» لم تعش شيئا. فما يدفعها إلى الكتابة تحديدا هو غياب مضمون حيوي، أي هو الفراغ).

غير أن النتيجة قد تنعكس على العلة من خلال صدمة مرتدّة. فالعزلة العامة تولّد هوس الكتابة ، وهوس الكتابة المعمّم بدوره يقوّي العزلة ويفاقمها. ذلك أن اختراع الآلة الطابعة مكّن الناس قديما من أن يفهم بعضهم بعضا. أما في عصر هوس الكتابة الكوني، فقد اكتسب تأليف الكتب معنى مناقضا: كل واحد يحيط نفسه بكلماته الخاصة كما لو كان يحتمي بجدار من المرايا لا ينفذ منه أي صوت من الخارج.

10

ذات يوم، قال هيغو لتامينا يوما بينما كانا يتحدثان في المقهى الخالي: «أدرك يا تامينا أنّ لا حظّ لي معك، لذلك لن أراودك عن نفسك، لكن هل لي أن أدعوك إلى تناول الغذاء معي يوم الأحد؟»

الرزمة عند حماة تامينا في مدينة ريفية، وهي تنوي إحضارها إلى بيت أبيها في براغ حتى تتمكن بيبي من أخذها. ظاهريا هذا أمر سهل، ولكن سيحتاج إلى كثير من الوقت والمال لإقناع أشخاص مسنين وغريبي الأطوار. فالهاتف مكلف، وراتب تامينا بالكاد يكفي إيجار الشقة وحاجات الغذاء.

«نعم» أجابت تامينا متذكرة أن هيغو يملك بالتأكيد هاتفا في بيته. جاء يأخذها بالسيارة، وذهبا إلى مطعم، ثم إلى الريف.

كان من المفروض أن تسهّل أزمة تامينا المادية على هيغو لعب دور الأمير الآسر، لكن خلف شخصية النادلة ذات الراتب الوضيع، توجد التجربة المثيرة للأجنبية والأرملة. لهذا كان يتهيّبها. فقد كانت لطافتها بمثابة ترس يعجز الرصاص عن اختراقه. ودّ لو يستطيع إثارة انتباهها، إغواءها، الاستحواذ على قلبها!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ولعل هذا ما جعله يجتهد في ابتكار شيء مثير من أجلها، وقبل أن يبلغ المكان المقصود رَكَنَ السيارة واصطحبها لزيارة حديقة حيوان في متنزه قصر ريفي. تجولا بين القردة والببغاوات وسط ديكور أبراج قوطية. كانا وحيدين تماما، وكان ثمة بستاني ذو هيئة ريفية يكنس الممرات الواسعة المكسوّة بالأوراق. مرا بذئب فقندس، ثم فقرد ثم نمر قبل أن يبلغا إلى مرج كبير مسيّج بأسلاك من حديد توجد خلفها نعامات.

كانت ستّ نعامات. لما أبصرت تامينا وهيغو جرت نحوهما، وهي الآن تشكل مجموعة صغيرة تتزاحم بجانب السياج، وتتطلع بأعناقها الطويلة محدّقة فيهما، فاتحة مناقيرها المفلطحة. كانت تفتح هذه المناقير وتغلقها بسرعة فائقة وبعصبية كما لو كانت كل منها تهمّ بالكلام بصوت أعلى من الأخريات. لكن المناقير ظلت خرساء، لا يصدر عنها أي صوت.

كانت النعامات مثل رسل لُقّنوا رسالة هامة عن ظهر قلب، لكن العدو اعترض سبيلهم في الطريق وبتر حبالهم الصوتية، حتى إذا بلغوا المقصد لم يقووا إلا على تحريك أفواههم البكماء.

ظلت تامينا تنظر إليها مفتونة، بينما واصلت النعامات حديثها بإصرار متزايد. ولما شرعت تامينا وهيغو في الابتعاد، تبعتهما النعامات بمحاذاة السياج مطقطقة مناقيرها، محذّرة إياهما من شيء لم تتبيّنه تامينا.

11

قالت تامينا وهي تقطع فطيرتها المحشوة: «كان منظرها مثل مشهد من حكاية مرعبة، كما لو أنها ودّت أن تقول لي شيئا مهما. ولكن ما هو؟ ماذا كانت تقصد؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قال لها هيغو إنها نعامات صغيرة السن، وأنها تتصرف هكذا دائما. ففي آخر زيارة له للحديقة، جرت جميعا نحو السياج مثلما فعلت اليوم، ثم فتحت مناقيرها الخرساء.

كانت تامينا ما تزال مضطربة، وقالت: «أتعلم، لقد تركت شيئا في بوهيميا، حزمة من الأوراق، وإذا ما بعثوها لي عبر البريد، قد يصادرها البوليس. ستسافر بيبي إلى براغ هذه السنة، وقد وعدتني بجلبها، والآن أنا خائفة. وأتساءل ما إذا كانت النعامات تحذرني من وقوع مكروه لتلك الرزمة».

كان هيغو يعلم بأن تامينا أرملة وأن زوجها اضطر إلى الهجرة لأسباب سياسية. وتساءل: «هل هي وثائق سياسية؟»

كانت تامينا متيقنة من أن الناس هناك لن يتمكنوا من فهم قصتها إلا إذا هي بسّطتها. فمن الصعب أن تشرح سبب سعي الشرطة إلى مصادرة تلك المراسلات الشخصية وتلك اليوميات، وسبب تمسّكها بها إلى هذا الحدّ. فردت قائلة: «نعم، رسائل سياسية.»

بعد ذلك توجست من أن يسألها هيغو عن تفاصيل هذه الوثائق، إلا أن خوفها لم يكن مبررا. هل طُرحت عليها أسئلة من قبل؟ كان الناس يشرحون لها أحيانا رأيهم في بلدها، لكنهم لم يكونوا يحفلون بتجربتها.

سألها هيغو: «هل تعلم بيبي بأن الأمر يتعلق بوثائق سياسية؟»

– لا، أجابت تامينا

– هذا أفضل، رد هيغو، لا تخبريها بذلك. قد ينتابها الخوف، فلا تجلب لك الرزمة. لا يمكن أن تتصوري كم يخاف الناس، يا تامينا. فبيبي واثقة من أن الأمر يتعلق بأمر تافه ومألوف من قبيل مراسلاتك العاطفية. أجل، قولي لها إن رزمتك فيها رسائل حب!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثم قهقه هيغو من فكرته: «رسائل حب! نعم! هذا مما لا يبارح أفقها! هذا ما يناسب مستوى فهمها!»

فكرت تامينا أن رسائل الحب بالنسبة لهيغو أمر تافه ومألوف. ولا يخامر أحد الشك في أنها أحبت، وأن هذا الحب له قيمة كبيرة عندها.

ثم أضاف هيغو: «إذا أحجمت بيبي عن هذا السفر، بإمكانك الاعتماد علي. أنا مستعد للذهاب إلى هناك لجلب رزمتك»

- شكرا لك، قالت تامينا بحرارة.

- «سأحضرها لك حتى ولو كلف الأمر اعتقالي»، كرر هيغو.

عندئذ انتفضت تامينا قائلة: «مهلا، لن يحدث لك سوء!»، وحاولت أن تشرح له بأن السياح الأجانب لا يتهددهم شيء في بلدها، وأن التشيكيين فقط من تتعرض حياتهم للخطر، أما السياح فلا يكادون يشعرون بذلك. وفجأة طفقت تتحدث باستفاضة وإثارة، كانت تعرف هذا البلد حق المعرفة، ويمكن أن أؤكد لكم بأنها كانت على حق.

بعد ساعة كانت تضغط سماعة هاتف هيغو على أذنها، ولم تنته المكالمة مع حماتها بما هو أفضل من المكالمة الأولى: «لم تسلّماني مفتاح الدرج أبدا! كنتم دائما تخفون عنّي كل الأمور! لِم تدفعينني إلى تذكيرك بالمعاملة التي كنتما تعاملاني بها دائما!»

12

إذا كانت تامينا تتمسك بذكرياتها إلى هذا الحد، فلماذا لا تعود إلى بوهيميا؟ لاسيما وأن المهاجرين الذي غادروا البلاد بعد عام 1968 بشكل غير شرعي، صدر عفو بحقّهم منذ ذلك الحين، ودُعوا إلى العودة. فمماذا تخاف تامينا؟ ولعله من السخف أن تخشى الخطر في بلدها!

أجل، يمكنها العودة دون خوف، غير أنها لا تستطيع ذلك. لقد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غدر الجميع هناك بزوجها، وهي تظن أنهم سيغدرون بها هي أيضا.

فعندما راحوا ينقلونه من منصب ثانوي إلى آخر، وانتهوا إلى فصله من العمل، لم ينبر أحد للدفاع عنه، حتى أصدقاؤه تخلوا عنه. هي تعلم أن الناس كانوا في قرارة أنفسهم مع زوجها، والخوف وحده هو ما دفعهم إلى التزام الصمت. وبما أنهم كانوا من رأيه، فقد تضاعف شعورهم بالخزي من خوفهم، حتى أنهم عندما كانوا يصادفونه في الشارع، كانوا يتظاهرون بعدم رؤيته. وظل الزوجان يتجنبان الناس طوعا لكي لا يوقظا فيهم هذا الشعور بالخزي. وما لبث الناس أن صاروا يتفادونهما كما لو كانا أجذمين. ولما غادرا بوهيميا، وقّع زملاء زوجها القدامى تصريحا يشوّهون فيه سمعته ويتّهمونه زورا. وهم إنما فعلوا ذلك خوفا من فقدان مناصبهم مثلما فقد زوجها عمله قبلهم. ولكنهم فعلوا ذلك على كل حال. وحفروا بالتالي هوّة بينهم وبين الزوجين المنفيين. هوة لن تقبل تامينا أبدا بالقفز عنها والعودة إلى هناك.

قضيا الليلة الأولى بعد فرارهما في فندق بإحدى قرى جبال «الألب»، ولما اسيقظا في الصباح، وأدركا أنهما وحيدين. انتابهما شعور بالتحرر والارتياح. كانا وحيدين بالجبل، يحيط بهما سكون رائع استقبلته تامينا كهبة غير منتظرة، وفكرت أن زوجها غادر بلده لكي يفلت من الاضطهاد، أما هي ففعلت ذلك من أجل الهدوء، الهدوء لها ولزوجها، الهدوء من أجل الحب.

ولما توفي زوجها، غمرها حنين مفاجئ إلى بلدها الأم، البلد الذي تركا بصماتهما في كل مكان منه على مدى أحد عشر عاما. وفي غمرة الحزن، بعثت برسائل إلى بعض الأصدقاء تخبرهم بموت زوجها، لكنها لم تتلقّ أي جواب.

وبعد شهر سافرت إلى الشاطئ بالمال المدّخر. هناك لبست لباس

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

السباحة، وبلعت أنبوبا من الأقراص المهدئة، ثم سبحت متوغلة إلى عرض البحر، آملة أن تصيبها الأقراص بالإعياء، فتغرق. لكن برودة الماء، وحركاتها الرياضية (وكانت سباحة ماهرة) حالت دون نومها، ثم إن مفعول الأقراص كان بلا شك أضعف مما توقّعت.

عادت إلى الشاطئ، وتوجهت إلى غرفتها بالفندق، ثم نامت عشرين ساعة؛ ولما استيقظت شعرت بالهدوء والسكينة. ومنذ ذلك الحين قرّرت العيش في صمت، ومن أجل الصمت.

13

كان الضوء الأزرق الفضي الصادر عن تلفزة بيبي ينير الحاضرين: تامينا وجوجو وبيبي ثم زوجها ديدي الذي كان مسافرا من أجل التجارة، وعاد بالأمس بعد غياب دام أربعة أيام. وكانت تفوح في الغرفة رائحة بول خفيفة، وعلى شاشة التلفزة تلوح رأس مستديرة ضخمة، مسنّة وصلعاء، طرح عليها صحفي خفي سؤالا مستفزا: «قرأنا في مذكراتك بعض الاعترافات الجنسية الصادمة.»

كان الأمر يتعلق ببرنامج أسبوعي يحاور فيه صحفي مشهور مؤلفي الكتب الصادرة في الأسبوع السابق. فابتسمت الرأس العارية الضخمة بلباقة: «لا، لا شيء صادم، الأمر مجرد حساب دقيق! احسب معي. حياتي الجنسية ابتدأت في سن الخامسة عشرة»؛ ثم نظر الرأس المستدير حوله مفاخراً: «أجل، في سن الخامسة عشرة، وأنا اليوم في الخامسة والستين من عمري. إذن فحياتي الجنسية تمتدّ على مدى خمسين سنة. وأستطيع أن أفترض -وهو افتراض متواضع جدّا- أنني كنت أمارس الجنس بمعدل مرتين في الأسبوع، وهو ما يعني مائة مرة في السنة، ومن ثمة خمسة آلاف مرة في حياتي. لنتابع الحساب. فإذا كانت هزة الجماع تدوم خمس ثوان، فقد أمضيت خمسا وعشرين ألف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثانية في النشوة، وهو ما يعادل ست ساعات وست وخمسين دقيقة. وهو أمر ليس بالهين، أليس كذلك؟»

مضى كل من في القاعة يهز رأسه برزانة، وتخيّلت تامينا العجوز الأصلع فريسة نشوة جماع متواصلة، يتلوّى ويضع يده على قلبه، وبعد ربع ساعة ينفلت طقم أسنانه من فمه، وبعد خمس دقائق يهوي صريعا، فانفجرت ضاحكة.

نهرتها بيبي قائلة: «ما الذي يضحكك؟ هذه محصلة ليست بالسيئة! ست ساعات وست وخمسون دقيقة من النشوة.» فقالت جوجو: «لم أعرف معنى نشوة الجماع لسنوات. أما الآن، ومنذ سنوات، صرت أشعر بالنشوة في الجماع بشكل منتظم.»

وانخرط الجميع في الكلام عن نشوة الجماع عند جوجو، بينما كان وجه آخر على الشاشة يعبر عن استيائه. فتساءل ديدي: «ما الذي يغضبه هكذا؟» فقال الكاتب على الشاشة: «هذا أمر مهمّ جدا، مهمّ جدا. لقد شرحته في كتابي».

«ما هو الشيء المهمّ»، تساءلت بيبي. فأجابتها تامينا: «كونه أمضى طفولته في قرية رورو؟»

كان الشخص الذي أمضى طفولته في قرية رورو ذا أنف طويل يثقله لحدّ أن رأسه صار ينحني إلى الأسفل أكثر فأكثر، حتى ليخال المرء أحيانا أنه ساقط من الشاشة إلى أرضية قاعة الجلوس. وقد بلغ الاهتياج بهذا الوجه المثقل مبلغه حين قال: «أشرح هذا في كتابي. فكل ما أكتبه يرتبط بقرية رورو الصغيرة، وأولئك الذين لا يفهمون هذه المسألة لا يفهمون شيئا من أعمالي. فقد نظمت أبياتي الأولى هناك. أجل، هذا مهمّ جدّا في نظري.»

«هناك بعض الناس، قالت جوجو، لا أشعر معهم بنشوة الجماع أبدا». قال الكاتب والاهتياج باد على وجهه أكثر فأكثر: «لا تنسوا أنني

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ركبت الدراجة أول مرة في قرية رورو. أجل، أحكي هذا بتفصيل في كتابي. وأنتم تدركون جميعا ماذا تعني الدراجة في نتاجي. إنها رمز. فالدراجة بالنسبة لي أول خطوة خطتها الإنسانية في عالم الحضارة خارج العالم الأبوي (البطريركي). هي أول مغازلة مع الحضارة، مغازلة العذراء قبل القبلة الأولى. إنها الخطيئة في العذرية.» فقالت جوجو: «صحيح، ذلك أن زميلتي «تاناكا» شعرت بالنشوة الجنسية وهي ما تزال عذراء حين ركبت الدراجة.» وجعل الجميع يناقشون نشوة «تاناكا»، فقالت تامينا لبيبي: «هل تسمحين لي بمكالمة هاتفية؟»

14

كانت رائحة البول أقوى في الغرفة المجاورة حيث كانت ترقد بنت بيبي. همست تامينا لأبيها: «أعلم أنكما متخاصمين، ولكن دون هذا لن أتمكن من استرداد رزمتي. السبيل الوحيد هو أن تذهب إليها وتأخذها منها. وإذا لم تعثر على المفتاح، أجبرها على خلع الدرج. إنها أغراضي أنا. رسائل وأشياء مماثلة، ومن حقي استرجاعها.»

– تامينا لا تجبريني على الحديث إليها!

– تحمل هذا الأمر يا بابا، افعله من أجلي. إنها تخاف منك، ولن ترفض لك طلبا.

– اسمعي، إذا جاء أصدقاؤك إلى براغ، سأبعث لك معهم معطف فرو. هذا أفضل من رسائلك القديمة.

– ولكنني لا أريد معطف فرو، أريد رزمتي.

– ارفعي صوتك، أنا لا أسمعك، قال الأب، ولكن البنت كانت تتحدث بصوت خفيض قصدا، لأنها لم تكن ترغب في أن تسمع بيبي جملها التشيكية فتكتشف أنها تهاتف أحدا بالخارج، وأن كل ثانية من مكالمة كهذه تكلف غاليا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«قلت إنني أريد رزمتي وليس معطف فرو» ردّدت تامينا.

– إنك تهتمين دائما بالسخافات!

– الهاتف مكلف جدا، أبي أرجوك، ألا تستطيع حقا الذهاب لمقابلتها؟.

كانت المكالمة شاقة. فأبوها يطلب منها كل مرة أن تعيد ما تقول، كما يرفض بعناد الذهاب عند حماتها. وأخيرا قال لها: «هاتفي أخاك! ليذهب هو لمقابلتها، وليأتني بالرزمة!»

– هو لا يكاد يعرفها.

– هذا أمر في صالحك، قال الأب ضاحكا، لأنه لو كان يعرفها، سيرفض الذهاب إليها.

فكرت تامينا لحظة، ووجدت أن إرسال أخيها إلى حماتها فكرة لا بأس بها، خصوصا وأنه جريء وحازم. لكن تامينا لم تكن ترغب في الاتصال به. فهما لم يتبادلا رسالة منذ أن سافرت إلى الخارج. فقد كان يشغل منصبا مرموقا براتب كبير، وما كان بوسعه المحافظة عليه إلا بقطع كل علاقاته بأخته المهاجرة.

– بابا، لا أستطيع مهاتفته. أرجو أن تشرح له أنت الأمر. أرجوك يا بابا!

15

كان الأب قصير القامة ضئيل البنية، وكان في طفولة تامينا عندما يمسك بيدها في الشارع، يرفع رأسه مباهيا كأنما يقدم للعالم بأسره نصب الليلة البطولية التي أنجبها فيها. لم يحب صهره قط، لذلك شن عليه حربا بلا هوادة. وهو إذ اقترح عليها إرسال معطف الفرو (الذي ورثه بلا شك عن قريبة متوفاة)، لم يكن يفكر في صحة بنته، بل في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تلك الضغائن القديمة. كان ينتظر من تامينا أن ترجح كفة الأب (معطف الفرو) على كفة الزوج (رزمة الرسائل).

كانت تامينا تشعر بالضيق من كون مصير رزمتها بين أيد معادية: أبوها وحماتها. وصارت كثيرا ما تتخيل عيونا غريبة تقرأ كراريسها، فتقول لنفسها إن هذه النظرات الغريبة شبيهة بقطرات المطر التي تمحو الكتابة من على الجدران، أو مثل الضوء الذي يسقط قبل الأوان على ورق الصور الفوتوغرافية وهو ما يزال في الحوض، فيفسد الصورة.

أدركت أن ما يمنح ذكرياتها المدوّنة معنى وقيمة هو أنها لم تكن موجهة لأحد سواها. وبمجرد أن تفقد هذه المزية، ينقطع الرباط الحميمي الذي يشدّها إليها، فلم يعد بإمكانها أن تقرأها بعينيها هي، بل فقط بأعين الجمهور الذي يطلع على وثيقة تخص الغير. إذن، حتى من كتبتها تصير غريبة عنها. وسيثير فيها ذلك الشبه القائم بينها وبين كاتبة الكراسات شعورا بالسخرية والضحك. كلا، لن تتمكن أبدا من قراءة كراساتها إذا قرأتها عيون غريبة.

لهذا شعرت تامينا بنفاذ صبرها، وودت لو تسترجع كراساتها ورسائلها في أسرع وقت لشدة ما كانت صورة الماضي عالقة بها، ولمّا يصبها التلف بعد.

16

جلست بيبي خلف الكونتوار قرب آلة الحساب وقالت: «مرحباً تامينا! ناوليني كأس ويسكي!».

كانت بيبي تتناول عادة القهوة، لكنها في حالات استثنائية تطلب «البورتو»(*). وطلبها الويسكي معناه أن مزاجها في حالة غير عادية.

(*) نبيذ برتغالي حلو غامق.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سألتها تامينا وهي تسكب الكحول في الكأس: «أتتقدمين في تأليف الكتاب؟»، فأجابتها بيبي: «ينبغي أن يكون مزاجي أفضل»، ثم جرعت الكأس دفعة واحدة، وطلبت آخر.

دخل زبائن آخرون إلى المقهى، وسألت تامينا كلا منهم عما يريد أن يشرب، ثم عادت إلى وراء الكونتوار وسكبت لصديقتها كأسا ثانية قبل الانصراف لخدمة الزبائن. ولما رجعت، قالت لها «يببي»: «لم أعد أطيق رائحة ديدي. فهو حين يعود من جولاته، يظل يومين كاملين في السرير. ولا ينزع منامته خلال اليومين! هل تستطيعين تحمل هذا؟ والأدهى حين يريد تقبيلي، فهو لا يفهم أن التقبيل لا يروقني، لا يروقني أبدا. ينبغي أن أهجره. فهو يقضي كل وقته في الإعداد لعطلته السخيفة. يمكث في السرير بمنامته حاملا بين يديه أطلس خرائط. في البداية قرر الذهاب إلى براغ، لكن الآن لم يعد الأمر يعني له شيئا، إذ اكتشف كتابا حول إيرلندا، وهو يريد زيارتها مهما كلف الثمن.

فسألتها تامينا والغصة في حلقها: «إذن ستقضيان العطلة في إيرلندا؟»

– نحن؟ نحن لن نذهب إلى أي مكان. أنا سأمكث هنا وسأكتب. لن يجبرني على مرافقته إلى أي مكان. أنا لست في حاجة إلى ديدي، فهو لا يهتم بي بتاتا. تصوري، أنا أكتب منذ مدة، ولم يكلّف نفسه سؤالي عمّا أكتب. لقد اقتنعت بأنه لم يعد لنا ما يقوله كل منا للآخر.

وهمّت تامينا بأن تسأل: «لن تذهبا إلى براغ إذن؟»، لكن الغصة منعتها من الكلام. وفي هذه الأثناء دخلت جوجو، اليابانية الصغيرة إلى المقهى، وارتمت على مقعد بجانب بيبي، ثم قالت: «هل تستطيعان ممارسة الجنس أمام الملأ؟»، فسألتها بيبي: «ماذا تقولين؟»

– مثلا هنا على أرضية المقهى، أمام الجميع، أو في السينما أثناء الاستراحة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صاحت بيبي: «هدوء!» وهي تنظر نحو البلاط حيث كانت ابنتها تضج عند قائمة المقعد، ثم قالت: «لِم لا، إنه أمر طبيعي. لِمَ أشعر بالخجل من شيء طبيعي؟».

وهمّت تامينا من جديد بسؤال بيبي عمّا إذا كانت ستذهب إلى براغ، لكنها أدركت أن لا جدوى من السؤال، بعد أن اتضح أنها لن تذهب إلى براغ.

خرجت صاحبة المطعم من المطبخ، وابتسمت لبيبي قائلة: «كيف حالك؟» فقالت بيبي: «تلزمنا ثورة، ينبغي أن يحدث شيء ما! ينبغي أن يحدث شيء في نهاية المطاف».

وفي هذه الليلة حلمت تامينا بالنعامات. كانت واقفة جميعها بمحاذاة السياج، وكانت تخاطبها جميعا في نفس الوقت. صارت تامينا مرعوبة ولا تستطيع الحراك، واكتفت بمراقبة مناقيرها الخرساء كما لو كانت منوّمة مغناطيسيا. كانت شفتاها مطبقتين بعصبية، لأنها كانت تطبق فمها على حلقة من ذهب، وكانت تخشى سقوطها.

17

لماذا أتخيلها بهذه الحلقة الذهبية في فمها؟ لم يكن بوسعي غير ذلك. تصورتها هكذا. وفجأة تبادرت إلى ذاكرتي جملة: «لحن خفيف صاف ورنان، كأنه حلقة من ذهب تسقط في وعاء من فضة.»

عندما كان «توماس مان» صغيرا، كتب عن الموت قصة قصيرة ساحرة. وفي هذه القصة يبدو الموت بديعا مثلما يراه أولئك الذين يحلمون به وهم صغار، ويكون ما يزال بالنسبة لهم غير واقعي وفاتن وشبيه بصوت الأقاصي المزرقّ.

شابّ مصاب بداء قاتل يركب القطار، ثم ينزل في محطة مجهولة، ويلج مدينة يجهل اسمها، ويختار منزلا كيفما اتفق، منزل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عجوز محمرّة الجبهة، ويستأجر غرفة. لن أحكي ما وقع بعد ذلك في المنزل المأجور، سأكتفي بالإشارة إلى واقعة لا قيمة لها: لما كان الشاب المريض يسير في الحجرة، «كان يخيل إليه أنه يسمع في الغرف المجاورة، بين وقع أقدامه، ضجيجا غير محدد، لحنا خفيفا صافيا ورنانا. لكن الأمر لم يكن -ولا شك- غير وهم، وتصوره مثل حلقة من ذهب تسقط في إناء من فضة...»

ويبقى هذا التفصيل الصوتي الصغير في القصة بدون أهمية ولا تفسير، إذ يمكن -من زاوية الحدث- حذفه دون تأثير يذكر. فهو يرد فجأة، ويصدر هكذا.

أعتقد أن «توماس مان» أورد هذا اللحن «الخفيف الصافي الرنان» لكي يُحِلّ بعده الصمت. لقد كان في حاجة إليه لكي يُسمع الجمال (لأن الموت الذي كان يتحدث عنه هو «الموت-الجمال»)، والجمال لكي يدرك في حاجة إلى حد أدنى من الصمت (يكون قياسه هو بالتحديد الصوت الصادر عن سقوط حلقة ذهب في إناء من فضة).

(أجل، أنا أدرك أنكم لا تعرفون عما أتكلم لأن الجمال اختفى منذ زمن بعيد. اختفى تحت مساحات الضجيج -ضجيج الكلمات، ضجيج السيارات، ضجيج الموسيقى- التي نعيش فيها باستمرار. اختفى كما اختفت الأطلانتيد. لم تبق منه غير كلمة تتزايد صعوبة إدراك فحواها سنة بعد سنة.)

سمعت تامينا لأول مرة هذا الصمت (الثمين مثل قطعة من تمثال رخامي ينتمي إلى قارة الأطلانتيد المغمورة) حين استيقظت في فندق جبلي محاط بالغابة بعد الفرار من بلدها. وسمعته للمرّة الثانية عندما سبحت في البحر ومعدتها مليئة بالأقراص التي أشعرتها بهدوء غير منتظر عوض الموت. وهي تريد أن تحافظ على هذا الصمت وتحميه بجسدها. لهذا السبب أراها في حلمها واقفة بجانب سياج الأسلاك،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تضع في فمها الحلقة الذهبية وشفتاها مضمومتان بعصبية.

قبالتها توجد ستة أعناق طويلة تعلوها رؤوس صغيرة تحمل مناقير مفلطحة تنفتح وتنغلق دون ضجيج. وهي لا تفهمها، لا تعرف أكانت النعامات تهدّدها أو تحذرها، تعظها أو تتوسل إليها. ولأنها لا تدرك قصدها، فقد شعرت بقلق شديد. تخشى على حلقة الذهب (منغام(*) الصمت هذا)، فتحفظه بحرص في فمها المتشنج.

لن تعرف تامينا أبدا ما تريد هذه الطيور الضخمة قوله لها. لكن أنا أعرف. لم تقصدها هذه الطيور لا لتحذيرها ولا لإعادتها لرشدها، ولا حتى لتهديدها. ما كانت تهتم بها بتاتا. جاءها كل واحد منها لكي يحدثها عن نفسه. جاءها ليخبرها كيف أكل، وكيف نام، وكيف جرى إلى السياج، وماذا رأى خلفه. قصدها ليقول لها إنه أمضى طفولته في قرية رورو الهامة، وليخبرها بأن نشوته الجنسية دامت ست ساعات، وأنه رأى امرأة جميلة تتجول خلف السياج، وأنها تلبس وشاحا، وأنها سبحت ومرضت وشفيت بعد ذلك.

يقول لها إنه كان في صغره يركب الدراجة، وأنه الْتهمَ اليوم كيسا من العشب. وقفت النعامات جميعها أمام تامينا وهي تكلّمها دفعة واحدة بإلحاح وإصرار وعدوانية، لأن لا شيء في العالم أهمّ مما كانت تريد قوله لها.

18

أيام بعد ذلك، ظهر باناكا في المقهى. جلس على مقعد وهو ثمل، سقط مرتين، ثم استوى على المقعد من جديد وطلب شراب

(*) diapason وهو آلة فولاذية صغيرة بشكل شوكة تعطي نغم «لا» حين تقرع. وتستعمل لقياس النغم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الكلفادوس واضعا رأسه على الكونتوار، فانتبهت تامينا إلى أنه كان يبكي، فسألته: «ماذا بك، يا سيد باناكا؟». رفع باناكا رأسه والدمع يملأ مقلتيه، ثم أشار بإصبعه إلى صدره: «أنا لست، أفهمت! أنا لست! أنا لا أوجد!»، ثم توجه إلى المراحيض، ومنها إلى الشارع، دون أن يؤدي ما عليه.

حكت تامينا لهيغو ما وقع ، ولكي يشرح لها الأمر، أخرج صفحة من جريدة فيها تقارير حول كتب عديدة، وفيها أيضا ملاحظة من أربعة أسطر ساخرة حول كتاب باناكا.

يذكرني مشهد باناكا وهو يشير إلى صدره بسبابته باكيا مدّعيا أنه غير موجود، يذكرني ببيت شعري لـ«غوته» من «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي»(*) حيث يقول «أنكون نحن أحياء حين يحيا أناس آخرون؟» يختزل سؤال «غوته» هذا سرّ وضع الكاتب: عندما يكتب الإنسان الرواية يتحول إلى عالم (ألا نتحدث عن عالم بلزاك وعالم تشيكوف وعالم كافكا؟)، وما يميز العالم هو فرادته. لذلك فإن وجود عالم آخر يهدد وجوده ذاته.

فقد يعيش إسكافيان بانسجام تام طالما أن دكاناهما لا يوجدان في الشارع نفسه. لكنهما ما إن يشرعا في تأليف كتاب عن الإسكافيين حتى يشعر كل منهما بالانزعاج من وجود الآخر، وبذلك سيتساءلان: «هل يمكن أن يحيا الإسكافي إذا كان يحيا إسكافيون آخرون؟»

تشعر تامينا أن نظرة واحدة من غريب تستطيع أن تدمّر قيمة كراساتها الحميمية، في حين يعتقد «غوته» أن نظرة واحدة من كائن بشري لا تسلط على أسطر نتاجه تضع وجود «غوته» ذاته موضع تساؤل. فالفرق بين تامينا والكاتب هو نفسه الفرق بين الإنسان والكاتب.

(*) ترجمه إلى العربية وحققه الدكتور عبد الرحمن بدوي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فمن يؤلف الكتب يكون هو كل شيء (عالم فريد لنفسه وللآخرين جميعاً) أو لا شيء. وبما أن لا أحد بمقدوره أن يكون كل شيء، فإننا -نحن من نؤلف الكتب- لسنا لا شيء. نحن مهملون وحُسّاد وساخطون ونتمنى الموت للآخرين. وهذا أمر نتساوى فيه: باناكا وبيبي وأنا وغوته.

إن تنامي هوس الكتابة بين الساسة وسائقي سيارات الأجرة والنادلات والعاشقات والقتلة والسارقين والعاهرات والحكام والأطباء والمرضى يثبت لي أن كل إنسان، وبدون استثناء، يحمل في قرارة نفسه قدرة كامنة على الكتابة، بحيث يمكن أن ينزل كل بني آدم إلى الشارع ويهتف: كلنا كتاب!

فكل منا يخشى فكرة الزوال من عالم لا يبالي بوجوده، الزوال دون أن يراه أو يسمعه أحد. ولهذا يسعى كل واحد إلى أن يتحول إلى عالم من الكلمات خاص به قبل فوات الأوان. وعندما يأتي يوم (وهو غير بعيد) يلفى فيه كل الناس أنفسهم كتابا، سنكون قد بلغنا زمن الصمم وانتفاء التفاهم الشاملين.

19

لقد غدا هيغو الآن أملها الوحيد. دعاها للعشاء، فقبلت الدعوة دون تردد. كان جالسا قبالتها على الطاولة، وليس في ذهنه غير فكرة واحدة: تامينا تستمرّ في الإفلات منه، وهو قليل الثقة في نفسه، ولا يجرؤ على مواجهتها. وكلما ازدادت معاناته من العجز عن بلوغ هدف متواضع ودقيق كهذا، إلا وتقوّت رغبته في الظفر بالعالم، بهذه الرحابة غير المحددة. أخرج من جيبه صحيفة، فتحها وقدمها لتامينا. كان يوجد على الصفحة المفتوحة مقال طويل موقّع باسمه.

تحدّث مطوّلا. حدثها عن المجلة التي قدمها لها لتوّه: صحيح

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أن توزيعها الآن يقتصر على الصعيد المحلي، لكنها في الوقت نفسه مجلة نظرية متينة، يسهر عليها أناس شجعان سيذهبون بها بعيدا. كان هيغو يتكلم ويتكلم، وكان كلامه استعارة لعدوانيته الجنسية، واستعراضا لفحولته. كان كلامه يعكس جاهزية المجرد للحلول محلّ الملموس المتمنّع.

نظرت تامينا إلى هيغو وراحت تسوي وجهها. لقد أصبح هذا التمرين الروحي هوسا لديها، إذ لم تعد تستطيع النظر إلى الرجل بغير هذه الكيفية. بذلت كل جهدها، وسخّرت كل خيالها، لكن لون عيني هيغو العسليتين ما لبث أن تغير فجأة، فأصبحتا زرقاوين. وحتى تحافظ على اللون الأزرق في عيني هيغو، كان عليها أن تنظر إليهما بكل ما أوتيت من حدة نظر.

كانت نظرتها تُشعر هيغو بالقلق، ولهذا راح يتكلم ويتكلم. كانت زرقة عينيه جميلة، وكانت جبهته تتمدد بلطف حتى أنه لم يبق من شعره في مقدمة الرأس سوى مثلث ضيق ذي حد مائل إلى الأسفل. «لطالما وجهت نقدي ضد عالمنا الغربي، وضده وحده. لكن الجور السائد عندنا يمكن أن يقودنا إلى تسامح آثم مع دول أخرى. بفضلك أنت يا تامينا، أجل بفضلك، أدركت أن السلطة واحدة في كل مكان، عندكم وعندنا، في الغرب والشرق. لا ينبغي السعي إلى استبدال نوع من السلطة بآخر، بل ينبغي أن ننكر مبدأ السلطة ذاته، ننكره أينما وجد.»

مال هيغو على تامينا فوق الطاولة، وكانت تصدر من فمه رائحة حموضة ظلت تزعجها في تمارينها الروحية حتى كُسيت جبهة هيغو بشعر غزير. وظل يردد بأنه أدرك كل هذا بفضلها.

فقاطعته: «كيف؟ لم نتحدث معا في هذا الأمر قط!» لم يبق في وجه هيغو غير عين واحدة زرقاء، أخذت تتحول بدورها إلى العسلي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«لم أكن في حاجة لأن تحدثيني يا تامينا، حسبي أني فكرت فيك كثيرا.» ومال النادل أمامهما ليضع على الطاولة صحون المقبلات. قالت تامينا: «سوف أقرأ هذا في بيتي»، ثم دست المجلة في حقيبتها وأضافت: «لن تسافر بيبي إلى براغ».

– كنت واثقا من ذلك، قال هيغو، ثم أضاف: «لا تخشي شيئا يا تامينا، لقد وعدتك. سأذهب إلى هناك من أجلك.»

20

– عندي لك خبر سار. تكلمت مع أخيك، سيذهب لزيارة حماتك يوم السبت.

– أحقا؟ وهل شرحت له الأمر جيدا؟ أقلتَ له أن يكسر الدرج إذا لم تعثر حماتي على المفتاح؟

وضعت تامينا السماعة، وخيّل لها أنها ثملة. وسألها هيغو: «خبر سار؟»، «نعم» أجابت تامينا. كان صوت أبيها المرح والرنان ما يزال يتردد في مسمعها، وفكرت في أنها ظلمته.

قام هيغو واقترب من الكونتوار، ثم أخرج من جيبه كأسين وسكب فيهما الويسكي: «تامينا، بإمكانك أن تتصلي بالهاتف من بيتي متى شئت. أكرر ما قلته لك. أشعر بالسعادة معك بالرغم من أنني أعلم أنك لن تضاجعيني أبدا».

بذل جهدا كبيرا لينطق: «أعلم أنك لن تضاجعيني أبدا.» وهو لم يفعل ذلك إلا ليثبت لنفسه أنه قادر على قول بعض الكلمات في وجه هذه المرأة المتأبّية (حتى ولو كان ذلك بصيغة نفي حذر)، واستشعر في نفسه شيئا من الجرأة.

قامت تامينا، وتقدمت من هيغو لكي تأخذ منه الكأس. كانت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تفكر في أخيها، فهما لم يكونا يتكلمان، لكنهما مع ذلك كانا يتحابان ومستعدان لمساعدة بعضهما بعضا. قال هيغو وهو يفرغ كأسه في جوفه: «أتمنى أن تتحقق رغباتك!» جرعت تامينا هي أيضا كأسها دفعة واحدة ثم وضعت الكأس على الطاولة الواطئة. همّت بالجلوس، لكن هيغو ضمها بين ذراعيه. لم تتمنع عليه، واكتفت بإمالة رأسها. التوى فمها، وعلت جبينها الغضون.

ضمّها بين ذراعيه دون أن يدري كيف فعل ذلك. في البداية تخوّف من الإقدام على هذا الفعل. فلو صدّته تامينا، لانصرف عنها خجِلا، ولطلب منها المعذرة. لكنها لم تصدّه، بل زاداه تقطيب وجهها والتواء رأسها إثارة. فالنساء القليلات اللواتي عرفهن إلى حدود تلك اللحظة لم يكنّ يستجبن قط لمداعباته بمثل هذه البراعة. فهل كنّ مستعدات لمضاجعته حين كنّ يتعرين بهدوء وبنوع من اللامبالاة، وينتظرن ليعرفن ما ينوي فعله بأجسادهن. كان التقطيب على وجه تامينا يضفي على عناقها شكلا لم يحلم به قط. ومضى يضمها إليه بقوة، ويحاول نزع لباسها.

لكن لِمَ لم تنتفض؟ ها قد مرت ثلاث سنوات وهي تفكر في هذه اللحظة بخوف، وها هي قد حلّت كما تصورتها تماما؛ ولعل هذا هو ما جعلها تستسلم وترضى بها كما يرضى الإنسان بالقدر.

لم يكن بوسعها إلا الإشاحة بوجهها، لكن هذا لم يكن ليجدي شيئا. كانت صورة زوجها حاضرة، وكلما حرّكت رأسها كانت الصورة تتجول في الغرفة. بدت عبارة عن بورتريه كبير لزوج ضخم ضخامة مضحكة، أضخم من المعتاد، أجل، هذا تماما ما كانت تتصوره منذ ثلاث سنوات.

بعد ذلك صارت عارية تماما، وانتبه هيغو المهتاج -بما اعتقده اهتياجا بالنسبة لها- بنوع من الذهول أن فرج تامينا كان جافا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

21

أجرت «تامينا» في الماضي عملية جراحية بسيطة دون تخدير، وأثناء العملية وطّنت نفسها أن تقوم بترديد الأفعال الإنجليزية الشاذة عن القاعدة. وهي الآن تحاول أن تفعل الشيء نفسه، مركِّزة كل ذهنها على كراساتها. فكرت أن الكراسات ستصير آمنة عندما تكون بين يدي أبيها، وأن هيغو الشهم هذا سيسافر لإحضارها.

مضت مدة وهيغو الشهم يهتز بعنف فوقها، ولما تنبّهت إلى أنه يعتمد على ساعديه محركا خاصرتيه في كل الاتجاهات، فهمت أنه مستاء من استجاباتها، وأنه لا يجدها مهتاجة بما فيه الكفاية، وأنه يحاول إيلاجها من زوايا مختلفة لعله يعثر في أعماقها على نقطة حساسيتها الخفية المتوارية.

لم تشأ رؤية جهوده المضنية، فأشاحت بوجهها، وحاولت أن تتحكم في أفكارها وتوجهها نحو كراساتها من جديد. فاعتصرت ذهنها وراحت تكرر في ذهنها ترتيب عُطَلِهما. لعلها تستعيد ذلك الترتيب الذي نجحت جزئيا حتى الآن في إعادة بنائه:

العطلة الأولى بجانب بحيرة صغيرة في بوهيميا، ثم يوغوسلافيا، ثم البحيرة الصغيرة في بوهيميا فمدينة المياه الساخنة الموجودة أيضا في بوهيميا. لكن ترتيب هذه العُطَل ما يزال غير موثوق. في سنة 1964 ذهبا إلى جبال «التتراس» ، وذهبا في السنة اللاحقة إلى بلغاريا، لكنها لم تعد تذكر ما بعد ذلك. وفي سنة 1968 أمضيا العطلة في براغ. وفي السنة اللاحقة قضيا العطلة في مدينة مياه ساخنة، وبعدها جاءت الهجرة، أما آخر عطلة لهما فقضياها في إيطاليا.

قام هيغو من فوقها، وحاول إدارة جسدها، ففهمت أنه يريدها أن تقف على أربع، وفي هذه الأثناء تذكرت أن هيغو يصغرها،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فشعرت بالخجل، لكنها بذلت ما في وسعها لتخنق كل مشاعرها حتى تطاوعه بلامبالاة؛ ثم شعرت بوقع جسده على ردفيها. أدركت أنه يسعى إلى إبهارها بقوته وقدرته على التحمّل، وأنه يجري معركة حاسمة، يجتاز امتحان بكالوريا يثبت فيه قدرته على هزمها، ويثبت أيضا أنه أهل لها.

كانت تجهل أن هيغو لم يكن يراها. فقد هيّجته تلك النظرة الخاطفة لردفيها (العين المفتوحة لهذا الردف الراشد الجميل، العين التي تحدق فيه بلا رحمة) حتى أنه أغمض عينيه، وخفف من إيقاع اهتزازه، وتنفس بعمق. كان هو أيضا يجهد ذهنه للتفكير في شيء آخر (وكان هذا هو القاسم المشترك الوحيد بينهما) لكي يديم هذه المضاجعة أكثر.

وخلال هذه اللحظة رأت تامينا قبالتها وجه زوجها الضخم بارزا على واجهة خزانة هيغو البيضاء، فأغلقت عينيها مرة أخرى لعلها تذكر ترتيب عُطَلهما، كما لو كان الأمر يتعلق بالأفعال الشاذة عن القاعدة: عطلة بجانب البحيرة أولا، بعد ذلك يوغوسلافيا، ثم البحيرة، فمدينة المياه الساخنة، إثر ذلك «التتراس»، فبلغاريا، ثم انقطع الحبل؛ بعد ذلك براغ، فمدينة المياه الساخنة وأخيرا إيطاليا.

انتزعها تنفس هيغو العنيف من ذكرياتها، فتحت عينيها، فرأت وجه زوجها على الخزانة البيضاء. وفتح هيغو عينيه فجأة، فرأى عين ردف تامينا، فاخترقته الشهوة كالصاعقة.

22

عندما ذهب أخ تامينا لجلب الكراسات، لم يضطر إلى خلع الدرج، لأنه لم يكن مغلقا بالمفتاح، وكانت الكراسات الإحدى عشرة موجودة بداخله كلها. لم تكن الكراسات مغلّفة، بل متناثرة كيفما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اتفق. الرسائل بدورها كانت مكدسة، عبارة عن كومة من الأوراق لا شكل لها. جمعها أخ «تامانينا» ودسّها في حقيبة صغيرة، ثم حملها إلى أبيها.

طلبت تامينا من أبيها في الهاتف أن يلف الرزمة بعناية وأن يغلقها بواسطة الورق اللاصق، وألحت عليه كي لا يقرأ شيئا منها، لا هو ولا أخوها.

طمأنها بلهجة حادة بأنه وابنه لم تستهوهما قط قراءة أشياء لا تعنيهما كما تفعل حماتها. لكنني أعلم (كما تعلم تامينا) أن ثمة نظرات لا يستطيع أحد مقاومتها، مثل النظر إلى حوادث السير أو رسالة حب تخصّ شخصاً آخر.

هكذا أودعت الكتابات الحميمة عند أبيها. لكن، أما زالت تامينا حريصة عليها؟ ألم تقل لنفسها مئة مرة إن نظرات الغرباء لا تختلف عن قطرات المطر التي تمحو الكتابات؟ كلا، كانت مخطئة. فرغبتها فيها هي الآن أقوى من أي وقت مضى، وهي ما تزال عزيزة عليها. إنها كراسات مغتصبة ومستباحة، مثلها تماما. فهما معا، هي وذكرياتها، لهما إذن المصير الأخوي نفسه. لذلك ازداد حبها لها أكثر.

لكنها تحس نفسها مدنّسة. كان ذلك منذ زمن بعيد، لما كان عمرها سبع سنوات. فاجأها عمّها عارية بالكامل في غرفة نومها. خجلت من ذلك خجلاً شديداً، وما لبث خجلها أن استحال إلى تمرّد، فأخذت على نفسها عهدا طفوليا بألا تراه طوال حياتها. وبالرغم من توبيخهم لها وصراخهم عليها وسخريتهم منها من أجل عمّها الذي كان غالبا ما يزورهم، إلا أنها لم ترفع عينيها إليه أبدا. وهي الآن في وضعية مماثلة. فبالرغم من اعترافها بفضل أبيها وأخيها عليها، إلا أنها لا ترغب في رؤيتهما ثانية. فقد كانت تدرك أكثر من أي وقت مضى بأنها أبدا لن تعود إليهم أبداً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

23

جلب الفتح الجنسي غير المنتظر لهيغو خيبة لم يكن يتوقعها، إذ صار بوسعه مضاجعتها متى شاء (فهي لن تستطع قط أن ترفض له ما سمحت به مرة واحدة)، لكنه ظل يشعر بإخفاقه في فتنها ونيل إعجابها. آه! كيف يمكن لجسد عار تحته أن يكون لا مباليا إلى هذا الحد، أن يكون بعيد المنال هكذا، نائيا وغريبا! ألم يأمل في أن تصير جزءا من عالمه الداخلي، هذا العالم العظيم المعجون بدمه وأفكاره؟

كان جالسا قبالتها في المطعم، وقال:

«أنوي تأليف كتاب يا تامينا، كتاب حول الحب، نعم، حولي وحولك، حولنا معا، حول يومياتنا الأكثر حميمية، يوميات جسدينا. أجل، أريد أن أحطم فيه كل التابوات، وأبوح بكل شيء، أقول كل شيء عني، عن وجودي وعن كل ما أفكر فيه؛ وسيكون في الآن نفسه كتابا سياسيا، كتابا سياسيا عن الحب، وكتاب حبّ عن السياسة...»

ركّزت تامينا نظرها على هيغو، وفجأة لم يعد يستطيع احتمال هذه النظرة أكثر، فانقطع حبل كلامه. كان بودّه أن يأسرها في عالم دمه وأفكاره، لكنها ما تزال حبيسة عالمها الخاص. وبما أن تامينا لم تكن تشاطره كلماته، صارت تلك الكلمات التي ينطقها تثقل في فمه أكثر فأكثر إلى أن أصبح إيقاع كلامه ثقيلا: «كتاب حب حول السياسة، أجل، لأن العالم ينبغي أن يُخلق على مقاس الإنسان، على مقاسنا، على مقاس جسدينا، نعم، لكي نستطيع يوما أن نقبّل بطريقة مختلفة، وأن نحب بطريقة مختلفة...»

صارت الكلمات أثقل فأثقل، كما لو كانت لقمة ضخمة من لحم يابس تستعصي على المضغ. صمت هيغو. بدت له تامينا جميلة، لكنه أضحى يكرهها، وجد أنها تستغل قَدَرَها استغلالا سيئا. فقد جثمت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على ماضيها كمهاجرة وأرملة كما لو كانت تجثم على ناطحة سحاب من كبرياء مزيّف، تنظر من أعلاها إلى الآخرين. فكر هيغو والغيرة تلتهمه في برجه الخاص الذي حاول إقامته قبالة ناطحة السحاب تلك، البرج الذي أبت أن تراه: برج مصنوع من مقالة منشورة ومن مشروع كتاب يدور حول حبهما.

إثر ذلك قالت له تامينا: «متى ستسافر إلى براغ؟».

وفكر هيغو أنها لم تحبه قط. وما يبرر وجودها معه هو حاجتها لأن يذهب إلى براغ، فاجتاحته رغبة جامحة في الانتقام منها، ثم قال: «تامينا كنت أعتقد أنك ستفهمين بمفردك. لقد قرأت مقالتي على أي حال!» أجابت تامينا: «نعم». لم يصدّقها، وحتى لو كانت قرأتها، فهي لم تولها أي اهتمام، والدليل على ذلك أنها لم تشر لها قط. وشعر هيغو أن الإحساس العظيم الوحيد الذي يستطيعه الآن هو الإخلاص لهذا البرج المهمل والمهجور (برج المقالة المنشورة ومشروع الكتاب حول حبه لتامينا)، والشعور بأنه قادر على التوجه إلى المعركة من أجل ذلك البرج، وإجبار تامينا على رؤيته والتعجب من علوّه.

«أنت تعلمين مع ذلك أنني أتحدث عن مسألة السلطة في مقالتي. لقد حللت فيها ميكانيزمات السلطة، وانتقدت ما يقع عندكم. تحدثت عن ذلك بلا مواربة.»

- اسمع! هل تظن فعلا أنهم سيطلعون على مقالتك في براغ؟

شعر هيغو بالإهانة من سخريتها: «لقد هاجرت من بلادك منذ زمن بعيد، ويبدو أنك نسيت ما تقدر عليه الشرطة هناك. لقد كان لتلك المقالة وقع كبير، فقد توصلت بعدد من الرسائل. وشرطتكم تعرف من أكون. أنا أعلم ذلك.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صمتت تامينا وقد بدت أجمل. يا إلهي! قد يقبل بالسفر إلى براغ مئة مرة ذهابا وإيابا لو أنها فقط فتحت عينيها على العالم الذي يريد أن يسوقها إليه، عالم دمه وأفكاره! ثم غيّر لهجته فجأة، وقال بأسى: «تامينا، أعلم أنك تحقدين علي لأنني لا أستطيع الذهاب إلى براغ. أنا أيضا فكّرت في البداية أن عليّ التريث في نشر تلك المقالة، لكنني فهمت فيما بعد أنه لا يحق لي أن أصمت أكثر. هل تفهمينني؟»

– لا، قالت تامينا.

كان هيغو يعلم أنه لا يقول غير سخافات تقوده إلى حيث لا يريد أن ينزلق لأي سبب، لكنه لم يعد بوسعه التراجع، فتملّكه اليأس من ذلك. كانت بقع حمراء ترقط وجهه، فقال بصوت متهدج: «ألا تفهمينني؟ لا أريد أن ينتهي الأمر عندنا مثلما انتهى عندكم! فإذا صمتنا جميعا، سننتهي مثل العبيد.»

في هذه اللحظة انتابت تامينا نوبة من الاشمئزاز الرهيب، فقامت وتوجهت جارية إلى المراحيض. كانت معدتها تكاد تخرج من فمها. جثت أمام الحوض لتتقيأ، وأخذ جَسَدها يتلوّى وكأن البكاء يهزها وتراءت لها خصيتي هذا الرجل وقضيبه وعانته. كانت تشم رائحة الحموضة المنبعثة من فمه، وتحس باحتكاك فخذيه بردفيها، وعبرت ذهنها فكرة أنها لم تعد قادرة على تذكر قضيب زوجها وعانته، وأن ذاكرة التقزز أقوى من ذاكرة الحنان (آه يا إلهي! ذاكرة التقزز أقوى من ذاكرة الحنان!)، وأنه لن يبقى في رأسها سوى هذا الرجل ذي رائحة الفم الكريهة، ثم أخذت تتقيأ وتتقيأ وتتلوى.

غادرت المراحيض، وكان فمها (الذي ما زال يفوح برائحة الحموضة) مغلقا بإحكام. شعر هيغو بالحرج، وأراد أن يصحبها إلى بيتها، لكنها لم تقل شيئا، وظلت تغلق فمها بإحكام (مثلما فعلت في الحلم حين كانت تحفظ في فمها حلقة الذهب).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان يتحدث إليها، وعوض أن تجيبه، كانت تسرع الخطو. وسرعان ما نفذ كلامه، فسار إلى جنبها أمتارا أخرى بصمت، ثم تسمّر في مكانه دون حراك. ظلت تسير إلى الأمام دون أن تلتفت إلى الخلف. استمرت في العمل في المقاهي، ولم تهاتف براغ أبدا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الجزء الخامس

ليتوست

من هي كريستين؟

كريستين امرأة في الثلاثين، لها طفل، وزوج جزّار متفاهمة معه على أحسن وجه، كما أن لها علاقة غير منتظمة مع صاحب مرآب في ذلك الحي، يضاجعها في مرآبه بين حين وآخر في ظروف غير مريحة بعد ساعات العمل. ولم تكن المدينة الصغيرة تسمح بالعلاقة الغرامية الخارجة عن الزواج، أو بعبارة أخرى، يستلزم ذلك كنوزا من الدهاء والجرأة، وهي خصلة لم يكن للسيدة كريستين منها الشيء الكثير.

لقاؤها بالطالب أدار رأسها وجعلها تحوّل الوجهة. كان قد جاء لقضاء العطلة عند والدته في المدينة الصغيرة. حدّق طويلا مرتين في زوجة الجزار التي كانت واقفة في دكانها خلف الطاولة، وفي المرّة الثالثة كلّمها بلطف، وكان في كلامه حياء فاتن لم تستطع المرأة، المعتادة على الجزار وصاحب المرآب، مقاومته. فمنذ زواجها (قبل عشرة أعوام)، لم تجرؤ على لمس رجل آخر غير زوجها، باستثناء الحالات التي تجد نفسها فيها بمأمن داخل المرآب المقفل بين السيارات المفككة والإطارات القديمة. وها هي تلمس في نفسها الجرأة على الذهاب إلى ميعاد عشق في الهواء الطلق، معرّضة نفسها للنظرات الفضولية. وبالرغم من أنهما اختارا لنزهتهما الأماكن الأكثر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عزلة حيث إمكانية مصادفة المتطفلين ضئيلة، فإن قلب السيدة كريستين ظل يدق، وظلت تشعر برعب مثير. لكنها كلما أظهرت الشجاعة في مواجهة الخطر، ازداد تحفظها مع الطالب الذي لم يحصل منها إلا على ضمات قصيرة وقبلات رقيقة. وقد أفلتت من بين ذراعيه أكثر من مرة، وحين كان يداعبها، كانت تحتفظ بفخذيها متصلبتين.

لم يكن ذلك نفورا من الطالب، بل لأنها أعجبت بحيائه الرقيق منذ أول نظرة، وكانت تتمنى أن يظل على هذا الحال. ولم يسبق للسيدة كريستين أبدا أن سمعت رجلا يعرض أمامها أفكاره عن الحياة ويذكر أسماء شعراء وفلاسفة. والطالب المسكين لا يستطيع الخوض في شيء آخر غير هذا، ذلك أن فصاحته الإغرائية كانت محدودة، ولم يكن يحسن تكييفها مع الوضع الاجتماعي لعشيقاته. كما أنه لم يشعر بأي تقصير، لأن الكلام المقتبس من الفلاسفة كان وقعه على زوجة الجزار البسيطة أكبر من وقعه على زميلة له في الكلية. إلا أن شيئا غاب عن باله: صحيح أن قولة فيلسوف مؤثرة قد تسحر زوجة الجزار، لكنها تنتصب حاجزا بين جسدها وجسده. وذلك لأن السيدة كريستين تعتقد بارتباك أن منح جسدها للطالب يحط بعلاقتهما إلى مستوى الجزار أو صاحب المرآب، ومن ثمة لن تسمع قط حديثا عن شوبنهاور.

كانت تشعر أمام الطالب بانزعاج لم يعتورها أبدا من قبل. فقد كانت تتفاهم بشكل فوري ومرح مع الجزار وصاحب المرآب حول أي شيء. فمثلا كانت متفقة مع هذين الشخصين على أن يكونا حذرين بعدما نصحها الطبيب عقب الولادة بألا تلد مرة ثانية، لِما في ذلك من خطورة على صحّتها، بل على حياتها. والقصة تجري في زمن قديم جدا، أي عندما كان الإجهاض ممنوعا، ولم يكن للنساء وسيلة للتحكم في خصوبتهن. كان الجزار وصاحب المرآب يفهمان تخوفات كريستين التي دأبت على التأكد -بعفوية مرحة- من أنهما اتخذا كل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الاحتياطات اللازمة قبل إيلاجها. لكن أن تشرح لملاكها الأمر، وهو الذي نزل من السحاب حيث كان يحاور شوبنهار ليلحق بها، فهي لم تعثر على الكلمات المناسبة. وأستطيع أن أستنتج من هذا أن لتحفظها الشبقي سببين: الحفاظ على الطالب في منطقة الحياء الرقيق لأطول مدة ممكنة. وتلافي -لأطول مدة ممكنة- التقزز الذي قد تسببه له التعليمات والاحتياطات المبتذلة، والتي لا يمكن للحب الجسدي أن يستغني عنها في نظرها.

غير أن الطالب، رغم رقّته، كان عنيدا للغاية. وعبثا شدت السيدة كريستين فخذيها، إلا أنه أمسكها بشجاعة من ردفها، كما لو أن هذا الاحتكاك الجسدي يشير إلى أن من يقتبس عن شوبنهاور لن يتخلى بالضرورة عن الجسد الذي فتنه.

زد على هذا أن العطلة شارفت على النهاية، فأدرك العشيقان أن قضاء سنة دون لقاء أمر صعب عليهما. ولم يكن أمام السيدة كريستين سوى البحث عن ذريعة للحاق به. وكان كل منهما يدرك ما تعنيه هذه الزيارة. فالطالب يعيش في براغ، ويسكن في سقيفة صغيرة، والسيدة كريستين لا تستطيع أن تقيم في مكان غير هذا.

ما هي الليتوست؟

الليتوست كلمة تشيكية ليس لها مقابل في اللغات الأخرى. فمقطعها الصوتي الأول الذي ينطق على نحو مديد ومنبور، يوحي بشكوى كلب مهجور. وقد بحثتُ عبثا عن مقابل لهذه الكلمة في لغات أخرى، بالرغم من أنني أجد صعوبة في فهم الروح الإنسانية دونها.

سأعطي مثالا: كان الطالب يستحم مع صديقته الطالبة في النهر، وكانت الفتاة رياضية، في حين لم يكن هو يتقن السباحة. لم يكن يعرف كيف يتنفس تحت الماء، وكان يسبح ببطء شديد رافعاً رأسه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بمشقّة فوق سطح الماء. ولما كانت الطالبة تعشقه عشقا مجنونا، أخذت تسبح معه بنفس البطء. وبما أن حصة السباحة قد شارفت على النهاية، شاءت أن تطلق العنان لغريزتها الرياضية، وتوجهت إلى الضفة الأخرى سابحة سباحة سريعة، بذل الطالب مجهودا لمجاراتها، لكنه ابتلع ماء وأحس بضآلته وانفضاح ضآلته الجسدية، فشعر بالليتوست. تراءت له طفولته المريضة من دون تمارين رياضية ومن دون رفاق، مشمولا بنظرة أمه الحنون، فانتابه اليأس من نفسه ومن حياته. ولما صعدا الطريق الريفية معا ظلا صامتين. كان يشعر بالذل والمهانة، وغمرته رغبة لا تقاوم في ضربها، وعندما سألته: «ما بك؟»، راح يلومها. كانت تعلم أن التيار قوي قرب الضفة الأخرى، وأنه منعها من السباحة هناك، لأن في ذلك خطرا على حياتها، ثم لطمها على وجهها. شرعت الفتاة في البكاء، وعندما رأى الدموع في عينيها، شعر نحوها بالشفقة، فضمها بين ذراعيه، وعندها تلاشت عنه الليتوست.

أو إليك مثلا آخر من طفولة الطالب: كان أبواه يلقنانه دروسا في الكمان. وكان ضعيف الموهبة، فأوقفه الأستاذ بصوت بارد وقاس منبها إياه إلى بعض الأخطاء، فشعر بالإهانة، وانتابته الرغبة في البكاء. لكن عوض الحرص على العزف بشكل سليم، وعدم ارتكاب الأخطاء، مضى يخطئ عمدا، فنزل عليه صوت الأستاذ أشدّ وأبرد وأقسى، مما جعله يغرق أكثر فأكثر في ليتوسته.

إذن فما هي الليتوست؟

الليتوست حالة من العذاب ناشئة عن مشهد بؤسنا الخاص المنكشف فجأة. ويشكل الحب أحد العلاجات المألوفة من بؤسنا الخاص هذا، لأن الشخص المحبوب حبا تاما لا يمكن أن يكون بئيسا. فكل العيوب تتغاضى عنها نظرة الحب السحرية، وهي النظرة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التي تستطيع جعل سباحة متخبطة، والرأس مرفوع فوق سطح الماء، تبدو ساحرة.

إن المطلق في الحب هو في الحقيقة رغبة في التماهي المطلق: إذ ينبغي أن تسبح المرأة التي نحبّ بنفس بطئنا، وينبغي ألا يكون لها ماض خاص بها تستطيع تذكره بسعادة. لكن، ما إن يتحطم وهم التماهي المطلق (تتذكر الفتاة ماضيها بسعادة، أو تسبح بسرعة) حتى يصبح الحب مصدرا مستمرا للعذاب الذي نسميه الليتوست.

إن من خَبِرَ نقص الإنسان أمِنَ نسبيا من صدمات الليتوست، إذ يصبح مشهد بؤسه الخاص شيئا مألوفا لديه ولا قيمة له. فالليتوست إذن خاص بمرحلة عدم الخبرة. إنه أحد مظاهر زينة مرحلة الشباب.

تعمل الليتوست كمحرك ذي دورتين. فبعد العذاب تأتي الرغبة في الانتقام. والغاية من الانتقام هي جعل الشريك بدوره يعيش البؤس. فإذا كان الرجل لا يتقن السباحة على المرأة المضروبة أن تبكي، وهذا يجعلهما يشعران بالمساواة، ومن ثمة الاستمرار في الحب.

وبما أنه لا يمكن الكشف عن مبررات الانتقام الحقيقية (فالطالب لا يقوى على الاعتراف للشابة بأنه ضربها لأنها تسبح أسرع منه)، يجري اختراع أسباب مزيفة. فالليتوست إذن لا تستطيع الاستغناء عن النفاق العاطفي. ذلك أن الشاب يعلن أن سبب غضبه هو الخوف على صديقته من الغرق، والطفل يعزف لحنا خاطئا متظاهرا بأن الموهبة تعوزه.

كان سيسمى هذا الفصل في البداية «من هو الطالب؟»، لكنه لما عالج الليتوست، فكأنه حدّثنا عن الطالب، الذي ليس إلا تشخيصا للّيتوست. لهذا لا ينبغي أن نعجب من كون الطالبة المحبوبة انتهت إلى هجره. فليس من المعقول أن يُضرب المرء لأنه يتقن السباحة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وقد كان لقاؤه بزوجة الجزار في مسقط رأسه مثل قطعة لصاق طبي (ضمادة) تصلح لتضميد جرحه. كانت تعشقه، بل تؤلّهه. ولما راح يحدثها عن شوبنهاور لم تكن تحاول أن تبرز شخصيتها المستقلة عنه بواسطة الاعتراض عليه (كما فعلت الطالبة المشؤومة الذكر)، بل كانت تحدق فيه بعينين يتهيأ له، وهو متأثر بانفعال السيدة كريستين، أنهما تغرورقان بالدمع. كما لا ينبغي أن ننسى أنه لم يضاجع امرأة منذ أن قطع علاقته بالطالبة.

من هو فولتير؟

ڤولتير أستاذ مساعد بكلية الآداب، روحاني النزعة وعدواني، عيناه تخترقان وجه الغريم بنظرة لاذعة. وقد كان هذا كافيا لتلقيبه بڤولتير.

كان يحب الطالب، ولم يكن ذلك من قبيل الإيثار الدقيق، لأن ڤولتير كان متشددا فيما يتعلق باختيار من يؤثرهم. بعد الحلقة الدراسية جاءه سائلاً عمّا ما إذا كان عنده وقت حر عشية اليوم التالي، لكنه للأسف كان ينتظر قدوم السيدة كريستين. وتطلب أمر الاعتذار لفولتير بأنه مرتبط بموعد آخر كثيرا من الشجاعة، إلا أن ڤولتير أزاح اعتراضه بحركة من يده قائلا: «طيب، ينبغي أن تؤجل موعدك، لن تندم على ذلك»، ثم أخبره بأن ألمع شعراء البلد سيلتقون في اليوم التالي في نادي رجال الأدب، وأنه سيكون معهم، وأنه يتمنى أن يتعرّف تلميذه إليهم.

أجل، سيحضر أيضا الشاعر الكبير الذي أنجز حوله ڤولتير بحثا، والذي كان غالبا ما يتردد على بيته. وقد كان هذا الشاعر مريضا، ويستعين في مشيه بعكازين، ولذلك كان نادرا ما يخرج من بيته، وبالتالي فإن فرصة لقائه لا تعوّض.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان الطالب يعرف كتب كل الشعراء الذين سيحضرون اللقاء، إلا أنه كان يحفظ صفحات من دواوين الشاعر الكبير عن ظهر قلب، ولم تكن له أمنية أكبر من قضاء سهرة برفقة الشعراء. ثم تذكر أنه لم يضاجع أنثى منذ شهور، وكرر أنه يستحيل عليه المجيء.

غير أن ڤولتير لم يستسغ وجود شيء أهم من لقاء أناس عظام. امرأة؟ أليست شيئا يمكن تأجيله إلى وقت لاحق؟ وفجأة لاحت في نظارتيه شرارات ساخرة، إلا أن الطالب تراءت له صورة زوجة الجزار التي أفلتت منه خلال شهر العطلة الطويل، وبجهد كبير أومأ برأسه تعبيرا عن الرفض، ذلك أن كريستين في تلك اللحظة كانت تساوي شعر بلاده برمته.

التسوية

وصلت صباحا، ثم قضت النهار في التبضع متخذة من ذلك ذريعة لسفرها. وقد ضرب لها الطالب موعدا في المساء بإحدى المقاهي التي اختارها بنفسه. فلما دخل المقهى، كاد الخوف يستبد به، فقد كانت القاعة غاصة بالسكارى، وكانت فاتنة عطلته الريفية جالسة في زاوية المراحيض، إلى طاولة لم تكن مخصصة للزبائن، بل للأواني المتسخة. كانت لابسة بوقار أخرق، كما تلبس ريفية تزور العاصمة بعد مدة طويلة، وتودّ أن تنهل من كل مباهجها. كانت تضع على رأسها قبّعة، وفي عنقها لآلئ صارخة، وتنتعل حذاء خفيفا أسود وعالي الكعبين. شعر الطالب بالتهاب وجنتيه، ليس انفعالا، بل خيبة. لقد تركت كريستين في مدينتها الصغيرة، لدى جزاريها وأصحاب مرائبها ومتقاعديها، انطباعا مخالفا لذلك الذي تركته في براغ، مدينة الطالبات والحسناوات. فهي قد بدت له بلآلئها التافهة وسنّها المذهبة البارزة (في فكها الأعلى عند زاوية الفم) النقيض المجسد لهذا الجمال الأنثوي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الطفولي الرافل في الجينز، والذي ما انفك يقاومه بعنف منذ أشهر عديدة. كان يتقدم نحو كريستين بخطى غير واثقة تلازمه الليتوست.

وإذا كان الطالب شعر بالخيبة، فكريستين لم تكن أقل شعورا بها منه. ذلك أن المطعم الذي دعاها إليه يحمل اسما جميلا «عند الملك فانسيلاس»، وقد اعتقدت كريستين التي لم تكن تعرف براغ جيدا أنه مطعم فاخر، سيتعشيا فيه قبل أن يهبّا لاكتشاف شهب مباهج براغ النارية. فلما لاحظت أن «عند الملك فانيسلاس» لا يختلف في شيء عن المكان الذي يشرب فيه صاحب المرآب جعته، وأن عليها انتظار الطالب في زاوية المراحيض، لم تحس بالشعور الذي سمّيته الليتوست، بل شعرت بغضب عادي. أعني بهذا أنها لم تشعر لا بالبؤس ولا بالإهانة، بل قدرت أن الطالب لا يحسن التصرف. وهي لم تتردد في التصريح له بذلك. كانت غاضبة، وخاطبته كما تخاطب الجزار.

وقفا وجها لوجه، فأخذت تنتقده بطلاقة وبصوت مرتفع، وشرع هو يدافع عن نفسه بفتور، فتضاعف شعوره بالتقزز؛ لذلك شاء أن يأخذها إلى بيته بسرعة، وأن يخفيها عن الأنظار آملا أن تبعث حميمية المكان الروح في جاذبيتها المفقودة. لكنها رفضت لأنها لم تفد على العاصمة منذ زمن طويل، وتريد أن ترى شيئا، أن تخرج وتتسلى. وبذلك طالب حذاؤها الأسود ولآلئها الصارخة بحقّهما بصوت ضاجّ.

«ولكنه مقهى صغير رائع، هنا يأتي عليّة الناس» قال الطالب مشعرا زوجة الجزار بأنها غير مؤهلة لتمييز الأماكن المهمّة في العاصمة من غيرها، ثم تابع: «مع الأسف، المقهى غاص بالزبائن اليوم، لذلك يتعيّن أن آخذك لمكان آخر». ولكن من عجائب الاتفاق أن كانت كل المقاهي مليئة تلك الليلة، وكان عليهما أن يقطعا مسافة قصيرة بين المقهى والآخر، فبدت له السيدة كريستين مضحكة بقبّعتها الصغيرة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ولآلئها وسنّها المذهّبة اللامعة في فمها. عبرا شوارع مليئة بالشابات الجميلات، وأدرك الطالب أنه لن يغفر لنفسه أبدا إحجامه عن حضور سهرة عمالقة الشعر في بلده من أجل كريستين. لكنه لم يشأ كذلك أن يثير سخطها لأنه كما قلت لم يضاجع امرأة منذ زمن طويل. ووحدها تسوية متقنة الإحكام تستطيع أن تحلّ هذه المعضلة.

وجدا أخيرا طاولة فارغة في مقهى ناء جدا. أمر الطالب بكأسين من المقبلات، ثم نظر إلى عيني كريستين بحزن: الحياة هنا في براغ مليئة بالأحداث غير المتوقعة. فقد تلقّى بالأمس فقط مكالمة هاتفية من أشهر شاعر في البلاد.

لما نطق باسمه انتفضت السيدة كريستين، ذلك أنها حين كانت تلميذة، كانت تحفظ عن ظهر قلب بعض قصائده. والعظماء الذين نُلَقّن أسماءهم في المدرسة، يكونون محاطين بهالة من اللاواقعية والمثالية، ويدخلون أحياءً إلى رواق الأموات المهيب. لم تصدّق كريستين أنّ الطالب يعرف الشاعر معرفة شخصية.

ردّ الطالب بأنه يعرفه فعلا، وأنه ينجز حوله بحث الإجازة، وهو عبارة عن مونوغرافيا هو الآن بصدد تحريرها، وأنها ستصدر ولا شك أنها ستصدر ذات يوم في كتاب. وهو لم يفاتح السيدة كريستين خشية أن تعتقد الأمر ادّعاء، وهو إنما قال لها ذلك الآن لأن الشاعر العظيم ورد عَرَضاً في سياق حديثهما.

وطبعا ستجري مناقشة خاصة هذا المساء مع شعراء البلاد بنادي رجال الأدب، ولم يُدع لحضورها سوى بعض النقاد والمهتمين. إنه لقاء هام جدا، من المنتظر أن تدور فيه مناقشة يتطاير منها الشرر. لكن الطالب لن يذهب بالطبع، وأنه مبتهج بلقاء السيدة كريستين!

في بلدي اللطيف الفريد، مازال الشعراء يسحرون قلوب النساء. أبدت السيدة كريستين إعجابا بالطالب، وانتابتها رغبة أموميّة بنصح

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الطالب والدفاع عن مصلحته. وصرّحت له بإيثار غير متوقع ومنقطع النظير بأنها تأسف لعدم مشاركة الطالب في سهرة يحضرها الشاعر الكبير. فردّ الطالب بأنه بذل ما في وسعه حتى تتمكن كريستين من مرافقته، لأنه كان يدرك سعادتها برؤية الشاعر الكبير وأصدقائه، لكن للأسف لم يكن الأمر ممكنا. فحتى الشاعر العظيم لم يُسمح له باصطحاب زوجته، لأن المناقشة موجهة أساسا للمختصين.

في بادئ الأمر لم يفكر في حضور اللقاء، ولكنه الآن يدرك أن كريستين محقة. أجل، إنها فكرة رائعة. بإمكانه مع ذلك أن يمضي هناك سويعة، على أن تنتظره كريستين في بيته، وبعد ذلك يلحق بها فيُمضيان الليلة معا وحدهما.

وما لبثت فكرة ارتياد المسارح وأماكن التسلية أن نسيت، ودخلت كريستين إلى سقيفة الطالب. راودها في البداية نفس الشعور بالخيبة الذي انتابها في «ملك فانسيسلاس». فالمسكن لم يكن حتى شقة. كان حجرة واحدة صغيرة للغاية دون مدخل، ليس فيها أثاث سوى أريكة وطاولة عمل. لكنها لم تكن واثقة من أحكامها. لقد ولجت عالما يسوده سلّم قيم عجيب لا تفقه فيه شيئا. وسرعان ما تكيّفت مع هذه الشقة غير المريحة والقذرة، واعتمدت على كل ما أوتيت من موهبة أنثوية لتشعر أنها في بيتها.

طلب منها نزع قبعتها، ورسم على خدها قبلة وأجلسها على الأريكة، ثم دلّها على المكتبة الصغيرة حيث يمكنها أن تجد ما تتسلى به أثناء غيابه.

حينئذ تبادرت إلى ذهن كريستين فكرة: «أعندك كتابه؟»، وهي تقصد الشاعر العظيم. نعم، لقد كان الطالب يملك الكتاب؛ ثم واصلت بحياء: «ألا تستطيع أن تهديني إياه؟ وتطلب من الشاعر أن يوقّعه لي؟» تهلل وجه الطالب فرحا، ذلك أن توقيع الكاتب العظيم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يمكن أن يعوِّض المسارح وقاعات التسلية المنوّعة. فقد أشعرته بالتقصير في حقها، وهو ما جعله مستعدا لفعل أي شيء من أجل إرضائها. وكما كان منتظرا، فقد أعادت حميمية السقيفة لكريستين بهاءها. أما الشابات اللواتي كنّ يرحن ويجئن في الشوارع فقد اختفين من ذهنه، وراح سحر تواضعها يغمر الغرفة في صمت. وهكذا تلاشت الخيبة ببطء. ولما ذهب الطالب إلى النادي، كان راضيا ومفتونا بفكرة البرنامج المزدوج الذي تعِدُ به السهرة الموشكة على البداية.

الشعراء

انتظر ڤولتير أمام باب نادي رجال الأدب، وصعد معه إلى الطابق الأوّل. وما كادا يعبران غرفة الملابس ثم البهو، حتى تناهى إلى مسامعهما صخب مرح. فتح ڤولتير باب الصالون، فرأى الطالب خلف الطاولة كل شعراء بلده.

أنظر إليهم عبر مسافة طويلة تبلغ ألفي كيلوميتر. نحن في خريف 1977، وبلدي ينام منذ تسع سنوات في الحضن الشديد والناعم القاسي لإمبراطورية روسيا. طُرد ڤولتير من الجامعة، أما كتبي فجمعت من كل المكتبات العامة، وأودعت في بعض أقبية الدولة. انتظرت سنوات أخرى، ثم ركبت سيارة ومضيت أبعد ما يمكن غربا حتى بلغت مدينة «رين» البروتونية، حيث عثرت من يومي الأول على شقة في الطابق الأعلى في أعلى برج. وفي اليوم التالي، حين أيقظتني الشمس، أدركت أن هذه النوافذ الكبرى تطل على الشرق، أي جهة براغ.

إذن فأنا أنظر إليهم في هذه اللحظة من شرفتي العليا، ولكن من بعيد. ولحسن حظي أن في عيني دمعة شبيهة بعدسة تلسكوب تقرّب وجوههم من بصري..والآن، أنا أميّز بوضوح الشاعر العظيم كأنني جالس بينهم. فهو قد جاوز السبعين ولا شك، لكن وجهه حافظ على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بهائه، وعيناه ظلتا حادتين وحكيمتين. وكان عكازاه مسنودين إلى الطاولة بجواره.

أراهم جميعا في خلفية صورة براغ المضاءة، تماما كما كانوا لخمس عشرة سنة خلت، حين لم تكن كتبهم قد اعتقلت بعد في أحد أقبية الدولة، وكانوا يثرثرون بمرح وصخب حول الطاولة الكبيرة الملأى بالقوارير. أحبهم كثيرا، جميعهم، وأتردد في إعطائهم أسماء مبتذلة مستمدة بالصدفة من دليل الهاتف. فإذا لم يكن بدّ من إخفاء وجوههم خلف اسم مستعار، فإنني أريد أن أعطيهم هذا الاسم كهدية، كزينة وتشريف.

فإذا كان الطلاب قد لقّبوا الأستاذ المساعد بڤولتير، فما الذي يمنعني من تسمية الشاعر الكبير المحبوب لديّ بغوته؟ وقبالته جلس ليرممنتوف. أما هذا، صاحب العينين السوداوين والحالمين، فسأدعوه بترارك.

ثم هناك فيرلين وإيسّنين وغيرهم كثير ممن لا داعي للحديث عنهم. لكن هناك شخص آخر ربما حضر بالخطأ. من بعيد (من مسافة ألفي كيلومتر) من البديهي ألا يكون الشعر قد وهبه قُبلته وألا يكون محبّا للشعر. إنه يدعى بوكاس.

سحب ڤولتير كرسيين من جانب الحائط نحو الطاولة الملأى بالقوارير، ثم قدم الطالب للشعراء، فرحبوا به بإشارة لبقة، عدا بترارك الذي لم يلحظ وجوده لأنه كان منشغلا بمجادلة بوكاس، وأنهى كلامه قائلا: «المرأة أكثر تفوقا منا دائما. ويمكن أن أتحدث في هذا الشأن أسابيع كاملة.»

وراح غوته يشجعه: «أسابيع، هذا كثير. تحدث عشر دقائق على الأقل.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حكاية بترارك

«ذات مساء في الأسبوع الماضي، حدث لي شيء لا يُصدق. كانت زوجتي قد اغتسلت، وارتدت قميص الحمام الأحمر، فبدت جميلة بشعرها الذهبي المسدل. كانت الساعة تشير إلى التاسعة وعشر دقائق، حين سُمع رنين الجرس. فتحت باب المدخل، فوجدت فتاة ملتصقة بالجدار، عرفتها على الفور. ذلك أنني أذهب مرة في الأسبوع إلى إحدى ثانويات الفتيات. وكنّ قد أسّسن ناديا شعريا، وهنّ يعشقنني سرا.

سألتها: «ماذا تفعلين هنا؟»

- ينبغي أن أتحدث إليك.

- ما الذي تريدين قوله؟

- ما أريد قوله مهمّ للغاية!

- اسمعي، قلت لها، هذا وقت متأخر، لا يمكنني استقبالك في بيتي الآن، انزلي بسرعة وانتظريني عند باب القبو.»

دخلت إلى غرفتي وقلت لزوجتي بأن أحدهم دق الجرس خطأ. وبعد هنيهة، أعلنت لزوجتي أنني نازل إلى القبو لجلب الفحم بعدما أخذت سطلين فارغين. وهنا كانت غلطتي. ذلك أنني قضيت اليوم ممددا في الفراش لأن حويصلتي كانت تؤلمني، فأثار حماسي المفاجئ شكوك زوجتي. فسأله غوته باهتمام: «أتعاني مشاكل مع حويصلتك؟»

أجابه بترارك: «منذ سنوات عديدة.»

- لِمَ لمْ تُجر عملية جراحية؟

- «إطلاقا!»، قال بترارك.

ثم حرك غوته رأسه إشارة إلى تعاطفه. وسأل بترارك: «أين كنت؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فأجابه فرلين: «كنت تعاني من الحويصلة، وأخذت سطلين لجلب الفحم»

واصَل بترارك حكيه: «وجدت الفتاة أمام باب القبو، وأمرتها بالنزول معي، ثم أخذت رفشا، وملأت السطلين بالفحم. حاولت أن أستطلع مرادها، فأخذت تكرّر بأنها ترغب في رؤيتي، ولم أفهم شيئا آخر غير ذلك.

«ثم سمعت خطى من أعلى السلم، فرفعت سطلا من الفحم، وخرجت من القبو جاريا. كانت زوجتي نازلة، أعطيتها السطل، وقلت لها: من فضلك اصعدي بهذا، ثم عدت إلى القبو وقلت للفتاة بأن عليها الانصراف من هناك، وانتظاري في الشارع. ملأت السطل الآخر بسرعة وصعدت مهرولا. بعد ذلك قبّلت امرأتي، وطلبت منها أن تنام إن شاءت، لأنني سآخذ حماما قبل النوم. وما إن انصرفت إلى فراشها حتى دخلت حجرة الحمام، وفتحت الحنفيات، حتى سُمع صوت الماء يرتطم بقعر حوض الاستحمام. خلعت خُفّي، وخرجت إلى المدخل لابسا جوربيّ. وبما أن الحذاء الذي انتعلته ذلك اليوم كان بالمدخل، فإنني تركته هناك حتى يدلّ على أنني لم أذهب بعيدا، وأخذت حذاء آخر من الدولاب، انتعلته وتسللت بدون ضجّة من الشقة.»

وهنا تدخل بوكاس: «نحن جميعا نعلم بأنك شاعر كبير، لكنني ألاحظ أنك أيضا منظّم للغاية، ومخطِّط داهية لا يعميه الهوى ولو لثانية! فما فعلته بالخفين وبالحذاءين يعدّ من الروائع!»

وأثنى كل الشعراء الحاضرين على قول بوكاس، وأمطروا بترارك بإطرائهم، وهو ما زاد من إعجابه بنفسه.

«وجدتها تنتظرني في الشارع، فحاولت تهدئتها، وشرحت لها بأنني يجب أن أعود إلى البيت، واقترحت عليها العودة ظهيرة اليوم التالي عندما تكون زوجتي في عملها، وحينئذ سنكون مطمئنين. كان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثمة محطة ترام بالقرب من العمارة التي أقطن فيها، فألححت عليها بالانصراف، لكن ما إن جاء الترام، حتى انفجرت ضاحكة، وأرادت أن تهرول نحو باب العمارة.

فقال بوكاس: «كان عليك أن تدفعها تحت عجلات الترام.»

ثم أعلن بترارك بصوت يكاد يكون مهيبا: «يا أصدقائي ينبغي أن يكون المرء في بعض اللحظات -شاء ذلك أم أبى- قاسيا مع النساء.» فقلت لها: «إذا لم تذهبي في حال سبيلك طوعا، فإنني سأغلق باب العمارة بالمفتاح. لا تنسي أن هذا هو بيتي، ولا أريد تحويله إلى ماخور!»، ولا تنسوا يا أصدقائي أنه بينما كنت أتجادل معها أمام مدخل العمارة، كانت الحنفيات في الحمام مفتوحة، والحوض مهدد بالفيضان في كل لحظة.»

«قفلت راجعا بسرعة باتجاه باب العمارة، فأخذت تجري خلفي. ومما زاد الطين بلّة أن أشخاصا آخرين كانوا يدخلون إلى العمارة في تلك الأثناء، فتسللت بينهم إلى الداخل. ارتقيت السلم مثل عدّاء رياضي! وسمعت خطواتها في إثري. وبما أننا نسكن في الطابق الثالث، فقد كان الصعود بتلك السرعة يتطلب تأهيلا جسديا كبيرا! ولكنني مع ذلك كنت الأسرع، وصفقت الباب في وجهها. وكان أمامي بعض الوقت لأنزع خيوط الجرس من الحائط حتى لا يُسمع رنينه، لأنني كنت أعلم أنها حالما تضغط على الزر لن تتركه. بعد هذا جريت على رؤوس الأصابع إلى الحمام.

فسأل «غوته»: «ألم يفض الحوض؟».

فأجابه بترارك: «أغلقت الحنفيات في آخر لحظة. ثم بعد ذلك ذهبت لألقي نظرة على باب الشقة، فتحت الخصاص، فوجدتها ما تزال مسمّرة هناك، وعيناها جامدتان على الباب. شعرت يا أصدقائي بالخوف، وتساءلت ما إذا كانت ستبقى هناك إلى صبيحة اليوم التالي.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تدخل بوكاس قائلا: «أنت عاشق فاسد يا بترارك. أعتقد أن هاته الفتيات اللواتي أنشأن نادي الشعر يتضرّعن إليك مثل أبولون. أما أنا فلا أتمنى لقاءهنّ إطلاقا. ذلك أن المرأة الشاعرة هي امرأة مرتين، وهذا كثير على رجل يكره النساء مثلي.»

فقال له غوته: «أنصت يا بوكاس، لماذا تباهي دائما بكرهك للنساء؟»

- لأن كارهي النساء هم أفضل الرجال.

فرد الشعراء كلهم بصيحات شاجبة مما جعل بوكاس يرفع صوته: «افهموني، كاره النساء لا يمقتهن، بل يمقت الأنوثة. فالرجال ينقسمون منذ الأزل إلى فئتين كبيرتين: محبّو النساء، أو الشعراء؛ ثم كارهو النساء، أو المصابون بالرّهاب من النساء. فمحبّو النساء يقدسون القيم الأنثوية التقليدية مثل العاطفة والأسرة والأمومة والخصوبة ووميضات الجنون المقدسة وصوت الطبيعة الإلهي الكامن فينا؛ في حين تُشعر هذه القيم كارهي النساء أو المرهوبين منهنّ برُهاب خفيف. إن المحبّ يقدس في المرأة أنوثتها، في حين يعطي كاره النساء الأولوية للمرأة على الأنوثة. ولا تنسوا هذا الأمر: المرأة لا تشعر بالسعادة إلا مع كاره نساء. أما معكم، فلم تشعر امرأة قط بالسعادة!»

أحدثت هذه الكلمات ضجة معادية جديدة.

«يمكن أن يجلب المحب للمرأة الفاجعة والعاطفة والدموع والهموم، لكنه لا يثير فيها شعورا بالمتعة أبدا. أعرف شخصا كان يعبد امراته، ثم أحب امرأة أخرى. لم يكن يريد أن يهين إحداهما بخيانتها، والأخرى باتخاذها عشيقته السرية، فاعترف بكل شيء لزوجته، وطلب منها أن تساعده، فمرضت الزوجة بسبب ذلك، وظلت تمضي وقتها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في البكاء لدرجة لم تعد عشيقته تطيق ذلك، وأخبرته بأنها ستهجره. تمدّد على سكة الترام قصد وضع حدّ لحياته، لكن لسوء حظه لمحه السائق من بعيد، فتعيّن على عاشقنا دفع خمسين كرونة بسبب عرقلة السير.»

– «بوكاس كاذب!» صاح فرلين.

– «الحكاية التي رواها بترارك، هي من الطينة نفسها. أتستحق زوجتك ذات الشعر الذهبي أن تأخذ تلك المسعورة مأخذ الجدّ؟»

– ماذا تعرف عن زوجتي!

فردّ عليه بترارك رافعاً من نبرته: «زوجتي هي صديقتي الوفية! ليس بيننا أسرار!»

– «إذن لِم غيّرت الحذاء؟» سأله ليرمنتوف.

لكن بترارك لم يضطرب، وقال: «أصدقائي، في هذه اللحظة الدقيقة التي كانت فيها الشابة أمام الباب، وحيث لم أكن أدري ما العمل، لحقت بزوجتي في الغرفة، واعترفت لها بكل شيء.

– «كيف فعلت ذلك أيها المحب!» سأل بوكاس ضاحكا. «الاعتراف! تلك هي ردّة فعل كل المحبين! طلبت منها بالتأكيد أن تساعدك!»

كان صوت بترارك يقطر حنانا: «أجل، طلبت منها أن تساعدني. لم ترفض لي أبدا مساعدة. وهذه المرة أيضا لم تكن استثناء. ذهبت من تلقاء ذاتها إلى الباب، وبقيت أنا في الغرفة لأن الخوف اجتاحني.»

– أنا أيضا كاد ينتابني الخوف، قال غوته بنبرة الموافق.

– لما عادت، كانت هادئة تماما. نظرتُ من خلال ثقب الباب، ثم فتحته، فلم تجد أجدا حتى ظنّت أنني افتعلت الحكاية. لكننا سرعان ما سمعنا فجأة طرقات شديدة خلفنا، وإذا بالزجاج يتطاير،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ونحن نسكن شقة قديمة كما لا يخفى عليكم، تطلّ نوافذها على رواق. ذلك أن الفتاة لما أيقنت من تعطل الجرس، تسلحت بقضيب من حديد لست أدري أين عثرت عليه، ثم عادت إلى الرواق، وشرعت في تهشيم كل نوافذنا الواحدة تلو الأخرى. كنا نراقبها مرعوبين من داخل الشقة دون أن نقوى على فعل شيء. إثر ذلك أبصرنا في الجانب الآخر من الرواق الغارق في الظلمة ثلاثة ظلال بيضاء. إنهن العجائز الثلاث القاطنات في الشقة المقابلة، أيقظتهنّ فرقعات الزجاج، فهرولن في قمصان النوم متحمّسات ومتلهّفات وسعيدات بهذه الفضيحة غير المتوقّعة. تصوروا هذا المشهد! مراهقة جميلة تحمل في يدها قضيب حديد تحيط بها ظلال الساحرات الشريرات الثلاث!

بعد أن كسرت الفتاة الزجاج الأخير، ودخلت الغرفة من النافذة، هممت بالاقتراب منها للتحدث إليها، لكن زوجتي ضمتني بين ذراعيها، ورجتني: «لا تذهب إليها، ستقتلك!» ثم انتصبت الفتاة وسط الغرفة وقضيب الحديد بين يديها كأنها «جاندارك» تحمل رمحها. كانت جميلة ومهيبة! أما أنا فانفلتّ من ذراعي زوجتي وتقدمت نحوها، وكنت كلّما اقتربت منها زال التهديد من نظرتها إلى أن رقّت وغمرها سلام سماوي. سحبت منها قضيب الحديد وألقيته على الأرض، ثم أخذتها من يدها.»

الشتائم

قال له ليرمنتوف: «أنا لا أصدق كلمة واحدة من حكايتك.»

فتدخل بوكاس قائلا: «بطبيعة الحال الأحداث لم تقع كما حكاها بترارك، لكنني لا أشك في حدوثها بالفعل. فتلك الفتاة مجنونة، وأي رجل عادي لا يسعه في موقف مماثل إلا صفعها صفعتين. فالعشاق المتولّهون أو الشعراء كانوا دائما ضحايا مثاليين للمصابات بالهستيريا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اللواتي يدركن أنهم لن يجرؤوا أبدا على صفعهن. العشاق المتولّهون لا حول لهم أمام النساء، لأنهم لم ينجحوا في تخطّي ظلال أمهاتهم، وهم يخضعون لأي امرأة لأنهم يرون فيها صورة الأم. إن تنانير أمهاتهم تمتد فوق رؤوسهم كقبة السماء»، وقد راقت له هذه الجملة الأخيرة فكررها مرارا: «يا معشر الشعراء، إن ما ترونه فوق رؤوسكم ليس سماء، بل هي تنورة والدتكم الوارفة! إنكم تعيشون جميعا تحت تنورة أمّكم!»

قفز إيسينين من مقعده وهو يصيح بصوت مروع: «ماذا تقول؟» كان أكثرهم شربا منذ بداية السهرة. «ماذا قلت عن أمي؟ ماذا قلت؟»

فأجابه بوكاس بهدوء: «لم أكن أتحدث عن أمك». كان يعلم أن إيسينين يعيش مع راقصة شهيرة تكبره بثلاثين سنة، فشعر نحوه برأفة صادقة. لكن إيسنين كان قد استجمع البصاق بين مفرق شفتيه، ثم مال إلى الأمام وبصق. وبما أنه كان ثملا، فإن بصقته سقطت على ياقة غوته. أخرج بوكاس منديله، ومسح ياقة الشاعر العظيم.

بعدما بصق إيسنين شعر بعياء شديد، وتهاوى على المقعد، فتابع بترارك: «أتمنى منكم جميعا يا أصدقائي أن تصغوا إلى ما قالت لي، إنه أمر لا يُنسى. قالت لي، وكان كلامها مثل صلاة أو دعاء: «أنا فتاة بسيطة، فتاة عادية جدا، ليس لديّ ما أهديه، لكنني أتيت إلى هنا لأن الحب أرسلني، فجئت.» وفي هذه اللحظة ضغطت على يدي بشدة «كي تدرك ماهية الحب الحقيقي، كي تعرفه ولو مرّة واحدة في حياتك.»

سأله ليرمنتوف بنبرة ساخرة: «وبماذا ردّت زوجتك على رسولة الحب هذه؟».

فقهقه غوته معلّقا: «أيبخل ليرمنتوف بشيء من أجل أن تهشّم امرأة نوافذ بيته! قد يذهب به الأمر لحدّ أن يدفع لقاء هذه الخدمة!»

ألقى ليرمنتوف على غوته نظرة حاقدة، ثم تابع بترارك: زوجتي؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إنك مخطئ يا ليرمنتوف إذا اعتبرت هذه القصة حكاية هزلية من حكايات بوكاس. لقد التفتت الصغيرة إلى زوجتي ونظرت إليها نظرة سماوية، ثم قالت لها بكلام كالصلاة أو كالدعاء هذه المرة أيضاً: «لا تحقدي عليّ يا سيدتي، إنك طيبة، وأنا أحبك أنتِ أيضا، أحبّكما معا»، ثم أمسكت بيدها هي الأخرى.

فقال ليرمنتوف: «إذا كان هذا المشهد شبيها بإحدى حكايات بوكاس، فأنا لا اعتراض لي عليه، غير أن ما أنت بصدد روايته هو أسوأ من ذلك. إنه شعر رديء.»

فصاح به بترارك: «إنك تحسدني! ألم تجد نفسك يوما وحيدا في غرفة مع امرأتين جميلتين تعشقانك؟! أتدرك كم هي جميلة زوجتي بقميص الحمام الأحمر وشعرها المرسل؟»

ضحك ليرمنتوف ضحكة استهزاء، لكن غوته قرر هذه المرة معاقبته على تعليقاته الفظّة: «إنك شاعر عظيم يا ليرمنتوف، والجميع يعترف بذلك، ولكن لماذا تعاني من هذه العقد؟»

ظلّ ليرمنتوف مذهولا للحظة، ثم أجاب غوته وهو يكاد لا يتمالك نفسه: «ما كان عليك أن تقول لي هذا يا يوهان. هذا أسوأ ما يمكن أن تقوله في حقّي. إنها لنذالة منك.»

لم يشأ غوته ذو الطبع الودود الاستمرار في مضايقة ليرمنتوف، لكن ڤولتير تدخل هازئا: «كونك مليء بالعقد أمر باد للعيان يا ليرمنتوف»، ثم أخذ يحلل أشعاره كلها، تلك الأشعار الخالية من رشاقة وعفوية أشعار غوته، ومن النَّفَس الحماسي لأشعار بترارك. ثم استرسل يفكك كل استعاراته ليثبت بوضوح أن عقدة الدونية لدى ليرمنتوف هي المنبع المباشر لخياله، وأن جذورها تمتد إلى طفولته، تلك الطفولة المطبوعة بالفقر والمتأثرة بتسلط الأب الجائر.

وفي هذه اللحظة مال غوته على بترارك وهمس له بصوت غمر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أرجاء القاعة كلها حتى أن الجميع سمعه بمن فيهم ليرمنتوف: «هيا إذن! هذا هراء. إن مشكلة ليرمنتوف هو أنه لا ينكح!»

الطالب يناصر ليرمنتوف

ظل الطالب صامتا، وهو يسكب الخمر لنفسه (إذ كان نادل يسحب القوارير الفارغة ويجلب أخرى مليئة دون إثارة الانتباه) مصغيا باهتمام إلى المحادثة التي يقدح منها الشَّرر. ولم يكن لديه من الوقت ما يكفي للالتفات قصد ملاحقة زوابعهم التي تبعث على الدوخة. وظلّ يتساءل في نفسه أيّ الشعراء أقرب إلى قلبه. أما غوته فقد كان يقدسه كما تقدسه السيدة كريستين، بل كما يقدسه البلد بكامله. وأما بتراركِ فكان يسحره بعينيه المتأججتين. لكن، من أثار تعاطفه أكثر- وهو أمر غريب- هو ليرمنتوف الذي تعرض للإهانة، لاسيما بعد ملاحظة غوته الأخيرة التي نبّهته إلى أن الشاعر الكبير (وليرمنتوف شاعر كبير حقا) قد يواجه الصعوبات نفسها التي يواجهها أي طالب مثله هو. نظر إلى ساعته فوجد أن وقت العودة إلى بيته قد حان، وحريّ ألا ينتهي به الأمر مثلما انتهى بليرمنتوف.

غير أنه لم يقو على مفارقة هؤلاء الرجال العظماء. وعوض الالتحاق بالسيدة كريستين، توجه إلى المراحيض. كان واقفا هناك، تملأ رأسه الأفكار العظيمة وينظر إلى الزليج الأبيض، عندما سمع بجواره صوت ليرمنتوف: «سمعتهم بلا شك، هم ليسوا نبهاء، أفهمت، ليسوا نبهاء.»

نطق ليرمنتوف كلمة «نبهاء» كما لو كانت مكتوبة بخط مائل ومشدّد. نعم، هناك بعض الكلمات التي ليست كسائر الكلمات، كلمات لها قيمة خاصة لا يعرفها غير المتمرّسين. لم يكن الطالب يعلم لماذا نطق ليرمنتوف بكلمة «نبهاء» كما لو كانت مكتوبة بخط مائل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لكن أنا من المتمرسين، وأعلم أن ليرمنتوف قرأ في الماضي أفكار باسكال حول روح الدقة وروح الهندسة، فأصبح منذ ذلك الحين يصنف الجنس البشري إلى صنفين: النبهاء والآخرون.

ولما لاحظ ليرمنتوف صمت الطالب، قال له بنبرة حادة: «أظنك تجدهم نبهاء، أنت؟»

زرّر الطالب أزرار سرواله، ولاحظ أن ساقَيْ ليرمنتوف قصيرتان تماما مثلما وصفته الكونتيسة روبشنسكي في يومياتها منذ مائة وخمسين عاما. كان يشعر نحوه بالعرفان لأنه أول شاعر كبير يسأله سؤالا خطيرا منتظرا منه جوابا بنفس الخطورة. ثم قال: «في رأيي ليسوا نبهاء البتة.» وقف ليرمنتوف على ساقيه القصيرتين بلا حراك وقال: «كلا، ليسوا نبهاء البتة.» ثم أضاف رافعا نبرته: «ولكنني فخور! أتفهم، أنا فخور!»

وكانت كلمة «فخور» مكتوبة في فمه بخط مائل أيضا حتى لا يظنّ إلا أحمق أن ليرمنتوف فخور مثلما تفخر الحسناء بجمالها أو يفخر تاجر بممتلكاته، لأن الأمر يتعلق بفخر فريد جدا، فخر مبرّر ونبيل.

وصاح ليرمنتوف: «أنا فخور»، ثم عاد مع الطالب إلى القاعة حيث كان ڤولتير يطري على غوته. عندئذ اندفع هائجا، وانتصب أمام الطاولة، مما جعله يبدو أطول مقارنة بالآخرين الجالسين، ثم قال: «والآن سأُظهر لكُم كم أنا فخور! الآن سأقول لكم شيئا لأنني فخور! لا يوجد في هذه البلاد سوى شاعرين: أنا وغوته.»

وفي هذه المرة كان ڤولتير هو من تصدّى قائلا: «ربما كنت شاعرا كبيرا، ولكنك كرجل، هذا هو علوّك! أستطيع أن أقول عنك إنك شاعر، أما أنت فلا يحقّ لك أن تقول ذلك عن نفسك.»

ظل ليرمنتوف مذهولا لبرهة، ثم تمتم: «ولم لا يكون لي الحق في قول ذلك؟ أنا فخور، أنا!» ردد ليرمنتوف مرات كثيرة أنه فخور، وراح ڤولتير يقهقه ضاحكا، وتبعه الآخرون متصايحين بالضحك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وفهم الطالب أن اللحظة التي كان ينتظرها قد حلّت، فوقف مثلما فعل ليرمنتوف، ثم جال بنظره على الشعراء الحاضرين، وقال: «إنكم لا تفهمون شيئا من ليرمنتوف. ففخر الشاعر ليس فخرا مبتذلا. الشاعر وحده يدرك قيمة ما يكتب، أما الآخرون فيكتشفون ذلك في وقت متأخر كثيرا عنه، وقد لا يدركونه أبدا؛ لذا وجب أن يكون الشاعر فخورا. فإن لم يكن كذلك، خان نتاجه.»

لحظة قبل هذا كانوا يتمرغون من الضحك، لكنهم سرعان ما وافقوا على قول الطالب لأنهم لم يكونوا يقلون كبرياء عن ليرمنتوف، والفرق بينه وبينهم هو أنهم لم يكونوا يجرؤون على الجهر بذلك، لأنهم لم يكونوا يدركون أن كلمة فخور تتخلص من الابتذال وتصبح كلمة روحية نبيلة إذا تمّ النطق بها كما يجب. وهكذا عبّروا للطالب عن عرفانهم لأنه أسدى لهم نصيحة طيبة، بل كان منهم -وهو فرلين على الأرجح- من صفّق له.

غوته يحول كريستين إلى ملكة

كان الطالب جالسا، فالتفت إليه غوته وابتسم له ابتسامة ودودة: «يا بني لاشك أنك تعرف معنى الشعر.»

وغرق الآخرون في نقاشاتهم السكرى، فألفى الطالب نفسه وحيدا أمام الشاعر الكبير. كان يودّ اغتنام هذه الفرصة الثمينة، لكنه لم يكن يدري ما يقول. وبما أنه كان يبحث جدّيا عن الجملة المناسبة -وكان غوته يكتفي بالابتسام له- فإنه لم يجد شيئا، واكتفى هو الآخر بالابتسامة، لكن ذكرى كريستين هرعت لنجدته.

«في هذه الأيام أعاشر فتاة، بل امرأة متزوجة من جزار.» راق هذا لغوته كثيرا، فأجاب بضحكة ودودة جدا. «إنها تبجلك. لقد أعطتني أحد دواوينك لكي توقّعه لها.» فقال غوته: «هاته»، ثم أخذ الكتاب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من يد الطالب، وفتحه على صفحة العنوان قائلا: «حدثني عنها، كيف هي؟ أهي جميلة؟»

لم يستطع الطالب الكذب على غوته، فاعترف بأن زوجة الجزار لم تكن جميلة. ومما زاد الطين بلة أنها كانت لابسة في ذلك اليوم بشكل مضحك. وأنها قضت النهار في التجوال في براغ بلآلئ ضخمة حول عنقها وحذاء سهرة أسود لم يعد أحد ينتعل مثله منذ زمن بعيد.

كان غوته ينصت للطالب باهتمام صادق، وقال بما يشبه الحنين: «هذا عجيب.» ثم جازف الطالب وقال إن لزوجة الجزار سنّا من الذهب تلمع في ثغرها مثل ذبابة مذهّبة. وببالغ التأثر صحح غوته ضاحكا: «مثل خاتم»، فردّ الطالب: «مثل منارة»، فأضاف غوته مبتسما: «مثل نجمة».

ومضى الطالب يشرح بأن زوجة الجزار كانت في الحقيقة ريفية، عادية تماما، وأن هذا هو ما شدّه إليها أكثر. فقال غوته: «إنني أفهمك جيّدا. فما يجعل المرأة حيّة وحقيقية هي تحديدا هذه التفاصيل: زينة أسيء اختيارها، عيب ضئيل في الأسنان، تفكيرها سطحي ساحر. إن نساء الملصقات ومجلات الموضة، اللواتي تجتهد جميع النساء في تقليدهنّ اليوم، تفتقرن إلى الجاذبية، لأنهن غير واقعيات، ولأنهن لسن سوى نتاج تعليمات مجردة. لقد أنجبتهن آلة أوتوماتيكية ولم ينجبهن جسد إنساني! وأؤكد لك يا صديقي أن ريفيتك هي ما يلزم الشاعر، وأهنئك على هذا!»

ثم عكف على صفحة العنوان، وأخذ قلمه ومضى يكتب. سوّد صفحة كاملة، وكان يكتب بحماس وقد غشته ما يشبه الرعدة، فشعّ في وجهه بريق حب وتفهّم.

استعاد الطالب الكتاب، فاحمرت وجنتاه فخرا. كان ما كتبه غوته لتلك المرأة المجهولة جميلا وحزينا؛ مثيرا للحنين وشهواني؛ حكيما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ومرحا. كان الطالب واثقا من أن مثل هذا الكلام لم يسبق أن حظيت به امرأة قط، فتذكر كريستين، واشتهاها للغاية. كان الشعر قد ألقى على لباسها المضحك معطفا منسوجا من كلمات رفيعة. لقد جعل منها ملكة.

حمل الشاعر

دخل النادل إلى الصالون، لكنه هذه المرة لم يكن يحمل قنينة جديدة، بل طلب من الشعراء الاستعداد للانصراف، لأن عليه أن يغلق المبنى بعد لحظات، وهدّدت حارسة الباب بإغلاق الباب عليهم بالمفتاح، وتركهم حتى الصباح هناك.

اضطرت إلى ترديد هذا التنبيه مرات عديدة، بصوت مرتفع تارة وهادئ تارة أخرى، للجميع مرة ولكل واحد على حدة مرة أخرى، ففهم الشعراء بأن البوابة لا تمزح. وتذكر بترارك فجأة زوجته بثوب الحمام الأحمر، فغادر الطاولة كما لو تلقى ركلة في مؤخرته.

عندئذ قال غوته بحزن شديد: «اتركوني هنا يا أصدقائي، أودّ البقاء هنا.» كان عكازاه مسنودين إلى الطاولة بجانبه، وكان على الشعراء إقناعه بمرافقتهم، أما هو فاكتفى بالإجابة بتحريك رأسه.

كانوا كلهم يعرفون امرأته. إنها امرأة شريرة وقاسية، وكانوا يخشونها ويعلمون أنها ستعاقبهم جميعا إن لم يعد غوته إلى بيته في الموعد، لذلك توسلوا إليه قائلين: «يا يوهان، كن عاقلا، ينبغي أن تعود إلى بيتك!»، ثم أخذوه برفق من إبطيه، وحاولوا رفعه عن الكرسي، إلا أن ملك الأولمب كان ثقيلا، وكانت أذرعهم فاترة، فقد كان يكبرهم بثلاثين سنة على الأقل، وكان في مقام أبيهم، لكنهم فجأة، وفي الوقت الذي كانوا يرفعونه لوضع العكازتين تحت إبطيه،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شعروا جميعا بالارتباك والضآلة، في حين استمر هو في ترديد رغبته في البقاء هنا!

لم يوافق أحد منهم على ذلك، باستثناء ليرمنتوف الذي اغتنم الفرصة ليكون أمكر من الآخرين إذ قال: «اتركوه هنا يا رجال، سأبقى معه حتى الصباح. ألا تفهمونه إذن؟ لمّا كان شابا كان يقضي أسابيع كاملة خارج البيت. إنه يريد استرجاع شبابه! ألا تفهمون هذا أيها البلداء؟ أليس كذلك يا يوهان؟ سوف نتمدد هنا على السجاد، ونبقى حتى الصباح مع قنينة الخمر الأحمر، أما هم فليذهبوا! وليهرول بترارك إلى زوجته في ثوبها الأحمر وشعرها المسدل!»

لكن ڤولتير كان يدرك أن ما يشدّ غوته ليس الحنين إلى الشباب. فقد كان غوته مريضا، وكان ممنوعا من شرب الخمر، ذلك أنه حين يشرب، ترفض قدماه حمله. فاستحوذ ڤولتير على العكازين، وحثّهم على التخلي عن هذا الحياء المبالغ فيه. وهكذا عمدت أذرع الشعراء الواهنة إلى حمل غوته من إبطيه، ورفعه من الكرسي، ثم توجهوا به من القاعة نحو الردهة، أو بالأحرى جرجروه (إذ كانت قدماه تلامسان الأرض تارة، وتارة أخرى تتأرجحان كقدمي صبي يؤرجحه أبواه)؛ إلا أن غوته كان ثقيل الوزن، وكان الشعراء سكارى. وما كادوا يبلغون الردهة حتى تركوه يسقط، فصرخ باكيا: «اتركوني أموت هنا يا أصدقائي!»

أصيب ڤولتير بنوبة غضب فصرخ في الشعراء أن يحملوا غوته فورا، وشعر هؤلاء بالخجل، فسحبوه، بعضهم من يديه وبعضهم الآخر من رجليه، ورفعوه، وما كادوا يتجاوزون باب النادي حتى توجهوا به إلى السلم. كانوا يحملونه جميعا، كان ڤولتير يحمل، وبترارك يحمل، وبوكاس يحمل، وحتى إيسينين المترنح كان يتمسك برجل غوته مخافة أن يسقط.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الطالب أيضا عمد إلى المساعدة في حمل الشاعر الكبير، لأنه كان يدرك أن فرصة كهذه لا تتاح إلا مرة في الحياة، لكن محاولته كانت بلا جدوى، لأن ليرمنتوف كان يحبه كثيرا. فقد كان يمسك بذراعه، ويجد دائما ما يقوله له.

«هم ليسوا غير نبهاء فقط، بل هم حمقى أيضا. هم كلهم أطفال مدللون، انظر كيف يحملونه! سيتركونه يسقط! لم تشتغل أيديهم قط. أتعلم أنني اشتغلت في مصنع؟»

(لا ننس أن كل أبطال هذا الزمان وهذا البلد مرّوا من المصنع، إما طوعا بدافع الحماس الثوري، أو قسرا بفعل العقاب. وهم في الحالتين معا فخورون بذلك، لأنهم تخيّلوا أن قساوة الحياة في المصنع، هذه الإلهة النبيلة، طبعت قبلة على جباههم.)

حمل الشعراء عميدهم عبر السلم وهم يمسكونه من الذراعين والرجلين. كان قفص الدرج مربعا، وفيه التواءات ذات زوايا قائمة أخضعت رشاقتهم وقوتهم لامتحان عسير.

وتابع ليرمنتوف: «أتفهم يا صديقي ما معنى أن تحمل عرائض من حديد؟ أنت لم يسبق لك أن حملتها، ولا حتى هؤلاء. انظر كيف يحملونه ببلادة! سوف يسقطونه أرضا!» ثم التفت إلى الشعراء وصاح فيهم: «أمسكوه جيدا أيها الأغبياء، ستسقطونه أرضا! أنتم لم تشتغلوا قط بأيديكم!» ثم تعلق بذراع الطالب، ونزل السلم ببطء في إثر الشعراء المترنحين الذين يحملون غوته بقلق وقد بدا وزنه أثقل فأثقل. وصلوا أخيرا بعبئهم إلى الرصيف، في الأسفل، فأسندوه إلى مرآة عاكسة. كان بوكاس وبترارك يدعمانه حتى لا يسقط، أما ڤولتير فنزل إلى قارعة الطريق مشيرا إلى السيارات بالتوقف، لكن لم تتوقف أي منها، فقال ليرمنتوف للطالب: «أتدرك جيدا ما ترى؟ أنت ما تزال طالبا، ولا تفهم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من الحياة شيئا. إن هذا المشهد لعظيم! إنهم يحملون شاعرا. أتدري أي قصيدة يمكن أن يوحي بها هذا؟»

وفي هذه الأثناء جلس غوته على الرصيف، فحاول بترارك وبوكاس إيقافه من جديد. وقال ليرمنتوف للطالب: «إنهما عاجزان حتى عن رفعه، لأن أيديهما موهنة، وليست لهما أي فكرة عن ماهية الحياة. حمل الشاعر، يا له من عنوان رائع. أتفهم، إنني في هذه الأيام بصدد كتابة ديوانَيْ شعر. ديوانان مختلفان تماما. شكل الأول تقليدي صارم، يحترم القافية والوزن. أما الثاني فحُرّ، سأعنونه بـ«تقارير». وسأسمي القصيدة الأخيرة من هذا الديوان **الشاعر المحمول**، وستكون قصيدة متينة، لكنها ستكون أيضا فخمة.»

وكانت هذه هي الكلمة الثالثة التي ينطقها ليرمنتوف بالحرف المائل. وهذه الكلمة كانت تعبر عن كل ما تعنيه الزخرفة. وتدل على ما يناقض أحلام بترارك وفكاهات بوكاس. كانت تعبر أيضا عن الجانب العاطفي في الشغل العمالي وعن الإيمان الشغوف بإلهة قساوة الحياة المشار إليها سابقا.

رابض فيرلين الذي أسكره الهواء الليلي وسط الرصيف، وراح ينظر إلى النجوم ويغني. أما إيسينين فجلس مسندا ظهره إلى جدار العمارة، ونام. واستمر ڤولتير يشير بيده في قارعة الطريق، ونجح أخيرا في إيقاف تاكسي. بعد ذلك نجح بمساعدة بوكاس في وضع غوته في المقعد الخلفي، ثم صاح في بترارك كي يركب في المقعد الأمامي بجوار السائق، لأن بترارك كان الوحيد الذي يستطيع مداهنة السيدة غوته، غير أن بترارك امتنع عن ذلك قائلا بغضب: «لماذا أنا! لماذا أنا! أنا خائف!» فقال ليرمنتوف للطالب: «أرأيت، عندما يتطلب الأمر مساعدة الأصدقاء فإنه يتملّص. لا أحد يجرؤ على الكلام مع زوجة غوته العجوز»، ثم انحنى إلى داخل السيارة حيث كان غوته

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وبوكاس وڤولتير متكدسين في المقعد الخلفي، وقال: «سآتي معكم يا رفاق، سأتكلف بالزوجة العجوز»، ثم جلس في المقعد الفارغ بجانب السائق.

بترارك يشجب ضحك بوكاس

توارت التاكسي التي تحمل الشعراء، فتذكر الطالب أن الوقت قد حان للحاق بالسيدة كريستين، ثم قال لبترارك: «ينبغي أن أعود إلى بيتي»، فوافقه بترارك، وأمسك بذراعه ودلف به في الاتجاه المعاكس لاتجاه مسكنه، ثم قال له: «أتدري أنك فتى مرهف الإحساس. لقد كنت الوحيد الذي استطاع الاستماع لما يقول الآخرون»، فتابع الطالب: «انتصبت تلك الفتاة في وسط الغرفة مثل «جاندارك» التي تحمل رمحها، أستطيع أن أكرر على مسامعك بدقة كل ما قلت»

- ثم إن أولئك السكارى لم يسمعوا كلامي حتى النهاية! أكانوا يحفلون بشيء غير أنفسهم؟

- أو عندما قلت بأن زوجتك خشيت أن تقتلك تلك الفتاة، فاقتربت منها، وغمر نظرتها سلام سماوي، وكان ذلك أشبه ما يكون بمعجزة.

- آه يا صديقي، الحقيقة إنك أنت الشاعر! أنت وليس هم!

وأمسك بترارك بذراع الطالب ومضى يقوده نحو ضاحيته النائية.

وسأله الطالب: «كيف انتهت الحكاية؟»

- زوجتي أخذتها الرأفة بها، فسمحت لها بأن تمضي الليلة عندنا. ولكن أتتصور! كانت حماتي تنام في غرفة أشبه ما تكون بغرفة مهملات خلف المطبخ، وهي تصحو باكرا جدا. فلما لاحظت أن زجاج النوافذ كلّها كان مهشما، ذهبت إلى زّجاجين كانوا يشتغلون بالصدفة في الشقة المجاورة، فلما صحونا في الصباح، كان زجاج كل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

النوافذ مثبتا في مكانه، ولم نجد أثرا للأحداث التي وقعت بالأمس. وتهيأ لي أنني كنت أحلم.

فسأله الطالب: «والفتاة؟»

- هي أيضا غادرت الشقة دون أن نشعر بها في الصباح الباكر.

وفي هذه اللحظة توقف بترارك وسط الشارع، وحدج الطالب بنظرة تكاد تكون قاسية: «أتعلم يا صديقي، سيؤلمني كثيرا أن تؤوّل حكايتي مثل نادرة من نوادر بوكاس التي تنتهي في السرير. ينبغي أن تدرك أن بوكاس أبله. إنه لا يفهم أحدا أبدا، لأن الفهم يقتضي الامتزاج والتماهي، وهذا هو سر الشعر. إننا نفنى في المحبوبة، ونفنى في الفكرة التي نؤمن بها، ونحترق في المنظر الذي يثيرنا.»

كان الطالب ينصت لبترارك باهتمام، وتراءت له صورة كريستين التي كان يخامره الشك في جمالها قبل ساعات. وهو يشعر الآن بالخجل من شكوكه تلك، لأنها تنتمي للجزء (البوكاسي) السيئ من كيانه، تلك الشكوك التي لم تكن نابعة من قوته، بل من ضعفه. وهذا يشكل دليلا على أنه عاجز عن الانغماس في الحب بكل كيانه، ودليلا أيضا على أنه كان يخشى الحلول في المحبوبة.

لقد قال بترارك: «الحب والشعر، والشعر والحب»، وتعهد الطالب بالإخلاص في حب كريستين حبا ملتهبا وجليلا. فقبل قليل أضفى غوته على كريستين مسوحا ملكية، وها هو بترارك يضرم النار في قلب الطالب. وبهذا يكون شاعران قد باركا ليلته المنتظرة.

وتابع بترارك: «وبخلاف ذلك، إن الضحك انفجار ينتزعنا من العالم، ويقذف بنا في عزلة باردة. فالمزاح يشكل حاجزا بين الإنسان والعالم، ومن ثمة فهو يعادي الحب والشعر. لهذا أقول لك مرة ثانية، وأودّ أن تذكر ما أقول: إن بوكاس لا يفهم الحب، لأن الحب ليس

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مدعاة للضحك. فلا شيء يجمع بين الحب والضحك.

- أجل، قال الطالب بحماس. وتراءى له العالم مشطورا إلى قسمين، أحدهما للحب والآخر للمزاح، وأدرك أنه ينتمي وسينتمي إلى جيش بترارك.

الملائكة تحلق فوق مضجع الطالب

لم تكن تذرع السقيفة جيئة وذهابا، ولم تكن غضبى ولا عابسة، كما أنها لم تكن تنتظر بفارغ الصبر في النافذة المشرعة، بل كانت نائمة وقد ارتدت قميص نومها، ملتفة على نفسها تحت الغطاء. أيقظها الطالب بقبلة على شفتيها، وحتى يتّقي عتابها، مضى يحكي لها بطلاقة مصطنعة عن السهرة العجيبة التي شهد فيها مواجهة مثيرة بين بوكاس وبترارك، والتي سبّ فيها ليرمنتوف بقية الشعراء. لم تُعِر كلامه اهتماما، بل قاطعته بارتياب: «أراهن على أنك نسيت الكتاب.»

ولما مدّ لها الديوان الشعري الذي خط عليه غوته إهداء طويلا، لم تكد تصدق عينيها. وقرأت مرات متعاقبة تلك الجمل العجيبة التي يبدو أنها تجسد مغامرتها العجيبة أيضا مع الطالب خلال الصيف السالف، بنزهاتها السرية في المسالك الغابَويّة المجهولة، وبكل اللطف والحنان اللذان يبدوان غريبين عن حياتها.

في أثناء ذلك، خلع الطالب ملابسه، وتمدد بجانبها على السرير. ضمته بين ذراعيها ضمة لم ير مثلها في حياته قط. كانت ضمة صادقة قوية وحارة وأمومية وأخوية وودية وولهة. لقد استعمل ليرمنتوف لفظة «صادق» مرات عديدة خلال السهرة، فخيّل للطالب أن عناق كريستين يستحق هذه الصفة الجامعة التي تحمل في طياتها مجموعة من النعوت.

وشعر الطالب بأن جسده كان مستعدا استعدادا كاملا للجماع،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

استعداد جعله يأبى كل عجلة، ولا يفعل شيئا سوى الالتذاذ باللحظات الطويلة والممتعة لهذه الضمة الساكنة.

غمست لسانا شهوانيا في فمه، ثم أخذت تقبل كل وجهه تقبيلا أخويا، فأخذ يداعب سنها الذهبية يسار فكها العلوي بطرف لسانه متذكرا ما قاله له غوته: إن كريستين لم تنجبها آلة أوتوماتيكية، بل أنجبها جسد إنساني! إنها المرأة التي تلزَم الشاعر! وكان بودّه أن يصيح من الفرح. وراحت تتردّد في ذهنه كلمات بترارك لما قال له إن الحب هو الشعر والشعر هو الحب، وأن فهم الآخر هو الامتزاج به والاحتراق فيه. (أجل كان الشعراء ثلاثتهم حاضرين معه هناك، كانوا يحلّقون فوق مضجعه كالملائكة، يبتهجون ويغنون ويباركونه!). غمر الطالب حماسٌ عارم، فأدرك أن الوقت قد حان لترجمة صدق تلك الضمة الهامدة إلى جماع حقيقي. انقلب على جسد كريستين، وحاول المباعدة بين ساقيها بركبته. غير أنها قاومته، إذ شدت ساقيها تماما مثلما كانت تفعل في الصيف الفارط خلال نزهاتهما في الغابة.

ودّ لو يسألها عن السبب، لكنه لم يكن يستطيع الكلام. فقد كانت السيدة كريستين شديدة الحياء، ومرهفة بحيث تفقد أمورُ الجماع بحضرتها أسماءها. ولم يكن بوسعه أن يتحدث سوى لغة اللهاث واللمس. فماذا عساهما يفعلان بجاذبية الكلمات؟ ألم يكن يحترق فيها؟ لقد كانا يتّقدان معا بنفس الشعلة! إذن راح الطالب في هذا الصمت المطبق يعيد الكرة بركبته لفتح ساقي كريستين المغلقتين بإحكام.

التزمت الصمت هي أيضا، وهي أيضا كانت تخشى الكلام وتعبّر بالتقبيل والمداعبة. لكنها عند المحاولة الخامسة والعشرين لفتح ساقيها، قالت له: «لا أرجوك، سيقتلني ذلك»

- كيف؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

«سيقتلني، حقا سيقتلني»، كررتها ثم غمست لسانها في فمه عميقا من جديد، وهي تشد فخذيها بقوة.

شعر الطالب بيأس ممزوج بالغبطة. كان يحترق رغبة في مضاجعتها، لكنه في الوقت نفسه كان يشعر بالرغبة في البكاء من الفرح، لأن كريستين تحبه كما لم يسبق أن أحبته امرأة من قبل. إنها تحبه حدّ الموت، تحبه لدرجة الخوف من مضاجعته، لأنها لو ضاجعته، لما أمكنها العيش بدونه، وستموت حزنا وشوقا. غمره فرح عارم، لأنه بلغ فجأة، ودون جهد، ما كان يأمله منذ وقت طويل. لقد نال هذا الحب اللانهائي الذي لا يساوي العالم بكل قاراته وبحاره أمامه شيئا. فقال لها هامسا: «إنني أفهمك! ومستعد للموت معك!»، ومضى يلامسها ويقبلها، حتى إنه كاد يبكي عشقا. وما كان لهذا الحنان الغامر أن يطفئ جذوة الشهوة التي عادت مؤلمة وغير محتملة، فأعاد الكرة مرة أخرى لعله يسلك ركبته بين فخذي كريستين، فيفتح بذلك الطريق إلى فرجها الذي صار فجأة بالنسبة إليه أشد إلغازا من القديس «غرال»(*).

فقالت له: «أنت لن يحدث لك شيء، أنا من سيُميتني ذلك!» وجعله هذا يتصور لذة لا نهائية، لذة حتى الموت، فكرر ثانية: «سنموت معا! سنموت معا!»، وواصل دفع ركبته بين فخذيها، ولكن بلا جدوى.

لم يبق لهما ما يقولانه، والتصق جسداهما، ومضت كريستين تهز رأسها بينما راح هو يواصل هجومه على قلعة فخذيها قبل أن يحجم

(*) تدل «غرال» (Graal) في أصلها اللغوي على إناء كبير مقعر، أما في العرف المسيحي فيدل في القرون الوسطى على كأس ذات قدرات سحرية. فهي تمثل سر المسيحية الذي يمكّن الحصول عليه من الكشف ورؤية نور المسيح.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عن ذلك نهائيا. واستلقى بجانبها على ظهره مستسلما. أمسكت بصولجانه المنتصب على شرفها، وشدته بصدق وأمانة وودّ وأمومة وصداقة وشهوانية.

اختلطت على الطالب غبطة الرجل المعشوق بيأس الجسد المصدود. وظلت زوجة الجزار تمسك بإحليله دون أن تفكر في استبدال الفعل الشهواني الذي يرغب فيه بحركات بسيطة، بل ظلت كما لو كانت تمسك بين يديها شيئا ثمينا ونادرا، شيء تحرص على ألا تُتلفه، وعلى أن تحتفظ به صلبا ومنتصبا.

لكن كفى من هذه الليلة التي امتدت طويلا حتى الصباح تقريبا دون تغيّر يذكر.

ضوء الصباح المتسخ

بما أنهما ناما في وقت متأخر من الليل، لم يستيقظا حتى الظهر، وشعرا معا بألم في رأسيهما، ولم يكن أمامهما كثير من الوقت، لأن كريستين ستستقلّ القطار إلى قريتها. ظلا صامتين، ولمّت كريستين قميص نومها وكتاب غوته في حقيبتها، وها هي من جديد جاثمة على حذائها الأسود المضحك وقد وضعت حول عنقها عقدها الغريب.

وبدا كما لو أن ضوء الصباح المتسخ قد حطم خاتم الصمت، وكما لو أن ليلة الشعر قد تلاها نهار من النثر، فقالت السيدة كريستين للطالب ببساطة وتلقائية: «أتدري، لا ينبغي أن تلومني، قد يتسبب ذلك في موتي حقّا. لقد قال لي الدكتور بعد وضع مولودي الأول إن عليّ أن أتخذ حذري حتى لا أحبل مرة ثانية.»

نظر إليها الطالب بيأس وقال: «كما لو أنك ستحبلين مني! من تحسبينني؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

– هذا ما يقوله كل الرجال، هم واثقون من أنفسهم دائما. أعرف ما وقع لصديقاتي. الشبان مثلك خطيرون جدا، وعندما تقع الواقعة، لا شيء يجدي.

وشرح لها بصوت يائس بأنه ليس غرّا، وأنها لن تحبل منه أبدا، «ينبغي ألا تعتبريني مثل عشاق صديقاتك!»، فردّت عليه بنبرة حاسمة تكاد توحي بالاعتذار: «أعلم». فلم يعد الطالب في حاجة إلى المضي في إقناعها. لقد صدّقته. فهو ليس فلاحا، وهو يعرف أمور الحب أفضل من كل ميكانيكيي العالم بأسره. ولعلها أخطأت خلال الليل حين قاومت رغبته، عدا أنها لم تندم على ذلك، إذ إن ليلة حبّ مصحوبة بعناق قصير (لا يمكن للحب الجسدي في اعتقاد كريستين إلا أن يكون قصيرا وعابرا) تترك في نفسها دائما انطباعا جميلا، لكنه في الآن نفسه خطيراً وخادعاً. فما عاشته مع الطالب كان أفضل ما خبرت في حياتها على الإطلاق.

رافقها إلى محطة القطار، وكانت مبتهجة لفكرة أن تجلس في المقصورة وتتذكر. وأخذت تكرر في ذهنها، بمهارة النساء البسيطات، أنها عاشت شيئا لا يستطيع أحد انتزاعه منها. فقد أمضت ليلة مع شاب كان يبدو لها بعيدا، منفلتا، وغير واقعي؛ وباتت ممسكة بعضوه المنتصب ليلة بكاملها. أجل، ليلة بكاملها! وهو أمر لم يسبق لها أن عاشته من قبل. وغمرتها السعادة لأنها ستحتفظ منه بشيء دائم ألا وهو كتاب غوته، والإهداء العجيب الذي سيقنعها في كل لحظة بأن مغامرتها لم تكن حلما.

أما الطالب، فداخَلَه اليأس. فقد كان يكفيه من هذه الليلة جملة واحدة متبصرة! كان يكفيه أن يسمي الأشياء بمسمياتها الحقيقية حتى ينالها! كانت تخشى أن تحبل منه، أما هو فاعتقد أنها إنما كانت تخشى الحب الغامر الذي تكنّه له. ظل يحدق في عمق بلاهته، وانتابته رغبة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في الصياح والضحك، ضحك دامع وهستيري، ثم قفل راجعا إلى صحرائه المقفرة التي لا حُبّ فيها، وقد عادت الليتوست.

ملاحظات جديدة حول نظرية الليتوست

لقد شرحت من خلال مثالين مستمدين من حياة الطالب ردَيْ فعل الإنسان الأساسيين نحو الليتوست الخاصة به. فإذا كان النظير أضعف منا، لا نعدم ذريعة للإساءة إليه، مثلما أساء الطالب للطالبة التي تسبح أفضل منه.

أما إذا كان النظير أقوى منا، فلا يبقى لنا إلا أن نختار الثأر منه بطريقة ملتوية، أو صفعه بكيفية غير مباشرة، أو اغتياله عن طريق الانتحار. فالطفل يعزف اللحن خاطئا على كمانه حتى يُجنّ الأستاذ، فيرمي به من النافذة، ويسقط مبتهجا بكون الأستاذ الشرير سيُتّهم بالقتل.

إنهما منهجان كلاسيكيان. وإذا كان الأول شائع في حياة العشاق والأزواج، فإن ما يصطلح على تسميته بالتاريخ العظيم للإنسانية يقدم العديد من النماذج للمنهج الثاني. والغالب أن ما سمّاه أساتذتنا باسم البطولة لا يعدو كونه شكلا من أشكال هذه الليتوست التي مثلت لها بحكاية الولد وأستاذ الكمان. فعندما غزا الفُرس آسيا الصغرى، مضى الاسبارطيون يراكمون الأخطاء العسكرية. ومثلما يرفض الطفل العزف الصحيح، فقد أعمتهم هم أيضا دموع الغضب الشديد، فظلوا يُحجمون عن كل مبادرة حكيمة، حتى أصبحوا غير قادرين لا على القتال، ولا على الاستسلام، ولا على الخلاص بالفرار. وهكذا لقوا حتفهم جميعا بالليتوست.

وفي السياق ذاته تبادر إلى ذهني أن فكرة الليتوست لم تنشأ في بوهيميا مصادفة. ذلك أن تاريخ التشيكيين ما هو إلا تاريخ الليتوست.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فهو تاريخ التمرد الدائم ضد الأقوى. إنه سلسلة من الهزائم المجيدة التي اهتزت لها مسيرة التاريخ، وقادت الشعب إلى الكارثة. ففي شهر غشت (آب) من سنة 1968، عندما احتلت آلاف الدبابات الروسية هذا البلد الصغير والعجيب، رأيت هذا الشعار مكتوبا على جدران إحدى المدن: لا نريد مساومة، نريد النصر! تفهمون ولا شك أن الاختيار لم يكن في تلك اللحظة إلا بين بدائل متعددة من الهزيمة، لكن هذه المدينة كانت ترفض المساومة وتنشد النصر! وكانت الكلمة هنا للّيتوست! لأن الإنسان المهووس بها يثأر من خلال فنائه. سيتهشم الطفل على الطوار، لكن روحه الخالدة ستتمتع إلى الأبد بالمصير الذي سيؤول إليه الأستاذ.

لكن، كيف السبيل لأن يسيء الطالب لكريستين؟ وقبل أن يتدبر الأمر، كانت قد ركبت القطار. والمنظّرون يتحدثون عن وضع مشابه، ويؤكدون أن الأمر يتعلق بما يسمونه انحصار الليتوست.

وهذا هو أسوأ ما يمكن وقوعه. فليتوست الطالب صارت مثل ورم لا يتوقف عن الانتفاخ، فلم يعد يدري كيف يتصرف معها. ولما لم يجد أحدا يسقط عليه انتقامه، فقد مضى ينشد العزاء، ولعل هذا ما جعله يذكر ليرمنتوف. تذكر ليرمنتوف الذي هاجمه غوته وأهانه ڤولتير، فواجههما معا بإعلان فخره، كما لو كان الشعراء المحيطين بالطاولة مجرد أساتذة كمان أمعن في استفزازهم لعلهم يلقون به من النافذة.

تشوق الطالب لليرمنتوف كما يتشوق المرء لأخيه، فأدخل يده في جيبه. تحسست أصابعه ورقة كبيرة مطوية. كانت ورقة منزوعة من دفتر كتب عليها: «أنتظرك. أحبك. كريستين. منتصف الليل.»

فهم ذلك. فالبذلة التي ارتداها كانت معلقة بالأمس على مشجب في سقيفته. وأكدت له هذه الرسالة المكتشفة بعد فوات الأوان ما كان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يعرفه. لقد فوّت على نفسه فرصة التمتع بجسد كريستين بسبب بلادته. وهكذا فاضت الليتوست وغمرته، ولم يجد منها مفرّا.

في أعماق اليأس

في وقت متأخر من الظهيرة قال في نفسه إن الشعراء لا بد أن يكونوا قد استيقظوا من نومهم بعد ليلتهم الصاخبة، وربما كانوا في نادي رجال الأدب. ارتقى الدرج إلى الطابق الأول أربعا أربعا، وعبر غرفة الملابس، ثم اتجه يمينا إلى المطعم. وبما أنه لم يكن من رواده، وقف عند العتبة ونظر إلى الداخل. كان ليرمنتوف وبترارك جالسَيْن إلى طاولة في عمق القاعة، وكان معهما شخصان لا يعرفهما، وكانت بالقرب منهما طاولة فارغة، فجلس إليها. لم ينتبه إليه أحد، بل خيّل إليه أن ليرمنتوف وبترارك نظرا إليه بشرود لثانية دون أن يتعرفا إليه. طلب من النادل كأس كونياك، وفي ذهنه كان يتردد نص رسالة كريستين البالغ الحزن والجمال «أنتظرك. أحبك. كريستين. منتصف الليل.»

ظل على هذه الحال ما يقارب من عشرين دقيقة، يرتشف الكونياك جرعات صغيرة. ولم تكن رؤية بترارك وليرمنتوف لتسرّي عنه، بل بثت في نفسه حزنا جديدا. فشعر بأن الجميع تخلى عنه: تخلت عنه كريستين كما تخلى عنه الشعراء. شعر بالوحدة هناك، ليس له من رفيق سوى ورقة كبيرة كتب عليها: «أنتظرك. أحبك. كريستين. منتصف الليل.» وراودته رغبة في أن يقوم ويلوّح بالورقة ليراها كل الحاضرين، وليعلموا أنه هو الطالب المحبوب، المحبوب للغاية.

نادى النادل، وسدّد ما عليه، ثم أشعل سيجارة. لم يعد يطيق البقاء في النادي، لكنه لم يكن يريد أيضا العودة إلى سقيفته حيث لا توجد امرأة في انتظاره. سحق سيجارته في المرمدة، وعندها لاحظ بأن بترارك قد رآه، وأنه يومئ له بالالتحاق به، كان الأوان قد فات،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لأن الليتوست كانت قد طردته من النادي إلى وحدته الحزينة. قام، وفي اللحظة الأخيرة قبل انسحابه، أخرج ثانية من جيبه الورقة التي كتبت عليها كريستين رسالة حبها. لم تعد هذه الورقة تشعره بأي فرح، لكنه لو تركها هنا على الطاولة، ربما لاحظ أحد وجودها، فيكتشف أن الطالب محبوب للغاية، وتوجّه إلى الباب مغادرا.

مجد مفاجئ

سمع الطالب خلفه صوتا يناديه: «يا صديقي!»، فالتفت، فإذا بترارك يشير له مقتربا «أأنت ذاهب الآن؟»، واعتذر له عن كونه لم يره عند دخوله المطعم. «عندما أشرب، أصير شديد الخجل في اليوم اللاحق...»

وشرح الطالب بأنه لم يكن يريد إزعاجه لأنه كان مع أشخاص لا يعرفهم. فقال بترارك للطالب «إنهما مغفّلان»، وتوجها إلى الطاولة التي كان الطالب قد غادرها لتوه. وراح الطالب ينظر إلى الورقة الكبيرة الموضوعة بإهمال. وتمنى لو كانت ورقة صغيرة غير بارزة، لكن هذه الورقة الكبيرة بدت تفضح بشكل صارخ النوايا الخرقاء لمن تظاهر بنسيانها.

وسرعان ما لاحظ بترارك بعينيه السوداوين الدوارتين في وجهه والفضوليتين الورقة، فتفحصها متسائلا: «ما هذا؟ أعتقد أنها لك يا صديقي!»

حاول الطالب بطريقة خرقاء أن يغالب ارتباك امرئ توانى في حفظ رسالة سرية، ثم حاول انتزاعها من يدي بترارك، غير أن بترارك كان بصدد قراءة مضمونها بصوت عال «أنتظرك. أحبك. كريستين. منتصف الليل.» نظر إلى عيني الطالب، ثم سأل: «أي منتصف ليل؟ آمل ألا يكون منتصف ليلة أمس!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أحنى الطالب عينيه، وأجاب «بلى»، ولم يعمد إلى انتزاع الورقة من يد بترارك. لكن في هذه الأثناء كان ليرمنتوف يقترب من طاولتهما بقائمتيه القصيرتين، ومدّ يده إلى الطالب قائلا: «أنا مسرور برؤيتك. هذان الرجلان، مشيرا إلى الطاولة التي غادرها، غبيان حقّا ومفزعان...» ثم جلس.

وعلى الفور راح بترارك يتلو عليه نص رسالة كريستين، قرأها مرات متتابعة بصوت مسموع وجهوري كما لو كانت أبيات شعر. وهذا يدفعني إلى التفكير في أنه حين لا يكون بإمكاننا توجيه صفعة إلى فتاة تسبح بطريقة أسرع، ولا الموت على أيدي الفُرْس؛ أي عندما لا يكون أمامنا مجال للإفلات من الليتوست، عندها تهرع رشاقة الشعر لإنقاذنا.

فماذا تبقى من هذه الحكاية الفاشلة؟ لم يتبق إلا الشعر، كلمات رسمها غوته على كتابه، وكلمات حملتها كريستين معها، وكلمات مسطورة على ورقة أشعرت الطالب بمجد لم يكن منتظرا.

وقال له بترارك وهو يمسك بذراعه: «يا صديقي، اعترف بأنك تنظم شعرا، اعترف بأنك شاعر!»

خفض الطالب عينيه وافق على قول بترارك.

وظل ليرمنتوف وحيدا

ما جاء بالطالب إلى نادي رجال الأدب هو لقاء ليرمنتوف، ولكن منذ هذه اللحظة أصبح تائها عنه، وغدا ليرمنتوف بدوره تائها عن الطالب، ذلك أن ليرمنتوف يمقت العشاق السعداء. قطب حاجبيه وتكلم بازدراء عن شعر الأحاسيس الرهيفة والكلمات الكبيرة، وقال بأن على الشاعر أن يكون صادقا مثل شيء تفننت يد الصانع في صنعه. امتقع وجهه، وصار بغيضا مع بترارك والطالب. ونحن نعلم جيدا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سبب ذلك، مثلما يعلمه غوته. فهو لم ينكح منذ زمن بعيد، مما أشعره بليتوست عدم النكاح.

ومن يستطيع فهمه أكثر من الطالب؟ غير أن هذا الأبله الفاسد لا يرى من ليرمنتوف سوى الوجه القاتم، ولا يسمع من كلامه إلا المؤذي، فينتابه شعور بالإهانة.

وأنا، الموجود بفرنسا، أنظر إليهم من بعيد من أعلى برجي. قام بترارك والطالب ببرود تاركين ليرمنتوف وحيدا.

عزيزي ليرمنتوف، أنت عبقري هذا الألم المسمّى الليتوست في بوهيميا الحزينة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

الجزء السادس

الملائكة

1

في شهر فبراير من عام 1948 وقف الزعيم الشيوعي «كليمان غوتوالد» بشرفة قصر من العصر الباروكي من قصور براغ ليخطب في مئات الآلاف من المواطنين المتجمهرين في ساحة المدينة القديمة. كان هذا منعطفا حاسما في تاريخ بوهيميا. كان الثلج يسقط والبرد قارص، وكان «غوتوالد» عاري الرأس، وبعناية كبيرة نزع «كليمانتس» قبعته الفرو ووضعها على رأس «غوتوالد».

لم يكن «غوتوالد» ولا «كليمانتس» يعلمان أن «فرانز كافكا» ظل يصعد يوميا، ولمدة ثماني سنوات، السلّم الذي صعداه لبلوغ الشرفة التاريخية؛ وذلك لأن هذا القصر كان مدرسة ثانوية ألمانية أيام حكم الإمبراطورية النمساوية الهنغارية. كما أنهما لا يعلمان أن والد «فرانز»، «هرمان كافكا»، كان يملك متجرا في الطابق الأرضي لهذه البناية، وكانت لافتة المتجر عبارة عن صورة غراب كتب بجانبها اسمه، لأن لفظة «كافكا» تعني بالتشيكية الغراب.

وإذا كان «غوتوالد» و«كليمانتس» والآخرون يجهلون كل شيء عن «كافكا»، فقد كان «كافكا» يعرف جهلهم به. فبراغ في رواياته مدينة بلا ذاكرة، بل هي مدينة نسيت اسمها. فلا أحد هناك يذكر شيئا. فحتى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جوزيف «كافكا» يبدو كما لو كان لا يعرف شيئا عن حياته السابقة. لا يمكن أن تسمع أغنية هناك تُذكّر المرء بلحظة ميلاده، وتربط بذلك بين ماضيه وحاضره.

إن زمن رواية «كافكا» هو زمن إنسانية فقدت صلتها بالإنسانية. إنسانية لا تعرف شيئا، ولا تذكر شيئا؛ تسكن مدنا ليس لها اسم، وشوارعها لا اسم لها، أو تحمل اسما غير اسمها في الماضي، لأن الاسم شكل من أشكال الاستمرارية في الماضي، والناس الذين لا ماضي لهم، هم أناس بلا اسم.

فبراغ، كما يقول «ماكس برود»، هي مدينة الشر. فقد حاول اليسوعيون بعد هزيمة الإصلاح التشيكي سنة 1621 تربية الشعب عبر تلقينه مبادئ الإيمان الكاثوليكي الحق، فأغرقوا المدينة بفخامة الكاتدرائيات الباروكية. إن هؤلاء الألوف من القديسين المتحجرين الذين يرمقونك من كل جانب، ويهددونك ويراقبونك ويسحرونك، هم الجيش المحتل المسعور الذي غزا بوهيميا منذ ثلاثمائة وخمسين عاما ونزع من روح الشعب إيمانه ولغته.

يسمى الشارع الذي ولدت فيه تامينا شارع «شويرينوفا». كان ذلك أثناء الحرب، عندما استعمر الألمان براغ. وقد رأى والدها النور في جادة «تشيرنوكوستيليكا»، أي جادة الكنيسة السوداء، وكان ذلك في عهد الأمبراطورية النمساوية الهنغارية. واستقرت أمّها عند أبيها بجادة الماريشال «فوخ». وكان ذلك بعد حرب 14-18. وأمضت تامينا طفولتها في جادة ستالين، وأخذها زوجها من جادة «فينوهرادي» إلى بيتها الجديد. ومع أن الشارع بقي هو نفسه، وأن ما كان يتغير باستمرار هو اسمه. فقد دأبوا على غسل دماغه لإفساد ذاكرته.

الشوارع التي لا تَعرِف أسماءها تطوف فيها أطياف النُّصُب المقلوبة. النصب التي قلبها الإصلاح التشيكي، ثم قلبها الإصلاح

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المضاد النمساوي، ثم قلبتها الجمهورية التشيكوسلوفاكية، ثم قلبها الشيوعيون. فحتى تماثيل ستالين قلبت، إذ عوّضتها في بوهيميا اليوم الآلاف من تماثيل لينين، وهي تنمو هناك كما ينمو العشب في الخرائب، وكما تنبت ورود النسيان الحزينة.

2

وإذا كان «فرانز كافكا» نبيّ عالم بلا ذاكرة، فإن «غوستاف هوساك» هو مؤسس ذلك العالم بلا منازع. إنه الرئيس السابع في بلدي بعد «ت.ج مازاريك» الملقب بالرئيس المحرِّر (الذي دُمِّرت كل نصبه بدون استثناء). وبعد «بنس» و«غوتوالد» و«زابوتوكي» و«نوفوتني» و«سفوبودا»، حلّ الرئيس السابع لبلدي، وهو يلقب برئيس النسيان.

لقد نصّبه الروس سنة 1969. ولم يعرف تاريخ الشعب التشيكي منذ سنة 1621 مجازر مماثلة لهذه التي تقام اليوم في حق الثقافة والمثقفين. ويتهيأ للناظر أن «هوساك» لا همّ له سوى الاقتصاص من خصومه السياسيين. لكن هذا الصراع ضدّ المعارضة السياسية شكّل بالنسبة للروس الفرصة المأمولة ليباشر ضباطهم أمورا سياسية أعمق.

وأعتقد أن إقدام «هوساك» على طرد مائة وخمسة وأربعين مؤرخا تشيكيا من الجامعات والمعاهد العلمية أمر لا يخلو من دلالة (إذ يقال أقيم تمثال جديد للينين في مكان ما من بوهيميا مقابل كل مؤرخ، كما لو أن الأمر يتعلق بخرافة من الخرافات). وقد زارني سنة 1971 أحد هؤلاء المؤرخين، وهو «ميلان هوبل»، بنظارتيه السميكتين في شقتي الصغيرة بشارع «بارتولوميسكا»، فتملّكنا الحزن ونحن ننظر إلى أبراج «هرادشين».

كان «هوبل» يقول: «لتصفية الشعوب، يُشرع بتخريب ذاكرتها، وتدمير كتبها وثقافتها وتاريخها. وينبري آخرون لتأليف كتب أخرى،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وإيجاد ثقافة أخرى وابتداع تاريخ آخر. بعد هذا يبدأ الشعب شيئا فشيا في نسيان من هو وكيف كان. فينساه العالم من حوله بشكل أسرع.

- واللغة؟

- لماذا ينزعونها منا؟ ستصبح مجرد فولكلور محكوم عليه بالموت الطبيعي عاجلا أم آجلا.

أكان ذلك مبالغة أملاها الحزن الشديد؟ أحقاً أن الشعب لن ينجح في الخروج حيّا من عبور صحراء النسيان المُنَظَّم؟

لا أحد يستطيع التنبؤ بما سيحدث. على أن هناك شيئا أكيدا. فالشعب التشيكي يستطيع أن يرى أمامه في لحظات الصفاء صورة موته، ليس كحقيقة ولا كمستقبل محتوم، بل كإمكانية ملموسة. فموته قائم معه.

3

ستة أشهر بعد ذلك، ألقي القبض على «هوبل»، وحكم عليه بسنوات سجن طويلة. وفي هذه الأثناء، كان أبي يحتضر.

لقد فقد خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته القدرة على الكلام تدريجا. في البداية نسي بعض الكلمات، وصار يضع مكانها كلمات أخرى تشبهها، فيُغرِقُ في الضحك. لكنه في الأخير لم يعد قادرا على نطق إلا عدد قليل جدا من الألفاظ، وكان كلّما حاول توضيح أفكاره، ينتهي إلى الجملة نفسها. ومن العبارات الأخيرة التي بقيت له: «إنه أمر غريب.»

كان يقول «إنه أمر غريب» فترتسم في عينيه دهشة من يعرف كلّ شيء ولا يستطيع قول شيء. فقد فقدت الأشياء مسمياتها واختلطت في شيء واحد لا يُميَّز. ولما كنت أكلمه، كنت الوحيد القادر على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

استخراج كيانات ذات تسميات من هذا العالم اللانهائي الضائع الخالي من الكلمات.

وفي وجهه الجميل ظلت عيناه الزرقاوان الواسعتان تعبّران عن حكمة الماضي نفسها. كنت آخذه دائما إلى النزهة، وكنّا نطوف دائما حول الهدف نفسه، لأن أبي لم يكن يقوى على المشي بعيدا. لم يكن يحسن المشي، إذ كانت خطواته صغيرة، وبمجرد أن يشعر بالتعب، يأخذ جسده في التمايل إلى الأمام تارة، وإلى الخلف تارة أخرى، فيفقد التوازن. وعندئذ يتحتّم علينا الوقوف حتى يرتاح وقد أسند جبهته على الجدار.

خلال هذه النزهات، كنا نتبادل الحديث حول الموسيقى. عندما كان والدي يتحدث بشكل طبيعي، لم أكن أطرح عليه إلا القليل من الأسئلة. لذلك كنت في هذه الفترة أستدرك ما فات. فكنا إذن نتحدث عن الموسيقى، لكنها كانت محادثة غريبة، محادثة بين شخص لا يعرف سوى الكلمات، وآخر يعرف كل شيء، ولا يعرف كلمة واحدة.

وخلال فترة مرضه التي دامت عشر سنوات، ألّف أبي كتابا ضخما عن سوناتات بيتهوفن. فقد كان ربما يكتب أفضل مما كان يتكلم، لكنه كان يجد صعوبة أكثر فأكثر في العثور على الكلمات، مما جعل النص المكتوب مبهما، لأنه يتضمن كلمات لا وجود لها.

دعاني ذات يوم إلى غرفته، وقد وضع على البيانو ورقة تغييرات لحن سوناتة بيتهوفن 111، وقال لي «أنظر» وهو يشير إلى التوليفة الموسيقية (لم يعد يستطيع العزف على البيانو)، ثم كرر «انظر»، وتمكن بعد جهد جهيد من نطق: «الآن أعرف!» كان يحاول أن يفسر لي شيئا هاما، لكن كلامه كان مؤلفا من كلمات مبهمة. فلما أيقن من أنني لم أفهم قصده، رمقني بدهشة وقال: «إنه أمر غريب.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بالطبع كنت أعرف ما كان يقصد، لأنه كان يطرح هذا السؤال منذ وقت طويل. فقد كانت التنويعات اللحنية الشكل المفضل لدى بيتهوفن في آخر حياته. وربما خيّل إلينا أنها الصيغة الأكثر سطحية، لأنها لا تعدو أن تكون عرضا بسيطا لمجموعة من التقنيات الموسيقة، وهو ما يجعلها عملا جديراً بصانعة دانيتلا لا ببيتهوفن. لكن بيتهوفن جعل منها لأول مرة في تاريخ الموسيقى شكلا فنيا ساميا، ضمّنه أجمل تأملاته.

أجل، كان هذا الأمر معروفا، لكن والدي كان يريد أن يعرف كيف ينبغي فهم ذلك الشكل، ولماذا هذه التنويعات اللحنية بالضبط؟ ما الدلالة التي تخفيها؟

لهذا السبب دعاني إلى حجرته وأشار إلى التوليفة قائلا: «الآن أعرف!»

4

إن صمت الأب الذي خذلته كل الكلمات، وصمت المئة وخمسة وأربعين مؤرخا الذين منعوا من التذكر، هذا الصمت المطبق المخيم على بوهيميا، يشكل خلفية اللوحة التي أرسم عليها تامينا.

هي ما تزال نادلة في مقهى بمدينة صغيرة تقع غرب أوروبا، لكنها فقدت بريق لطف معاملتها التي كانت تسحر الزبائن من قبل، كما فقدت تلك الرغبة في الإصغاء للآخرين.

وذات يوم بينما كانت بيبي جالسة إلى الكونتوار، وكانت طفلتها تحبو وتصرخ، انتظرت تامينا أن تتدخل الأمّ لإسكات ابنتها، لكن صبرها نفذ، فقالت: «ألا تستطيعين إخراس طفلتك؟»

اغتاظت بيبي وردّت: «لِمَ تكرهين الأطفال، هه؟»

لا يمكن القول إن تامينا تكره الأطفال، لكن في صوت بيبي ظهر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الكثير من الحقد الذي لم يفت تامينا. وهكذا لم تعودا صديقتين، من دون أن تعرف كيف حصل ذلك.

وذات يوم لم تذهب تامينا إلى عملها، وهو أمر لم يحدث من قبل قط. فصعدت ربة عملها إلى شقتها لتستطلع الأمر، دقّت الباب، لكن أحدا لم يجب. وعادت في اليوم التالي، ودقت الباب من جديد دون جدوى. اتصلت بالشرطة التي كسرت الباب، غير أنهم لم يجدوا سوى منزل مرتب بعناية، لم ينقص منه شيء، وليس فيه ما يثير الريبة.

لم تظهر تامينا في الأيام اللاحقة، واستمرت الشرطة في الاهتمام بالقضية دون أن تكتشف جديدا، وهكذا حُفِظَت القضية مع القضايا التي ظلت عالقة.

5

في ذلك اليوم المحتوم، جلس رجل شاب يرتدي الجينز إلى الكونتوار، وكانت تامينا في هذه اللحظة بمفردها في المقهى. طلب الشاب مشروب كوكا، وأخذ يرشفه وهو ينظر إلى تامينا، بينما كانت هي تنظر في الفراغ. وبعد هنيهة قال: «تامينا».

لو اعتقد بهذا أنه يثيرها، فقد أخطأ، لأنه لم يكن من الصعب معرفة اسمها، فقد كان معروفا عند كل مرتادي المقهى.

«أعلم أنك حزينة» تابع الشاب.

لكن تامينا لم تتأثر بهذه الملاحظة أيضا. كانت تدرك أن هناك أساليب عديدة لاستمالة المرأة، وأن أضمن الطرق لبلوغ جسدها هو الضرب على وتر حزنها. لكنها نظرت إلى الشاب مع ذلك باهتمام أكبر من ذي قبل.

انخرطا في الحديث، وظلّت أسئلته تشغل بالها، ليس بفحواها،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بل بكونه يطرحها. يا إلهى، لم يسألها أحد عن شيء منذ زمن بعيد! وتهيّأ لها أن دهراً مرّ على ذلك! فزوجها هو الوحيد الذي كان يسألها، لأن الحبّ سؤال دائم. نعم، لست أعلم تعريفا للحب أفضل من هذا.

(صديقي «هوبل» سبق أن نبّهني أن لا أحد -في هذه الحالة- يحبّنا مثلما تحبّنا الشرطة. وهو أمر صحيح. فمثلما أن لكل شيء في الأعلى نظيره في الأسفل، فإن عناية الحب يقابلها سلبا فضول الشرطة. وقد يحدث خلط بين الأعلى والأسفل، بحيث يخيّل إلي أن بعض من يشعرون بالوحدة يرغبون في أن يساقوا بين الفينة والأخرى إلى مخافر الشرطة كي يُستنطقوا، ويتمكنوا من الحديث عن أنفسهم.)

6

ظل الرجل الشاب ينظر في عينيها وهو ينصت إليها، ثم قال لها إن ما نسميه التذكّر هو في الحقيقة شيء آخر: لمّا كانت مأخوذة، فقد تهيّأ لها أنها منسية.

حركت تامينا رأسها موافقة على كلامه.

فتابع قائلا: إن النظرة الحزينة التي تنظر بها إلى الماضي لم تعد تعبيرا عن وفاء لشخص ميت، لأن الميت اختفى من مجال بصرها، ولم تعد تنظر إلا في الفراغ.

في الفراغ؟ ولكن ما الذي يُثقل نظرها إذن؟

يشرح الشاب: «إنه ليس مثقلا بالذكريات، بل بالندم. فهي لن تغفر لنفسها أبدا أنها نسيت.»

وتسأله تامينا: «ماذا يجب أن أفعل؟»، فيجيب الشاب: «أن تنسي نسيانك.»

فتبتسم تامينا بمرارة: «اشرح لي كيف أفعل.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

– ألم تروادك الرغبة في الرحيل قط؟

– بلى، تجيب تامينا، تحدوني رغبة رهيبة في الرحيل، ولكن إلى أين؟

– إلى مكان ما حيث الأشياء خفيفة كالنسيم، حيث فقدت ثقلها. حيث لا يوجد الندم.

– نعم، رددت تامينا حالمة، الذهاب إلى مكان لا تزن فيه الأشياء شيئا.» ومثلما يحدث في حكاية أو حلم (أجل، إنها حكاية! أجل، إنه حلم!) غادرت تامينا الكونتوار الذي أمضت خلفه سنوات عديدة من حياتها، وخرجت من المقهى مع الرجل الشاب. جلس الشاب إلى مقود سيارة رياضية حمراء كانت مركونة بجانب الرصيف، ودعاها إلى الركوب بجانبه.

7

أتفهّم التأنيب الذي تكيله تامينا لنفسها. لقد وجهته أنا أيضا لنفسي عندما توفي والدي، لأنني لم أكن أستطيع أن أغفر لنفسي كوني لم أطرح عليه سوى القليل من الأسئلة، ولم أعرف عنه سوى النزر اليسير، وأيضا لأنني سمحت لنفسي بتفويت الفرصة. ولعل هذا الندم هو الذي مكنني فجأة من إدراك ما كان يودّ قوله لي أمام توليفة السوناتة 111.

سأحاول أن أشرح الأمر من خلال مقارنة. فالسمفونية ملحمة موسيقية، إنها أشبه ما تكون برحلة عبر العالم الخارجي اللانهائي، تقود المرء من شيء إلى شيء أبعد فأبعد. والتنويعات اللحنية بدورها رحلة، لكنها لا تقود عبر العالم الخارجي اللانهائي. ولعلكم تعرفون فكرة باسكال التي تقول إن الإنسان يعيش بين هوة اللامتناهي في الكبر وهوة اللامتناهي في الصغر. ورحلة التنويعات الموسيقية تقود إلى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

داخل هذا اللامتناهي الآخر، إلى التنوع اللامتناهي للعالم الداخلي الكامن في كل شيء. فقد بدا لبيتهوفن إذن في التنويعات فضاء آخر للاستكشاف، وبذلك فهي دعوة جديدة للسفر. ثم إن شكل التنويعات هو الشكل الذي يبلغ فيه التركيز حدّه الأقصى، بحيث لا تسمح للمؤلف بمعالجة إلا الأمور الجوهرية، والذهاب توّا إلى لبّ الأشياء. وتتألف مادة التنويعات من موضوع إيقاعي لا يتجاوز في الغالب ستة عشر قياسا نغميا، ينزلها بيتهوفن وكأنه ينزل بئرا في جوف الأرض.

إن السفر في هذا اللانهائي الآخر لا يقلّ مغامرة عن السفر في الملحمة. وهو لا يختلف عن سفر العالم الفيزيائي داخل الأحشاء العجيبة للذرّة. ففي كل إيقاع يبتعد بيتهوفن أكثر فأكثر عن الموضوع الأصلي بحيث لا يعود الشبه بينه وبين التغيير اللحني الأخير إلا كالشبه بين الزهرة وصورتها في المجهر.

إن الإنسان يدرك عدم قدرته على استيعاب الكون بشموسه ونجومه. وهو إذ لا يطيق هذا، فهو لا يحتمل عجزه أكثر عن استيعاب اللانهائي الآخر، هذا اللانهائي القريب منه، والموجود في متناوله. لقد ضيعت تامينا اللانهائي في حبها، وخسرتُ أنا والدي، ويخسر كل منّا عمله، لأننا في جَرْينا وراء الكمال، نطلب عمق الشيء، وهنا لا نستطيع المضي حتى النهاية.

وإذا كنا ننظر إلى عدم قدرتنا على فهم العالم الخارجي كشرط طبيعي، فإن عجزنا عن إدراك اللانهائي الآخر يجعلنا نؤنّب أنفسنا إلى أن نموت. فأنا كنت منشغلا بلانهائي النجوم، لكنني لم أعر اهتماما للانهائي الذي كان يحمله أبي بداخله.

لهذا، ليس من الغرابة في شيء إذا كانت التنويعات اللحنية قد غدت الشكل المفضل لدى بيتهوفن في مرحلة نضجه. فقد كان يدرك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

(مثلما أدرك أنا وتدرك تامينا) أن لا شيء أفظع من فقدان الشخص الذي نحبّ، هذه القياسات الستة عشر والعالم الداخلي لإمكانياتها اللامتناهية.

8

يتخذ هذا الكتاب بكامله شكل تنويعات لحنيّة، إذ تتوالى أجزاؤه مثلما تتعاقب أطوار رحلة تقود إلى عمق موضوع، عمق فكرة ما، أو تقود إلى داخل وضعية واحدة فريدة يصعب عليّ فهمها لضخامتها.

إنها رواية حول تامينا، وفي اللحظة التي تختفي فيها تامينا عن الأنظار، تصبح رواية من أجل تامينا. فهي الشخصية الرئيسية، وهي أيضا المستمع الرئيسي، وكل الحكايات الأخرى ما هي سوى تنويع على قصتها الخاصة، وتتلاقى في حياتها كما في المرآة.

إنها رواية تدور حول الضحك والنسيان، حول النسيان وحول براغ، حول براغ وحول الملائكة. ثم إنه ليس من الصدفة في شيء إذا كان اسم الشاب الذي يسوق السيارة هو رافائيل.

بدت الطبيعة مقفرة أكثر فأكثر، وراحت الخضرة تقل، والتراب الأحمر يتزايد، وتندر الأعشاب الخضراء والشجر. ثم ابتعدت السيارة عن الطريق، سالكة سبيلا ضيقا، لتصل إلى منحدر وعر. أوقف الرجل الشاب السيارة، وترجلا. كانا يقفان على حافة المنحدر، وفي الأسفل، على بعد عشرة أمتار، كانت ثمة حاشية ضفة صلصالية رقيقة، وبعدها تمتد على مدى البصر مياه عكرة بنية اللون.

سألته تامينا بصوت مخنوق: «أين نحن؟»

كان بودّها التعبير لرفائيل عن رغبتها في العودة، لكنها لم تجرؤ على ذلك. كانت تخشى رفضه، لأن ذلك سيضاعف شعورها بالقلق.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانا عند حافة المنحدر، أمامهما الماء ولا شيء حولها غير التراب، تراب أجرد، كما لو كان الطين يستخرج من هناك، وفعلا كانت ثمة جرافة مهجورة على مقربة منهما.

ذكّر هذا المنظر تامينا بالمكان الواقع على بعد نحو مئة كيلومتر من براغ، والذي اشتغل فيه زوجها كسائق جرافة بعدما طرد من عمله. كان يقضي الأسبوع هناك، يسكن في عربة، ولا يعود إلى براغ إلا عند نهاية الأسبوع لرؤية زوجته. وذات مرة لحقت به إلى مقر عمله الجديد، فتجوّلا في ذلك الفضاء الشبيه بهذا الذي توجد فيه اليوم، بأرضه الطينية المبلولة الجرداء، المضغوطة من الأسفل باللون الأصفر، ومن الأعلى بالسحب الثقيلة الرمادية. كانا يمشيان جنبا إلى جنب، وهما ينتعلان جزمة مطاطية تغوص في الوحل وتنزلق. كانا يشعران بالوحدة والحب والاضطراب واليأس والقلق على بعضهما بعضا.

إنه نفس اليأس الذي انتابها الآن، فشعرت بابتهاج لأنها استرجعت فجأة قطعة من ماضيها. إنها ذكرى اختفت تماما، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تسترجعها منذ ذلك الحين. وكان عليها أن تدوّنها في دفترها حتى تتذكر السنة بالضبط!

وعاودتها الرغبة في أن تطلب من الشاب العودة من حيث أتيا. لا، لم يكن محقّا عندما كان يقول إن حزنها شكل بلا مضمون! لا، لا؛ لقد كان زوجها يعيش دائما في هذا الحزن. كان تائها، وكان عليها أن تذهب للبحث عنه! البحث عنه في العالم أجمع! نعم، نعم! لقد أدركت ذلك في أخيرا! فمن يرغب في التذكر لا ينبغي أن يظل في مكان واحد، وينتظر أن تأتيه الذكريات من تلقاء ذاتها! لقد تشتّتت الذكريات في العالم الشاسع، وينبغي السفر للبحث عنها، وإخراجها من مخابئها!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت تريد أن تقول ذلك للشاب، وتطلب منه إعادتها إلى منزلها، ولكن في هذه الأثناء سُمع صفير قادم من الأسفل، من ناحية الماء.

9

أمسك رافائيل بذراع تامينا بقوة. لم يكن من السهل التخلص من قبضته، ثم قادها في طريق ضيق يتعرج على طول المنحدر. وكان ثمة طفل في الثانية عشرة من عمره ينتظر عند الضفة، حيث لم يكن للحياة أثر قبل قليل. كان يمسك بطرف حبل موصول بقارب، وكان القارب يهتز بلطف على الضفة، وأخذ الطفل يبتسم لتامينا.

التفتت إلى رافائيل، كان يضحك بدوره. جالت ببصرها بينهما، تنظر للأول ثم للثاني، فانفجر رافائيل ضاحكا، وفعل الطفل مثله. بدا ضحكهما شاذا، إذ لم يكن ثمة ما يدعو إليه، غير أنه كان في الآن نفسه ضحكا معديا ومرحا، يدعوها لنسيان قلقها، ويعِدها بشيء مبهم، قد يكون فرحا، وقد يكون سلاما، بحيث أن تامينا التي كانت ترغب في التخلص من قلقها، انخرطت هي الأخرى في الضحك.

فقال لها رافائيل: «أرأيت، ليس ثمة ما يدعو للخوف.» وركبت تامينا في القارب الذي صار يتأرجح تحت ثقلها؛ جلست على المقعد الخلفي المبلل، فأحسّت بالرطوبة تحت ردفيها لأنها لم تكن ترتدي سوى فستان صيفي خفيف. وأيقظت ملامسة جسدها لهذه الرطوبة اللزجة قلقها.

شرع الطفل يدفع القارب ليبتعد به عن الضفة، ثم تناول المجدافين بينما التفتت تامينا إلى الخلف حيث كان رافائيل يتابعهما ببصره من الضفة. كان يبتسم لتامينا التي وجدت في ابتسامته شيئا غريبا. نعم! كان يبتسم وهو يحرك رأسه بشكل خفي! كان يضحك ويحرك رأسه من اليمين إلى اليسار، بحركة لا تكاد تُلاحظ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

10

لِمَ لم تسأل تامينا إلى أين تذهب؟

من لا يهتم بالهدف لا يسأل إلى أين يذهب!

كانت تنظر إلى الطفل الجالس قبالتها وهو يجدف، فوجدته ضئيلا والمجدافان ثقيلان.

سألته: «هلا جدفت عنك!»، وافق الطفل، وترك لها المجدافين. تبادلا مكانيهما، وجلس هو في الخلف، وأخذ ينظر إلى تامينا وهي تجدف، ثم أخرج آلة تسجيل كانت مخبأة تحت المقعد، شغلها، فسمعت موسيقى روك وصوت قيثارة كهربائية وكلمات، وشرع الصبي في التمايل على الإيقاع. ومضت تامينا تنظر إليه باشمئزاز، فقد كان يقوم بحركات خليعة.

خفضت بصرها لكي لا تراه. عندها رفع الصبي الصوت عاليا، وأخذ يدندن، وبعد هنيهة لما رفعت تامينا عينيها، سألها: «لماذا لا تغنين؟»

- لا أعرف هذه الأغنية.

- كيف لا تعرفينها؟ إنها أغنية شهيرة!»

واصل الصبي حركاته على المقعد، وشعرت تامينا بالتعب: «ألا تستطيع أن تجدّف مكاني قليلا؟»

فأجاب الصبي ضاحكا: «جدّفي!»

لكن تامينا كانت متعبة فعلا، فوضعت المجدافين في القارب لترتاح: «هل أوشكنا على الوصول؟» فأشار الصبي إلى مكان قريب، ولما التفتت تامينا، لم تكن الضفة بعيدة.

كان المنظر مختلفا عما تركاه قبل قليل: كان مخضرّا تكسوه الأعشاب والأشجار. وما هي إلا لحظات حتى لامس القارب القعر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان ثمة عشرة صبيان يلعبون الكرة على الضفة، فأخذوا ينظرون إليهما بفضول. غادرت تامينا والصبي القارب، ومضى هو يربطه إلى وتد. من الشاطئ الرملي كان يمتد ممر من شجر الجميز، فتبعاه، وما كادا يمشيان عشر دقائق حتى بلغا بناءاً كبيراً منخفضاً توجد أمامه أشياء ملونة لم تعرف تامينا إلى أي شيء تصلح، كما كانت هناك شباك كثيرة للكرة الطائرة. وكانت على قدر من الغرابة بحيث أثارت فضولها. نعم، لقد كانت منصوبة بشكل منخفض جدا.

وضع الطفل أصبعيه في فمه وصفر.

11

تقدمت منهما صبية في التاسعة من عمرها تقريبا. كانت بهية الطلعة، ذات بطن منتفخة قليلا مثل عذارى اللوحات القوطية. تطلعت إلى تامينا دون اكتراث خاص. نظرت إليها نظرة امرأة مزهوة بجمالها، وترغب في إظهاره بلامبالاة بغيرها.

فتحت الصبية البناية ذات الجدران البيضاء، فدخلا مباشرة (إذ لم يكن هناك لا ممرّ ولا مدخل) إلى غرفة مليئة بالأسِرّة. جالت ببصرها في الغرفة كما لو كانت تعدّ الأسرة، ثم أشارت إلى أحدها وقالت: «ستنامين هنا.»

فاعترضت تامينا: «كيف؟ أأنام في مرقد؟»

- لا حاجة للولد لأن تكون له غرفة.

- ماذا قلت، ولد؟ أنا لست ولداً!

- الجميع هنا أولاد!

- مع ذلك ينبغي أن يكون بينكم راشدون!

- لا، لا وجود لهم هنا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فصرخت تامينا: «إذن ماذا أفعل أنا هنا؟»

لم تلحظ الفتاة غضبها، واستدارت نحو الباب، ثم وقفت عند العتبة وقالت: «لقد وضعتك مع السناجب.»

لم تفهم تامينا شيئا، فكررت الطفلة بلهجة مدرّسة غاضبة: «وضعتك مع السناجب. نحن موزعون هنا إلى أقسام، يحمل كل منها اسم حيوان.»

رفضت تامينا الكلام عن السناجب، وأصرّت على العودة، وسألت عن الصبي الذي أتى بها إلى هنا، فتظاهرت الطفلة بعدم سماع كلامها، وواصلت توضيحاتها، فصاحت بها تامينا: «هذا لا يهمّني! أريد العودة! أين الصبيّ؟»

- لا تصرخي! ردّت الطفلة. لا وجود لراشد أشدّ غطرسة من هذه الطفلة الجميلة. ثم واصلت وهي تهز رأسها تعبيرا عن الدهشة: «لست أفهمك، لماذا أتيت إلى هنا إذا كنت تريدين العودة؟

- أنا لم أطلب المجيء إلى هنا!

- لا تكذبي يا تامينا. لا يعقل أن تسافري بعيدا دون أن تعلمي إلى أين تتوجّهين. أتركي الكذب.»

أشاحت تامينا بوجهها عن الفتاة، وانطلقت في ممر شجر الجميز، ولما وصلت إلى الضفة، بحثت عن القارب الذي ربطه الصبي إلى الوتد قبل ساعة، فلم تجد له أثرا، مثلما لم تجد أثرا للوتد أيضا.

فراحت تركض باحثة على امتداد الضفة، لكن الشاطئ الرملي ما لبث أن اختفى في مستنقع من الصعب تخطيه. وظلت تبحث فترة من الزمن حتى وجدت الماء من جديد. كان الشاطئ يتعرج في نفس الاتجاه، ولما لم تعثر لا على القارب ولا على الوتد، عادت بعد ساعة إلى المكان الذي ينطلق منه ممر الجميز على الشاطئ، وهنا أدركت أنها كانت في جزيرة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صعدت الممر على مهل حتى المرقد. هناك كان يوجد حوالي اثنا عشر بنتاً وصبيّاً، تتراوح أعمارهم بين ست واثنتي عشرة سنة. كانوا يقفون على شكل دائرة، ولما أبصروها شرعوا ينادونها: «تامينا، تعالي معنا!» وأفسحوا لها مكانا في الدائرة. وفي هذه اللحظة تذكرت رافائيل الذي كان يبتسم لها وهو يحرك رأسه. كان الخوف ينهش قلبها، فمرت أمام الأطفال ببرود، وولجت المرقد وارتمت على سريرها.

12

توفي زوجها في المستشفى، وكانت تعوده كلما سنحت لها الفرصة، لكنه مات ذات ليلة وحيدا. ولما جاءت إلى المستشفى في اليوم التالي، ووجدت السرير فارغا، قال لها العجوز الذي كان يقتسم معه الغرفة: «سيدتي، ينبغي أن ترفعي شكاية! إنهم يعاملون الموتى بطريقة فظيعة!». بدا الخوف واضحا في عينيه، كان يعلم أن موعد موته قد دنا. «لقد أمسكوا برجليه، وسحبوه أرضا. ظنوا أنني نائم. رأيت رأسه يرتطم بعتبة الباب.»

للموت وجهان: فهو اللاوجود والوجود في الآن نفسه، أي الوجود المادي الرهيب للجثة.

لما كانت تامينا شابة، لم تكن ترى من الموت إلا مظهره الأول، أي مظهره كعدم؛ فكان الخوف من الموت (والذي كان مبهما بالنسبة لها) هو الخوف من عدم الوجود. وقد تضاءل هذا الخوف مع السنين، وكاد يزول (فكرة عدم رؤية السماء والأشجار لم تعد تخيفها)، لكنها بالمقابل أضحت تفكر أكثر فأكثر في المظهر الثاني، أي المظهر المادي للموت. فهي كانت ترتعب من فكرة أنها ستصير جثة.

كان التحول إلى جثة إهانة لا تطاق. فقبل الموت بلحظة تكون الجثة إنسانا له حرمته وحميميته المقدسة؛ ويكفي أن يحلّ الموت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ليصير الجسد عرضة للعبث، بحيث يستطيع أيٌّ كان أن يعريه أو يبقره ويتفحص أحشاءه؛ أو يغلق أنفه أمام نتانته، ويرميه في الثلاجة أو في النار. ولما شاءت تامينا أن تُحرق جثة زوجها، ويُنثر رمادها، فقد فعلت ذلك لأنها ما كانت تريد أن تظل طوال حياتها تتعذّب من ذكرى ما آل إليه جسد حبيبها.

ولما فكرت، بعد عدّة أشهر، في الانتحار، قررت أن يكون ذلك غرقا في عرض البحر حتى لا يطّلع أحد على فظاعة جثتها غير الأسماك الخرساء.

لقد تحدثتُ سالفا عن قصة «توماس مان»: شاب مصاب بمرض عضال، يركب القطار، وينزل في مدينة مجهولة. كان في غرفته دولاب تخرج منه كل ليلة امرأة عارية جميلة تحكي له مطولا حكاية طويلة لطيفة، ولم تكن هذه المرأة وتلك القصة شيئا آخر غير الموت.

إنه الموت المزْرورَق بلطف مثل اللاوجود. فلما كان اللاوجود فراغا لانهائيا، وكان الفراغ أزرق، فليس ثمة شيء أجمل ولا أكثر ترويحا من الأزرق. وليس من الصدفة في شيء إذا كان نوفاليس، وهو شاعر الموت، يعشق اللون الأزرق، ولا يبحث في أسفاره عن شيء سواه. فلنعومة الموت لون أزرق.

لكن، إذا كان لاوجود الشاب على هذا القدر من الجمال، فماذا كان مصير جسده؟ أسُحِب من رجليه لتخطّي العتبة؟ أبُقر بطنه؟ أقُذف في الحفرة أو في النار؟

كان «توماس مان» عند كتابة هذه القصة في الثلاثين من عمره، ونوفاليس لم يتخطّ الثلاثين أبدا، وأنا -للأسف- أكبر منهما سنّا، وعلى الخلاف منهما، لا أحتمل عدم التفكير في الجسد، لأن الموت، كما أعلم وتعلم تامينا، ليس أزرق. إنه عناء رهيب. لقد احتضر أبي بالحمى طيلة أيام، وكان يخيّل إلي أنه يعمل. ظل يتصبّب عرقا وهو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مستغرق تماما في احتضاره، كما لو كان الموت فوق طاقته. لم يكن قادرا حتى على إدراك أنني جالس بجوار سريره، ولم يكن باستطاعته أن يشعر بوجودي، لأن الموت كان قد أنهكه. كان مستغرقا مثلما يستغرق الفارس الراغب في بلوغ هدف بعيد، ولم يبق له من القوة سوى الشيء اليسير.

نعم، كان يركض على حصانه. إلى أين كان يتوجّه؟ كان يركض إلى مكان ناء لكي يخفي جسده. لا، ليس من الصدفة في شيء إذا كانت كل القصائد التي تعالج الموت تصوّره كسفر. فالشاب في قصة «توماس مان» ركب قطارا، وتامينا ركبت سيارة رياضية حمراء. لطالما يشعر الإنسان برغبة لانهائية في الرحيل إلى مكان يدفن فيه جسده، لكن السفر يظل بلا جدوى. فمهما ركض الإنسان على الحصان، يجد نفسه في سرير، ويرطمون رأسه بعتبة الباب.

13

لماذا توجد تامينا بجزيرة الأطفال؟ لماذا أتخيّلها هناك تحديدا؟ لا أعلم. ربما لأن الفضاء كان يوم احتضار أبي مليئا بأناشيد مرحة تردّدها أصوات طفولية.

ينتمي الأطفال في كل المناطق الواقعة شرق الألب(*) إلى جمعيات تدعى جمعيات الكشافة. يطوقون أعناقهم بمناديل حمراء، ويشاركون في اجتماعات مثل الراشدين، ويرددون أحيانا النشيد الأممي. كما اعتادوا، بين الفينة والأخرى، على عقد منديل أحمر

(*) Elbe يعتبر أهم مجرى مائي في وسط أوروبا. وهو ينبع من الجانب الغربي في الجمهورية التشيكية، ويتجه إلى الشمال الغربي ماراً بألمانيا ويصب في بحر الشمال. ويبلغ طوله 1165 كيلومتراً. (المترجم)

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حول عنق راشد مرموق، ويمنحونه لقب رائد شرف. والكبار يحبون هذا الأمر، وكلما تقدم بهم السن، زادت رغبتهم في الحصول على هذا المنديل الأحمر قصد توشيح نعوشهم به.

كلهم تلقوا هذا المنديل. فقد تلقاه لينين، وحتى ستالين وماستربوف وشولوخوف وأولبريخت وبريجنييف، كلّهم تلقوه، وهوساك نفسه تلقاه خلال حفل كبير أقيم بقصر براغ.

انخفضت حرارة الحمى قليلا عن والدي، كان ذلك في شهر ماي (أيار)، وكنا قد فتحنا النافذة المطلة على الحديقة. كانت تصلنا من المنزل المقابل وعبر أغصان شجر التفاح المزهرة وقائع النقل المباشر للحفل، وكانت الأغاني تُسمع بأصوات الأطفال الحادة.

كان الطبيب موجودا بالغرفة، وكان منحنياً على والدي الذي لم يعد يستطيع النطق، ثم التفت إلي وقال بصوت مسموع: «إنه في غيبوبة، ودماغه يتفسخ». رأيت عيني والدي الزرقاوين تزدادان اتساعا.

ولما غادر الطبيب الغرفة، شعرت بارتباك شديد، وكنت أرغب في النطق بأي شيء حتى أطرد هذه الجملة. أومأت إلى النافذة، وقلت: «أسمعت؟ يا له من شيء مسلّ! لقد صار «هوساك» اليوم كشافا!»

وأخذ أبي يضحك. ضحك لكي يثبت لي أن دماغه ما زال حيا، وأن بوسعي الاستمرار في التكلم والمزاح معه.

كان صوت «هوساك» يصلنا عبر أشجار التفاح: «يا أبنائي! أنتم المستقبل!»، وبعد هنيهة أردف قائلا: «يا أبنائي! لا تنظروا أبدا إلى الخلف!»، فأشرت إلى والدي: «سأغلق النافذة حتى لا يُسمع صوته» فنظر إلي بابتسامته الجميلة موافقا بحركة من رأسه.

ارتفعت درجة حرارته بشكل مفاجئ، فامتطى حصانه، ومضى يركض لأيام، ولم يرني بعدها أبدا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

14

ماذا عساها تفعل الآن وقد تاهت بين الأطفال، والمهرِّب اختفى مع قاربه، والماء يحيط بها من كل جانب.

ستحاول أن تقاوم. ما أحزن هذا الأمر: لمّا كانت في المدينة الصغيرة غرب أوروبا لم تناضل قط من أجل النجاح، لأن الطموح كان يعوزها، أما هنا، بين الأطفال (في عالم الأشياء التي لا وزن لها) فستقاوم.

لكن كيف تراها تقاوم؟

لما رفضت اللعب مع الأطفال يوم وصولها، والتجأت إلى سريرها كما لو كان قلعة منيعة، استشعرت نشوء عداء من الأطفال تجاهها، فراعها ذلك، وودت أن تتجاوزه عن طريق كسب تعاطفهم. وحتى تنجح في ذلك، كان عليها أن تتماهى معهم، وتقبل لغتهم. ومن ثمة شاركت بتلقائية في ألعابهم، ووضعت رهن أشارتهم أفكارها وقوتها البدنية. وما لبث الأطفال أن فُتنوا بها.

ولكي تتماهي معهم، كان عليها التخلي عن حميميتها، فصارت تصحبهم إلى الخمام، بالرغم من أنها رفضت مرافقتهم في اليوم الأول لأنها استصعبت الاغتسال والاستحمام أمامهم.

تشكل قاعة الاستحمام، وهي حجرة كبيرة مربعة، مركز حياة الأطفال، ومدار أفكارهم السرية. وتضم القاعة عشرة مراحيض في ناحية، وعشرة مغاسل في الناحية المقابلة، بحيث أن أولئك الذين يجلسون في المراحيض يشاهدون الذين يكونون عراة في المغاسل؛ والعراة في المغاسل يلتفتون ويرمقون من يقعدون في المراحيض، فتشيع في القاعة إثارة خفية توقظ في تامينا ذكريات غامضة لشيء منسي منذ زمن بعيد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تجلس تامينا مرتدية قميص النوم على حوض مرحاض فلا ينزع النمور العراة الواقفون في المغاسل أبصارهم عنها، ثم تُسمع قرقرة طرادات الماء، فيقوم السناجب من المراحيض، وينزعون قمصان النوم، وما إن يغادر النمور المغاسل نحو المراقد حتى تصل القطط، فيجلسون على أحواض المراحيض ويأخذون في النظر إلى تامينا بعانتها السوداء وثدييها الكبيرين وهي تغتسل مع السناجب.

إنها لا تشعر بالخجل. فكونها بالغة يجعلها تحسّ كما لو كانت ملكة تهيمن على من ما تزال أسافل بطونهم جرداء.

15

بدا لها إذن أن الرحلة إلى الجزيرة لم تكن مؤامرة ضدها كما تهيأ لها في بادئ الأمر عندما رأت المرقد ورأت سريرها. وخلافا لذلك، وجدت نفسها في المكان الذي طالما أملت أن تكون فيه. لقد عادت إلى الوراء بعيدا، إلى فترة لم يكن فيها زوجها موجودا، لا في الرغبة ولا في الذكرى، وحيث لا وجود لثقل ولا ندم.

كانت دوما على حظ كبير من الحشمة (وكانت الحشمة الظل الوفي للحب)، وها هي تتعرى أمام عشرات الأعين الغريبة. في البداية كان الأمر مباغتا ومقززا، لكنها سرعان ما تعودته، لأن عريها لم يكن فاسقا، بل كان بكل بساطة يفقد معناه ليغدو عريا فاترا أخرس وميتا. فهذا الجسد الذي وسم كل جزء منه بميسم حبهما غدا غارقا في اللامعنى، وهذا اللامعنى كان عزاء وراحة.

وإذا كانت شهوانية الكبار قد أخذت تتلاشى، فإن عالما من أحاسيس أخرى آخذ في الانبعاث ببطء من ماض سحيق. وبدأت تعاودها ذكريات دفينة، من قبيل هذه الذكرى التي نسيتها منذ مدة طويلة، لأنها بوصفها راشدة، كانت ستجدها غير لائقة وتافهة: عندما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت في الصف الحادي عشر بمدرسة القرية، كانت تعشق معلمتها الشابة الجميلة، وكانت تحلم على مدى شهور كاملة بأنها توجد معها في المراحيض.

إنها الآن جالسة في حوض المرحاض باسمة وعيناها نصف مغلقتين، تتخيل نفسها هي المعلمة، والطفلة النمشاء الجالسة في المرحاض المجاور، والتي تسترق النظر إليها بفضول، هي تامينا الصغيرة سابقا. تتقمص عيني الفتاة النمشاء الشهوانيتين إلى درجة أنها تشعر بالإثارة القديمة تختلج في مكان ما من أعماق ذاكرتها البعيدة.

16

صار السناجب ينتصرون في كل الألعاب بفضل تامينا، فقرروا مكافأتها بحفاوة. وقد كان الأطفال ينفذون عقوباتهم في قاعة الحمام مثلما كانوا يمنحون مكافآتهم. وكانت مكافأة تامينا هي أن ينهمك جميع الأطفال في خدمتها هذا المساء بحيث لا تحتاج لاستعمال يديها. فهم سيفعلون كل شيء مكانها بعناية الخدم الأوفياء.

مسحوا فرجها بعناية فوق حوض المرحاض، ثم جذبوا «شفاطة» المياه. نزعوا قميصها ودفعوها إلى المغسل، فأرادوا جميعهم أن يغسلوا بطنها وصدرها، وقد عزموا على أن يروا ما يوجد بين فخذيها، وأن يكتشفوا أي شعور تحس به لما يلمسوها هناك. كانت تودّ لو تصرفهم عنها، لكن ذلك كان صعبا، لأنها ما كانت تريد أن تبدو قاسية معهم، لاسيما وأنهم يؤدون اللعبة بجدية رائعة، ويتظاهرون بالسهر على خدمتها مكافأة لها.

أخذوها أخيرا إلى سريرها لتنام، وهناك وجدوا من جديد ألف ذريعة لطيفة ليحتكوا بها، ويلامسوا كل جسدها. كانوا من الكثرة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بحيث لم تعد تميز لمن هذه اليد أو ذاك الفم، وكانت تشعر بالضغط على سائر جسمها، ولاسيما حيث كانت مختلفة عنهم. أغلقت عينيها، وتهيأ لها أن جسدها يهتز ببطء كما لو كانت في مهد، فأحست بلذة فريدة وهادئة.

شعرت بأن هذه اللذة جعلت شفتيها ترتعشان، ففتحت عينيها من جديد، ورأت وجها طفوليا يحدّق في وجهها ويقول لوجه طفولي آخر: «انظر! انظر!». كان ثمة وجهان طفوليان منحنيان عليها وهما يراقبان بلهفة ارتعاش شفتيها، كما لو كانا ينظران إلى ساعة مفككة أو ذبابة فقدت أجنحتها.

لكن تهيأ لها أن عيونهما ترى شيئا آخر غير ما يحس به جسمها، وكأن لا علاقة بين انحناء الطفلين وهذه اللذة الصامتة المهدهدة التي تعتريها. أغلقت عينيها من جديد حتى تتمتع بجسدها، لأنها المرة الأولى في حياتها التي تشعر فيها باللذة دون حضور الروح، تلك الروح التي ما عادت تتخيل شيئا، ولا تتذكر شيئا، وتغادر الغرفة دون ضجة.

17

إليكم ما كان يحكيه لي أبي عندما كنت في الخامسة من عمري: كل نغمة هي بلاط ملكي مصغر، الحاكم فيه هو الملك (الدرجة الأولى) يساعده ضابطان (الدرجة الخامسة والدرجة الرابعة)، يوجد في خدمتهما أربعة موظفين كبار، لكل منهم علاقة خاصة بالملك وضابطَيه. بالإضافة إلى هذا، يأوي البلاط خمس نوطات أخرى تسمى اللونية. وهي تحتل المكانة الأولى في النغمات الأخرى؛ لكنها لا تعدو أن تكون هنا ضيفة.

وما دام لكل نوتة من النوتات الاثنتي عشرة موقع وعنوان ووظيفة خاصة، فإن العمل الموسيقي الذي نسمعه لا يكون مجرد كتلة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صوتية، بل هو يعرض أمامنا حدثا. أحيانا تكون الوقائع شديدة الغموض (مثلما هو الشأن عند ماهلر(*)، وأكثر منه عند بارتوك(**) أو سترافينسكي(***)) إذ يتدخل فجأة عدد من الأمراء في الآن نفسه، فلا نستطيع أن نميز أي نوطة هي في خدمة أي بلاط، وما إذا كانت في خدمة ملوك عدة في الوقت نفسه. ولكن، حتى المستمع الساذج يستطيع مع ذلك التمييز بين الخطوط العريضة لما يقع؛ لأن الموسيقى، ومهما كانت معقدة، تتحدث دائما اللغة نفسها.

هذا ما قاله لي والدي، أما ما يلي، فهو من تأليفي: فقد لاحظ رجل عظيم يوما أن لغة الموسيقى استنفذت أمكانياتها في ألف سنة، ولم يعد أمامها سوى تكرار التأليفات نفسها. فأصدر مرسوما يلغي التراتبية بين النوتات، وساوى بينها، وفرض عليها نظاما صارما لكي لا تظهر إحداها أكثر من غيرها في نفس المقطوعة. فأزال بذلك الامتيازات الإقطاعية. وهكذا قضي على البلاطات الملكية نهائيا، وعُوِّضت بإمبراطورية موحّدة قائمة على المساواة، سمّيت الاثنا عشر صوتا.

ربما كان الجانب الصوتي في الموسيقى أكثر أهمية من ذي قبل. لكن الإنسان الذي تعود منذ ألف سنة على العناية بالنغمات وحكاياتها في البلاطات الملكية، يسمع الصوت دون أن يفهم فحواه. ولم تلبث

(*) Gustav Mahler موسيقار نمساوي (1860-1911) كتب تسع سانفونيات وأعمال موسيقية أخرى. (المترجم)

(**) Béla Bartok موسيقار هنغاري (1881-1945) وهو أحد مؤسسي الإثنوغرافيا الموسيقية. (المترجم)

(***) Igor Fiodorovitch Stravinski (1882-1971) موسيقار روسي الأصل، حصل على الجنيسة الفرنسية ثم الأمريكية، ويعد من كبار المؤلفين الموسيقيين في القرن العشرين. (المترجم)

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إمبراطورية الإثنا عشر صوتا أن تلاشت. فبعد شونبورغ(*) أتى فاريس(**) الذي لم يكتف بإلغاء النغمة فقط، بل ألغى كذلك النوطة ذاتها (نغمة الصوت الإنساني وكذا نغمة الآلة الموسيقية) وعوضها بتنظيم دقيق وبديع للصوت، مؤسسا بذلك لشيء آخر قائم على مبادئ مختلفة، وعلى لغة مختلفة أيضاً.

لما كان «ميلان هوبل» يستعرض أفكاره في شقتي البراغية حول الانقراض المحتمل للشعب التشيكي في الإمبراطورية الروسية، كنا نعلم معا أن هذه الفكرة -الثابتة ربما- تتجاوزنا، وأننا نتحدث عن شيء غير وارد. فرغم كون الإنسان فانيا، فهو لا يستطيع تصور نهاية للمكان ولا للزمان، ولا للتاريخ ولا للشعب. إنه يعيش دائما في لانهاية وهمية.

إن الذين تغويهم فكرة التقدم لا يشكّون في أن التقدم إلى الأمام يجعل النهاية أقرب، وأن العبارات المرحة مثل «إلى الأمام» و«لنذهب أبعد» تجعلنا نسمع صوت الموت الشهواني الذي يدعونا إلى الإسراع. (وإذا كان إغراء عبارة «إلى الأمام» قد أصبح عالميا، ألا يعني ذلك أن الموت يتحدث إلينا عن قرب؟)

لقد كانت الموسيقى أغنى من أي وقت مضى لما أقام شونبرغ إمبراطورية الاثنا عشر صوتا، ولم يخطر ببال أحد أن النهاية وشيكة. لا تعب! ولا شيخوخة! كان شونبرغ مشبعا بجرأة الشباب. إن اختياره الأمام كطريق وحيد ممكن ظل يملؤه بالزهو. وهكذا اكتمل تاريخ الموسيقى بازدهار الجرأة والرغبة.

(*) Arnold Schönberg (1874-1951) موسيقار نمساوي له تأثير كبير على التأليف الموسيقى للقرن العشرين. (المترجم)

(**)Edgard Varèse (1883-1965) موسيقار من أصل فرنسي وجنسية أمريكية. يعد أحد أعمدة الموسيقى الحديثة (المترجم).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

18

إذا صح أن تاريخ الموسيقى قد انتهى، فماذا بقي من الموسيقى؟ الصمت؟ إن الموسيقى حاضرة اليوم بشكل أكبر بعشرات المرات، بل مئات المرات مما كانت عليه حتى في عصورها الزاهية. فهي تخرج من مكبرات الصوت المعلقة على جدران المنازل، ومن الآلات الصوتية الرهيبة المثبتة في الشقق والمطاعم، ومن أجهزة الترانزستور التي يحملها الناس في الشوارع.

لقد مات شونبرغ وإلينغتون(*)، لكن القيثارة خالدة. وما بقي من الموسيقى هو التناغم المسكوك واللحن العادي والإيقاع المزعج الممل، وهذا هو سر خلود الموسيقى. وبإمكان جميع الناس التعبير عن ودّهم لغيرهم من خلال التأليف بين هذه النوطات البسيطة، بحيث أن وجودهم ذاته سيعبِّر عن حضوره بواسطتها. فليس ثمة توافق أكثر صخبا وأشد إجماعا من التوافق مع الذات. وفي هذه النقطة يلتقي العرب مع اليهود، والتشيكيون مع الروس، فتهتز الأجساد على إيقاع النوطات، ثملة بوعي وجودها؛ ولهذا لم تحظ أي من أعمال بيتهوفن بمثل الانفعال الجماعي الكبير الذي تحدثه ضربات القيثارة المكررة بانتظام.

قبل وفاة والدي بحوالي سنة، بينما كنّا نقوم بجولتنا المعتادة بين المنازل، كانت الأغاني تتناهى إلينا من كل صوب. وكلما ازداد حزن الناس، ارتفع صوت المكبرات أكثر. وكانت تدعو الناس إلى نسيان مرارة التاريخ، والاستسلام لبهجة الحياة. وقف والدي ورفع بصره إلى الآلة التي ينبعث منها الصوت، وأحسست بأنه يريد أن يسرّ لي بشيء

(*) Edward Kennedy Ellington (1899-1974) مؤلف موسيقي وعازف بيانو أمريكي. (المترجم)

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مهمّ. بذل جهدا كبيرا ليركز ويتمكن من التعبير عن فكرته، ثم قال بصعوبة: «إنها حماقة الموسيقى.»

ماذا كان يقصد؟ أكان يقصد التنقيص من شأن الموسيقى التي ظلت هوايته المفضلة؟ كلا. أظن أنه كان يقصد أن للموسيقى حالة أصلية، حالة تسبق تاريخها، حالة تقع قبل التساؤل الأول وقبل التفكير الأول، قبل عزف أول مقطوعة تتضمن فكرة وموضوعا. ففي هذه الحالة الموسيقية الأولى (الموسيقى المجردة من الفكر) تنعكس الحماقة الملازمة للكائن الإنساني. ولكي تتجاوز الموسيقى هذه الحماقة الأصلية، استلزم الأمر القيام بمجهود فكري وعاطفي كبير. وشكل هذا المجهود منحنى رائعا غطى قرونا من التاريخ الأوروبي، وخبا عند ذروة مساره كما تخبو الشهب النارية.

فتاريخ الموسيقى زائل، بخلاف حماقة القيثارة الخالدة. وها هي الموسيقى اليوم تعود إلى حالتها الأولية، أي حالة ما بعد التساؤل الأخير، حالة ما بعد التفكير الأخير، حالة ما بعد التاريخ.

عندما سافر المغني التشيكي الشعبي «كاريل كلوس» سنة 1972 إلى الخارج، شعر «هوساك» بالخوف، فبعث له برسالة شخصية إلى فرانكفورت، سأقتبس منها مقطعا حرفيا دون أن أضيف شيئا: «عزيزي كاريل، إننا لا نلومك. عُد، أرجوك. سوف نحقق لك كل ما ترغب فيه، سنساعدك وستساعدنا...»

تمعّنوا في هذا الأمر: لقد سمح «هوساك» بالهجرة للأطباء والعلماء والفلكيين والرياضيين والمخرجين والمصورين والعمال والمهندسين والمعماريين والصحفيين والكتاب والرسامين، لكنه لم يكن يطيق فكرة مغادرة «كارل كلوس» البلاد، وذلك لأنه كان يمثل موسيقى بلا ذاكرة، تلك الموسيقى التي دُفنت فيها إلى الأبد رفاة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بيتهوفن وإلينغتون، ورماد باليسترينا(*) وشونبرغ.

إن رئيس النسيان وغبي الموسيقى متطابقان في نقائصهما، إذ كانا يعملان للأهداف نفسها «سنساعدك، وتساعدنا». لم يكن بإمكان أحدهما الاستغناء عن الآخر.

19

ولكن أحيانا عدما تسود حكمة الموسيقى، فإن إيقاع الصرخة الجافة الرتيب القادم من الخارج حيث الناس إخوة، يجعلنا نشعر بالحنين. إنه لمن الخطورة بمكان أن يقضي المرء كل وقته مع بيتهوفن، خطورة شبيهة بخطورة كل المواقع ذات الامتيازات.

لقد كانت تامينا تشعر دائما بشيء من الخجل في الاعتراف بأنها كانت تعيش سعيدة مع زوجها. كانت تخشى أن تقدم للآخرين بذلك ذريعة لكرهها. وهي الآن فريسة لشعور مزدوج، ذلك أن الحب بالنسبة إليها امتياز، والامتيازات لا تُنال إلا بالبذل؛ وبهذا فإن وجودها في جزيرة الأطفال يعدّ عقوبة.

لكن سرعان ما أفسح هذا الشعور المجال لشعور آخر: فامتياز الحب لم يكن جنّة فحسب، بل كان جحيما أيضا؛ لأن الحياة في الحب تجري في توتر مستمر، يلازمها الخوف، وتنتفي فيها الراحة. وهي الآن مع الأطفال هنا لعل جزاءها يكون الهدوء والسكينة.

إلى حدود هذه اللحظة كان الحب يشغل حياتها الجنسية (أقول يشغل لأن الجنس هو غير الحب، هو منطقة احتلّها الحب). فهي كانت إذن تشارك في أمر مؤثر، مسؤول وخطير. فها هنا بين الأطفال،

(*) Giovanni Pierluigi da Palestrina (1525-1594) مؤلف موسيقى إيطالي، كان له أثر كبير على تطور الموسيقى الدينية الكاثوليكية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حيث مملكة اللامعنى، عاد النشاط الجنسي إلى ما كان عليه في الأصل: لعبة صغيرة تنتج المتعة الحسية.

أو بعبارة أخرى: بتحرير الجنس من صلته الشيطانية بالحب صار بهجة ذات بساطة ملائكية.

20

إذا كان اغتصاب الأطفال لتامينا للمرة الأولى يحمل هذه الدلالة المذهلة، فإن تكرار الوضعية نفسها جعلها تفقد بسرعة معناها لتصبح رتابة فارغة، تزداد قذارة باطراد. وسرعان ما نشبت بين الأطفال الشجارات، بين من يوثرون الألعاب الجنسية، ومن لا يأبهون بها. وفي صفوف عشاق تامينا نشأت العداوة بين من يشعرون بأنهم مقربون، وبين من يشعرون أنهم مبعدون. كل هذه الأحقاد صارت تنقلب على تامينا وتعكّر حياتها.

وبينما كان الأطفال ذات يوم مقبلين على جسدها العاري (منهم من كان جاثما على السرير، ومن كان واقفا بجانبه، ومن كان مقرفصا على جسدها، أو قرب رأسها أو بين ساقيها)، شعرت فجأة بألم حاد، ذلك أن ولدا قرص حلمتها، فصرخت. وما كان إلا أن طردت كل الأطفال من سريرها، وشرعت تضرب الهواء بذراعيها. كانت تدرك أن هذا الألم لم يكن بفعل الصدفة ولا بفعل اللذة، إنه من فعل طفل كان يكرهها، وبهذا وضعت حدا للقاءات الحب هذه مع الأطفال.

21

وفجأة لم يعد ثمة سلام في مملكة الأشياء الخفيفة كالنسيم. يلعب الأطفال لعبة المربعات، فيقفزون من مربع لآخر على الرجل اليمنى أولا، ثم على الرجل اليسرى، ثم على الرجلين معا. تقفز تامينا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بدورها (أرى جسدها الكبير بين قامات الأطفال الصغيرة، تقفز وشعرها يتطاير حول وجهها وقد انتابها غمّ كبير). وفي هذه الأثناء شرع أطفال فريق الكتاري يصيحون بأنها تجاوزت الخط.

بالطبع يعترض السناجب زاعمين بأنها لم تتجاوز الخط، فينحني الفريقان على الخط باحثين عن أثر قدمها. لكن حدود الخط المرسوم على الرمل لم تكن واضحة، وكذلك الشأن بالنسبة لأثر نعل تامينا. المسألة فيها نظر. ومرّت ربع ساعة والأولاد يتصايحون، وهم لا يزالون غارقين في مشاحناتهم.

وفي غضون ذلك تقوم تامينا بالتصرف الحاسم، فترفع يدها وتقول: «حسنا، أنا موافقة، لقد تجاوزت الخط.» يصرخ السناجب بأن الأمر غير صحيح، وأنها مجنونة وكاذبة، وأنها لم تتجاوز الخط البتة. لكنهم خسروا القضية، ولم تعد لحججهم قيمة بعد اعتراف تامينا. وهكذا راح فريق الكناري يصرخ صرخة النصر. غضب السناجب ونعتوها بالخائنة، ودفعها أحدهم بعنف حتى كاد يسقطها. ولما همّت بضربهم، اتخذوا تصرفها ذريعة فانقضوا عليها. دافعت تامينا عن نفسها، وهي الراشدة القوية (تملّكها الحقد، فأخذت تضرب هؤلاء الأطفال كما لو كانت تضرب كل ما كرهته في حياتها)، والأطفال ينزفون من أنوفهم، لكن حجرا طائشا يصيب جبهتها، فتترنح، وتتحسس رأسها. كان دمها يسيل، فيبتعد الأولاد. يحلّ صمت مفاجئ، وتعود تامينا إلى المرقد بخطى متثاقلة. تتمدّد على سريرها وقد قررت ألا تشارك في الألعاب أبدا.

22

أرى تامينا واقفة وسط المرقد المليء بالأطفال النائمين. كل الأنظار موجّهة إليها. وما إن صاح أحدهم من زاوية: «أثداء، أثداء،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنداء. . .» حتى رددت جوقة الأطفال: «أنداء، أنداء، أنداء. . .» وسمعت تامينا هذا الصياح مكررا.

وما كان إلى عهد قريب فخرها وروحها، أي شعر أسفل بطنها وثدييها الجميلين، صار شتيمة، كما صار كيانها البالغ في نظر الأطفال شيئا مروّعا، إذ أصبح الثديان لا معنى لهما مثل ورم، وأسفل البطن لا إنسانيا بسبب ما يكسوه من شعر، وصار يذكرهم بالدواب.

وها هم يطاردونها. ظلوا يطاردونها عبر الجزيرة، ويرمونها بقطع الخشب والأحجار؛ وكانت تختبئ، وتهرب، وهي تسمع صراخهم من كل صوب: «أنداء، أنداء. . .» لا شيء أكثر إذلالا من هروب القوي من الضعيف. لكن عددهم كان كبيرا. كانت تفرّ وهي خجلى من فرارها.

وذات يوم نصبت لهم كمينا. كانوا ثلاثة، وضربت أحدهم حتى سقط، وفرّ الآخران، إلا أنها كانت أسرع منهما، فأمسكتهما من شعرهما، وعندئذ وقعت عليها شبكة، ثم شباك أخرى. نعم، كل شباك الكرة الطائرة التي كانت منصوبة قرب المرقد. كانوا ينتظرونها هنا، ولم يكن الأطفال الثلاثة الذين ضربتهم سوى طعم. وها هي الآن سجينة بين خيوط الشباك، تتلوى وتتخبط، والأطفال يجرونها خلفهم متصايحين.

23

لم هؤلاء الأطفال خبيثون إلى هذا الحد؟

ليسوا أشرارا البتة. إنهم طيبون، ولا يفتأون يبرهنون على صداقتهم. فليس فيهم من يريد تامينا لنفسه وحده. كان يسمع صياحهم في كل لحظة «انظر، انظر». وظلت تامينا حبيسة الخيوط المتشابكة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التي تمزق جلدها، والأطفال يشيرون إلى دمها ودموعها ومعالم الألم المرتسمة على وجهها. كانوا يقدّمونها بسخاء بعضهم إلى بعض، بحيث أضحت هي رباط أخوَّتهم.

لا يكمن شقاؤها في قساوة الأطفال، بل في كونها موجودة خارج حدود عالمهم. فالناس لا يثورون لذبح العجول في المجازر، لأن العجل في نظرهم يقع خارج القانون، وبالمثل فتامينا تقع خارج قانون الأطفال.

وإذا كان ثمة من يقطر حقدا، فليس الأطفال، بل تامينا؛ لأن رغبتهم في الإيذاء رغبة إيجابية ومرحة، تستحق أن تسمى عن حقّ فرحا. وهم إن كانوا يرغبون في إيذاء من يوجد خارج عالمهم، فذلك فقط من أجل تمجيد ذلك العالم والإشادة بقانونه.

24

يعمل الزمن عمله، فكل الأفراح والتسليات يستنفذها التكرار، بما في ذلك مطاردة تامينا. ثم إن الأولاد ليسوا أشرارا في الحقيقة. فالطفل الصغير الذي بال عليها لما كانت تحته أسيرة الشباك، ربما ابتسم لها يوما ابتسامة بريئة رائعة.

وعادت تامينا إلى مشاركهم اللعب من جديد، ولكن بصمت. ومن جديد أخذت تقفز من مربع لآخر، على رجل أولا، ثم على الأخرى، وبعد ذلك على الرجلين معا. أبدا لن تعاود الدخول إلى عالمهم. لكنها ستحرص على ألا تجد نفسها خارجه. ومضت تبذل جهدا لتظل على الحدود تماما.

غير أن هذا الهدوء، وهذا التطبيع، وهذا النمط من العيش القائم على التسوية، كل ذلك بعث في نفوسهم كراهية الثبات. وإذا كانت حياة الطريدة قد جعلت تامينا تنسى وجود الزمن ورحابته، فإن صحراء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الزمن الآن، وقد زالت حدة الهجمات، أخذت تلوح من الغبش بغيضة ومرهقة، مثل الخلود.

انقشوا هذه الصورة في أذهانكم: على تامينا أن تقفز من مربع إلى آخر على رجل، ثم على الأخرى، وبعد ذلك على الرجلين معا، مع اعتبار تجاوز الخط أو عدم تجاوزه أمرا ذا أهمية بالغة. عليها أن تقفز يوما بعد يوم حاملة على عاتقها عبء الزمن مثل صليب يزداد ثقله يوما بعد يوم.

أكانت تنظر إلى الخلف؟ أكانت تفكر في زوجها وفي براغ؟ كلا. ليس الآن.

25

كانت أطياف التماثيل تطوف حول المنصة حيث كان يجلس رئيس النسيان وقد أحاط عنقه بمنديل أحمر. وكان الأطفال يصفقون ويهتفون باسمه.

لقد مرت على هذه الواقعة ثمانية أعوام، وما تزال كلماته تتردد في ذهني كما لو كانت تصلني عبر أغصان التفاح المزهرة. كان يقول: «يا أبنائي، أنتم المستقبل»، وأدرك اليوم أن هذه الكلمات كانت تحمل معنى آخر غير ذاك المباشر الذي كان ظاهرا للوهلة الأولى. فالأطفال ليسوا المستقبل لأنهم سيصبحون يوما راشدين، بل لأن الإنسانية ستقترب أكثر فأكثر من الطفل، ولأن الطفولة هي صورة المستقبل.

كان يصيح: «يا أبنائي لا تنظروا إلى الخلف أبدا.» وهذا معناه أنه ينبغي ألا نسمح بأن يرزح المستقبل تحت ثقل الذاكرة، لأن الأطفال أيضا لا ماضي لهم، وهنا يكمن سر براءة ابتسامتهم الساحرة.

إن التاريخ سلسلة من التغيرات العابرة. أما القيم الخالدة التي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تستمر خارج التاريخ، فتظل ثابتة ولا تحتاج إلى ذاكرة. لذلك تهيأ لـ«هوساك» وأتباعه أنه رئيس الخلود، لأنه بجانب الأطفال، والأطفال هم الحياة، والحياة هي «البصر والسمع واللمس والشرب والأكل والتبول والتغوط والغطس في الماء والنظر إلى السماء والضحك والبكاء.»

ويبدو أن «هوساك» لما أنهى خطبته أمام الأطفال (وكنت قد أغلقت النافذة، ووالدي يتأهب لامتطاء جواده) أفسح المكان لـ«كاريل كلوس» في المنصة، فشرع يغني. ذرف «هوساك» دموعا على خده من التأثر، وكانت الابتسامة المشرقة على كل الوجوه تنعكس في دموعه. وفي هذه الأثناء ارتسم في سماء براغ منحنى قوس قزح.

رفع الأطفال رؤوسهم، فرأوا قوس قزح، فطفقوا يضحكون ويصفقون. أنهى غبيّ الموسيقى أغنيته، ففتح رئيس النسيان ذراعيه، وأخذ يصيح: «يا أبنائي، الحياة سعادة!»

26

تردد في أرجاء الجزيرة صوت أغنية وضجيج قيثارة كهربائية. كان ثمة جهاز تسجيل موضوع في ميدان اللعب أمام المرقد، وإلى جانبه وقف صبي تعرفت فيه تامينا على ملامح الطفل الذي أتى بها إلى الجزيرة، فأخذت حِذرها. فإذا صحّ أنه هو فعلا، فلا شك أن القارب راسٍ على الشاطئ، ومن ثمة أدركت أن عليها ألا تدع الفرصة تفوت. أخذ قلبها يدق بشدة، ولم تعد تفكر في شيء سوى الهروب.

كان الطفل يحدق في جهاز التسجيل وهو يحرك ردفيه، وما لبث الأطفال أن لحقوا به، وراحوا يمدون أذرعهم إلى الأمام، الواحد تلو الآخر، ثم يديرون رؤوسهم إلى الخلف وهم يشيرون بسباباتهم كما لو كانوا يهددون أحدا، فتمتزج هتافاتهم بالأغنية المنبعثة عن الجهاز.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اختبأت تامينا خلف جذع شجرة جميز ضخم، محاذرة أن يروها، لكنها لم تكن تقو على تحويل بصرها عنهم. فقد كانوا يتصرفون بغنج مثير مثل غنج الكبار، يلوون خصورهم إلى الأمام ثم إلى الخلف وكأنهم يحاكون حركات الجماع، فأزال فجور الحركات التي أضفيت على أجسادهم الصغيرة التناقض بين الفسق والبراءة، وبين النجاسة والصفاء. وغدت الشهوة عبثا، والبراءة عبثا، وتفسخت الكلمات، فشعرت تامينا بالانزعاج، وأحست كما لو كان في معدتها كيس فارغ.

وتدوي حماقة القيثارة، ويواصل الأطفال رقصهم وهم يرسلون بطونهم إلى الأمام بميوعة، فشعرت بانزعاج يصدر من أشياء لا أهمية لها. ولم يكن ذلك الكيس الفارغ في معدتها غير انتفاء الثقل الذي لا يطاق. ومثلما يمكن أن ينقلب كل حدّ إلى نقيضه، فإن الخفة التي بلغت منتهاها استحالت إلى ثقالة خفّة رهيبة، وكانت تامينا تدرك أنها لن تستطيع تحملها لثانية إضافية. التفتت إلى الجهة المقابلة، وراحت تركض.

سلكت الممر باتجاه الماء. ها هي الآن على الشاطئ، تنظر حولها فلا تجد القارب. ومثلما فعلت في اليوم الأول، ركضت عبثا على امتداد الشاطئ لعلها تجده. وأخيرا تعود إلى حيث يتجه ممر الجميز إلى الشاطئ، فترى صبية مهتاجين يركضون من تلك الناحية. تقف، فيراها الأطفال ويتجهوا نحوها صائحين.

27

قفزت تامينا إلى الماء. ولم يكن ذلك بفعل الخوف، بل لأنها كانت تفكر في ذلك منذ زمن بعيد. وعلى أي حال لم تكن الرحلة بالقارب إلى الجزيرة طويلة. وبالرغم من أن الضفة الأخرى لا تظهر، فإن بلوغها لا يتطلب جهدا خارقا!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هرع الأطفال متصايحين إلى المكان الذي ارتمت منه تامينا في الماء، وما لبثت بعض الحجارة أن تساقطت بجوارها، لكنها كانت تسبح بسرعة. وما هي إلا لحظات حتى أصبحت خارج متناول أيديهم الضعيفة.

كانت تسبح لأول مرة منذ زمن بعيد جدا، وشعرت بالانتشاء. شعرت بجسدها وبقوتها القديمة. لقد كانت دائما سباحة ماهرة، وكانت حركاتها مبعث لذة. وبالرغم من أن الماء كان باردا، فإنها ظلت تستلذ تلك البرودة كما لو كانت تغسل بشرتها من قذارة الأطفال، ومن لعابهم ونظراتهم.

ظلت تسبح لفترة طويلة، والشمس قد شارفت على المغيب، ثم حلّ الليل واشتد الظلام، ولم يكن ثمة قمر ولا نجوم. وبذلت تامينا ما في وسعها لتتبع الاتجاه نفسه.

28

إلى أين كانت تريد الرجوع؟ إلى براغ؟

لقد نسيت حتى وجودها.

إلى المدينة الصغيرة الواقعة في غرب أوروبا؟

كلا، كانت تريد الذهاب فحسب.

أيعني هذا أنها ترغب في الموت؟

كلا، ليس هذا. على العكس كانت رغبتها في الحياة شديدة.

لكن، ينبغي على الأقل أن تكون لها فكرة عن العالم الذي تريد العيش فيه!

لم تكن عندها أي فكرة. كل ما تبقى لها لا يعدو أن يكون ظمأ رائعا للحياة، ولجسدها. لم يتبق لها سوى هذين الشيئين لا أكثر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت تريد أن تنتزعهما من الجزيرة لإنقاذهما. جسدها وهذا العطش إلى الحياة.

29

بدأ النهار يطلع، فأطبقت عينيها قليلا لعلها ترى الضفة قبالتها، لكنها لم تر شيئا أمامها، لا شيء غير الماء. نظرت خلفها فرأت شاطئ الجزيرة الخضراء على بعد مائة متر تقريبا. كيف؟ أسَبَحتْ طول الليل في مكانها! انتابها الإحباط، وما إن فقدت الأمل حتى تسرب الضعف إلى أعضائها، ولم تعد تطيق برودة الماء. أغمضت عينيها واستجمعت ما بقي لها من قوة لمواصلة السباحة. وهي الآن لا تأمل في بلوغ الضفة الأخرى، بل لم تعد تفكر إلا في الموت، وتمنّت لو تموت في مكان ما وسط الماء، بعيدا عن العيون، وحيدة مع الأسماك. أغلقت عينيها لأنها غفت قليلا، فامتلأت رئتاها ماء، وأخذت تسعل وتختنق، وتناهت إلى سمعها فجأة أصوات طفولية.

ظلت في مكانها تسعل وتنظر حولها، وعلى مسافة قصيرة منها كان ثمة قارب يحمل أطفالا. كانوا يصيحون، ولما لاحظوا أنها رأتهم، صمتوا. كانوا يقتربون منها دون أن يحولوا أبصارهم عنها. وكانت ترى اهتياجهم الشديد.

خافت أن يهبوا لإنقاذها وإجبارها على اللعب معهم كما كان الأمر في السابق. وشعرت بالتعب وبتصلب في أعضائها.

دنا القارب كثيرا، وانحنت خمسة وجوه طفولية تحدق إليها بلهفة. ومضت تامينا تحرك رأسها بيأس وكأنها تترجاهم أن يتركوها تموت، لكن خوفها كان بلا فائدة، لأن الأولاد لم يقوموا بأي حركة، ولم يمد لها أحد يدا أو مجدافا، ولم يعمد أحد إلى إنقاذها. كانوا يكتفون بالنظر إليها بعيونهم الجاحظة الجشعة، وظلوا يراقبونها. بل إن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صبيا جعل من المجداف دفة للقارب، وأوقفه عند أقرب مكان منها. تسرب الماء من جديد إلى رئتيها، فأخذت تسعل وتحرك يديها مدركة أنه لم يعد بوسعها أن تظل على السطح. وأخذت قدماها تثقلانها أكثر فأكثر، وتسحبانها إلى الأسفل.

أخذ رأسها يغرق، فقامت بحركات عنيفة مكنتها من الطفو على سطح الماء عدة مرات، وفي كل مرة كانت ترى القارب وعيون الأطفال تراقبها، ثم اختفت تحت الماء.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

الجزء السابع

الحدود

1

ما كان يهمه أكثر في النساء أثناء الجماع هو وجوههن. كان الأمر كما لو أن حركة الجسدين بكرة سينمائية تسلّط على شاشة الوجه فيلما مشوقا، مليئا بالاضطرابات والانتظارات والانفجارات والآلام والصراخ والعواطف والأحقاد. ووحده وجه إدفيج كان شاشة مطفأة ينظر إليها يان بإمعان، وتعذّبه أسئلة لا يجد لها جوابا تعذبه: أينتابها الضجر معه؟ أكانت متعبة؟ أكانت تضاجعه مرغمة؟ أكانت معتادة على عشّاق أفضل منه؟ أم أن تحت صفحة وجهها الثابتة تختفي إحساسات لا عهد له بها؟

كان بوسعه طبعا أن يسألها عن ذلك، ولكن شيئا فريدا وقع لهما. كانا دائما ثرثارين، ومنفتحين على بعضهما، لكن ما إن يتعانق الجسدان العاريان حتى يفقدا الرغبة في الكلام.

لم يستطيعا أبدا تفسير مبعث هذا الخرس المباغت الذي يصيبهما. قد يكون ذلك راجع إلى أن إدفيج كانت دائما أكثر مبادرة منه خارج لحظات الجماع. فبالرغم من كونها أصغر منه سنّا، فقد تكلمت في حياتها ثلاثة أضعاف ما تكلّم على الأقل، وكالت من المواعظ والدروس عشرة أضعاف ما فعل. كانت له بمثابة أمّ حنون حكيمة تمدّ له يدها لتقوده في دروب الحياة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وغالبا كان يخيّل إليه أنه يهمس في أذنها كلمات فاحشة أثناء الجماع. ولكن حتى في هذه التخيلات، كانت محاولاته تبوء بالفشل. وظل واثقا من أن ابتسامة لوم وتعاطف ستعلو وجهها، ابتسامة أمّ تنظر إلى صبيها وهو يسرق كعكة ممنوعة عليه.

أو يخيّل إليه أنه يسألها بعفوية: «أيعجبك هذا؟» كان لهذا السؤال البسيط مع النساء الأخريات دائما صدى داعر. وهو إذ يقصد بـ«هذا» تعبيرا لبِقاً عن الجماع، إنما كان يوقظ الرغبة في كلمات أخرى، فتنعكس فيها الشهوة الحسية مثلما هو الشأن في لعبة المرايا. وكان يبدو له مع ذلك أنه يعرف جواب إدفيج مسبقا: طبعا يعجبني، تقول مفسرة له بتأنّ، أتعتقد أنني سأفعل طوعا شيئا أكرهه؟ كن عاقلا يا يان!

إذن لم يكن يقول لها كلمات داعرة، ولم يكن يسألها ما إذا كان ذلك يعجبها. كان يظل صامتا بينما يروح جسداهما يتحركان بشدة ولمدة طويلة، عارضَيْن بكرة سينمائية فارغة.

كثيرا ما تهيّأ له أنه المسؤول عن خرس لياليهما. كان قد شكّل عن إدفيج الحبيبة صورة كاريكاتورية تفصل الآن بينها وبينه، وهو عاجز عن إزاحتها للوصول إلى إدفيج الحقيقية، وبلوغ حواسها وظلماتها الفاحشة. وعلى كل حال، فبعد كل ليلة من لياليهما الخرساء، يتعهّد بعدم مضاجعها مرة أخرى. لم يكن يحبّها حبّ العشيقة، بل كان يحبّها مثل صديقة ذكية ومخلصة لا غنى له عنها. ومع ذلك كان من المتعذّر عليه الفصل بين العشيقة والصديقة. وكانا كلّما التقيا يتحدثان حتى ساعة متأخرة من الليل، تشرب إدفيج، وتبني النظريات، وتلقن الدروس؛ وفي الأخير، عندما يكون يان قد شعر بالإرهاق، تصمت فجأة، وتظهر على محياها ابتسامة هادئة مغتبطة. حينئذ يمدّ يان يده ليلمس نهدها، كما لو كان يمتثل لوحي لا يقاوم، فتقوم من مكانها وتشرع في نزع ملابسها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وغالبا ما يتساءل يان: لِم ترغب في مضاجعتي؟ فيُعييه الجواب. كل ما كان يعرفه هو أن جماعهما الصامت كان قَدَرا محتوما، شبيها بقدر المواطن الذي يقف متأهبا عند سماع النشيد الوطني، حتى ولو كان لا يجد، لا هو ولا الوطن، في ذلك أي متعة.

2

في غضون المئتي سنة الأخيرة، هجر الشحرور الغابة ليقيم في المدينة. كان ذلك في بريطانيا أوّلا، منذ نهاية القرن الثامن عشر، ثم في باريس ومنطقة «الرور» بعد بضع عشرات من السنين. وخلال القرن التاسع عشر، اجتاح المدن الأوروبية الواحدة تلو الأخرى. فاستقر في فيينا وبراغ حوالي سنة 1900، ثم تقدم نحو الشرق حتى بلغ بودابست وبلغراد وإسطنبول.

وبالنظر إلى الكرة الأرضية، يبدو غزو الشحرور لعالم الإنسان أكبر من غزو الإسبان لأمريكا الجنوبية، وأكبر من عودة اليهود إلى فلسطين. إن تغير العلاقات بين مختلف أنواع المخلوقات (الأسماك، الطيور، بني البشر، النبات) هو تغير يقع في مرتبة أعلى من التحولات الواقعة في العلاقة بين المجموعات المختلفة من النوع ذاته. فالأرض لا تأبه بأن يسكن بوهيميا السلتيون أو السلافيون، ويقيم في مولدافيا الرومان أو الروس. لكن أن يهجر الشحرور الطبيعة ويتبع الإنسان إلى عالمه الاصطناعي، فهذا أمر غير طبيعي، لأنه يغير شيئا في نظام الكوكب الأرضي.

غير أن لا أحد يجرؤ على تأويل القرنين الأخيرين بوصفهما تاريخ اجتياح الشحرور للمدن. فنحن جميعا أسرى تصور مسكوك عما هو مهمّ وما ليس كذلك، إذ نركز نظرنا القلِق على المهمّ، بينما خِفيةً،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يشنّ التافه من وراء ظهورنا حربه التي ستغيّر العالم بعمق، وتنقضّ علينا في غفلة منا.

لو كنت أكتب سيرة يان لكان بوسعي أن ألخّص المرحلة التي نتحدث عنها بقولي: إن علاقة يان بإدفيج تشكل مرحلة جديدة في حياته التي قضى منها خمسة وأربعين سنة. فقد ترك أخيرا حياته الجوفاء المفككة، وعقد العزم على مغادرة مدينته بغرب أوربا، للتفرغ لعمل هام بحيوية جديدة في أمريكا، حتى يبلغ فيه فيما بعد إلخ، إلخ...

ولكن، ليقم كاتب سيرة يان بتفسير لِمِ كان الكتاب المفضّل لديه في هذه المرحلة بالذات هو رواية «دافنيس وكلوي» الإغريقة! وهي تروي حكاية شابين، فتى وفتاة، لم يتجاوزا بعد مرحلة الطفولة، تحابا وهما لا يعرفان معنى الشهوة الجنسية. يمتزج ثغاء كبش بهدير البحر، ويمضي خروف يرعى العشب في ظل زيتونة. يتمدّد العشيقان جنبا إلى جنب عاريين ومفعمين برغبة مبهمة. يتعانقان ويتضامان وقد تشابكا بقوة. ظلا على هذه الحال مدة طويلة، لأنهما لا يدريان ما بوسعهما فعله أكثر من ذلك. فهما يظنان أن هذا العناق هو الهدف الوحيد من الغرام. هما مهتاجان، قلباهما يدقان بشدة، لكنها لا يعرفان معنى الجماع. نعم، إن يان مغرم بهذا المقطع.

3

كانت حنّة الممثلة تشبك رجليها تحتها مثلما تشبكهما تماثيل بوذا المعروضة في محلات بيع التحف القديمة في جميع أنحاء العالم. وكانت تتكلم بلا توقف وهي تنظر إلى إبهامها يذهب ويجيء ببطء على حافة طاولة صغيرة موضوعة بالقرب من الأريكة.

لم تكن تلك حركة آلية من حركات الأشخاص المتوترين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المعتادين على الضرب بأرجلهم بإيقاع، أو حك رؤوسهم. كانت حركةً واعية ومقصودة، خفيفة ورشيقة؛ ترسم حول نفسها حلقة سحرية تطوّقها بكاملها، تمكّنها من التركيز على ذاتها، وتجعل الآخرين يركزون عليها.

كانت تتابع حركة إبهامها بالتذاذ، وترفع عينيها أحيانا إلى يان الجالس قبالتها. كانت تحكي له بأنها أصيبت بانهيار عصبي بسبب فرار ابنها المقيم مع طليقها، وغيابه عن البيت لأيام عديدة. وكان أبوه من القسوة بحيث نقل لها الخبر بالهاتف قبل نصف ساعة من انطلاق العرض، فأصيبت بالحمى والصداع ورشح دماغي. وقالت: «لم أكن أستطيع أن أمخط لفرط الألم الذي كنت أشعر به في أنفي!» ثم حدقت بعينيها الواسعتين الجميلتين وأضافت: «كان أنفي أشبه بالقرنبيط!»

كانت ابتسامتها ابتسامة امرأة تعلم أن أنفها، وإن احمرّ بالزكام، لا يعدم الجمال. وكانت تعيش في تناغم تام مع نفسها. كانت تحبّ أنفها مثلما تحب جرأتها التي تجعلها تسمي الزكام زكاما، والأنف قرنبيطا. فجمال الأنف القرمزي تكمّله الجرأة الفكرية، وحركة الإبهام الدائرية تجمع داخل حلقتها السحرية الجمالَيْن معا، معبّرة بذلك عن وحدة شخصيتها.

«كنتُ متوترة لأن الحمى اشتدت بي. أتدري ما قال لي الطبيب؟ قال: ليس لي غير نصيحة واحدة أقدمها لك يا حنّة: لا تقيسي حرارتك!»

ضحكت حنّة طويلا وبصوت مرتفع من دعابة طبيبها، ثم قالت: «أتعلم إلى من تعرفت؟ تعرفت إلى باسير!»

كان باسير صديقا قديما ليان، وآخر مرة رآه فيها تعود لشهور خلت. كان سيجري عملية جراحية. وكل من يعرفونه كانوا يعلمون أنه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مصاب بسرطان، ووحده باسير، المفعم بالحيوية والسذاجة، كان يصدّق مزاعم الأطباء. وقد كانت العملية المرتقبة شديدة الخطورة، وقال ليان لما ألفيا نفسيهما منفردين: «بعد العملية لن أعود رجلا. أتفهم؟ حياتي كرجل انتهت.»

وتابعت حنّة: «التقيته الأسبوع الماضي في منزل كليڤيس بالريف. إنه رجل رائع! هو أصغرنا سنا! إنني أحبه!»

كان خبر حب الممثلة الفاتنة لصديقه سيسعده. لكن ذلك لم يُثر انتباهه، لأن باسير كان محبوبا لدى الجميع. فقد ارتفعت أسهم شعبيته بسبب ما قام به من نشاطات اجتماعية، وأصبح الإطراء عليه طقسا يُؤدّى خلال شتات ثرثرة عشاءات المدينة.

«أتعرف الغابة الجميلة المحيطة بڤيلا آل كليڤيس، هناك ينبت الفطر، وأنا أعشق الفطر! قلت لهم: من يرافقني لجمع الفطر؟ فلم يستجب أحد غير باسير الذي قال: أنا أرافقك! أتتصور هذا؟ باسير، الرجل المريض! صدقني إنه أصغرنا سنا!»

نظرت إلى أصبعها الذي لم يتوقف عن رسم دوائر على حافة الطاولة، ثم قالت: «فذهبت إذن مع باسير لجمع الفطر. كان ذلك رائعا! تُهنا في الغابة، وبعد ذلك عثرنا على حانة؛ كانت حانة ريفية صغيرة وقذرة. هكذا أنا أحب المقاهي، ففيها يستطيع المرء أن يشرب نبيذا أحمر بثمن بخس. كان باسير عظيما. إنني أحبه!»

4

في الفترة التي أتحدث عنها، تعج شواطئ غرب أوروبا صيفا بالنساء اللواتي لا ترتدين حمالات الصدر. وينقسم الناس بين مؤيد ومعارض للأثداء العارية. كانت عائلة كليڤيس المكونة من الأب والأم وابنتهما ذات الأربعة عشر ربيعا جالسين أمام التلفاز يتابعون برنامجا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يشارك فيه ممثلو التيارات الفكرية السائدة آنذاك، ويستعرضون حججهم المؤيدة والمعارضة لحمّالة الصدر. أما المحلل النفسي، فراح يدافع باستماتة عن الأثداء العارية، ويتحدث عن تحرير العادات الذي يحررنا بدوره من إسار الاستيهامات الجنسية. أما الماركسي فحوّر النقاش بدهاء، ودون أن يخوض في موضوع حمالة الصدر (لأن الحزب الشيوعي يضم في صفوفه متزمتين ومتحررين، ولم يكن من اللائق تأليب فريق على فريق) مضى يتحدث عن أخلاق المجتمع البرجوازي القائمة على النفاق. ووجد ممثل الفكر المسيحي نفسه مجبرا على الدفاع عن حمّالة الصدر. لكنه فعل ذلك بخجل شديد، لأنه لم يكن بمنأى عن روح العصر الحاضرة في كل مكان، ولم يجد للدفاع عن حمالة الصدر غير حجة واحدة، وهي براءة الأطفال، لأن مجرد سماعها يلزمنا باحترامها وحمايتها. وانبرت امرأة متحمّسة للرد عليه قائلة بأنه صار من الواجب القضاء على منع العري منذ الطفولة، ودعت الآباء إلى التجول عراة في منازلهم.

لم يصل يان إلى بيت كليڤيس إلا عند إعلان المذيعة عن نهاية البرنامج. لكن الحماس ظل قائما في البيت لفترة طويلة. لقد كان أفراد أسرة كليڤيس متفتحين. لذلك كانوا مناوئين لحمّالة الصدر. فما تقوم به ملايين النساء عندما تقذفن قطعة اللباس تلك بعيدا، كما لو يمتثلن لأمر، هو أنهن يرمُزن للإنسانية وهي تتخلص من عبوديتها. وهكذا أخذت نساء بأثداء عارية تعبُر منزل كليڤيس مثل كتيبة خفيّة من المحرِّرات.

كانت أسرة كليڤيس كما أسلفت متفتّحة وأفكارها تقدميّة. هناك أنواع كثيرة من الأفكار التقدميّة، وأفراد أسرة كليڤيس يدافعون دائما عن أفضل فكرة تقدمية ممكنة. وأفضلها هي تلك التي تتضمن قدرا كبيرا من الاستفزاز بحيث يشعر المدافع عنها بأصالته. لكنّها تستقطب في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الوقت نفسه عددا كبيرا من المنافسين، بحيث لا يلبث الشعور بالتفرد أن تفسده العامة باستحساناتها الضاجة. فلو كان أفراد أسرة كليڤيس ضدّ اللباس عامة وليس فقط ضد حمالة الصدر، ويدعون إلى أن يتجول الناس عراة في الشوارع، لكانوا بلا شك يدافعون عن فكرة تقدمية. ولكنها ليست الفكرة الفضلى الممكنة. كانت الفكرة ستبدو مزعجة لِما فيها من غلو، ويستلزم الدفاع عنها طاقة كبيرة (هذا في الوقت الذي لا تحتاج فيه الفكرة التقدمية المثلى لمن يدافع عنها)، ولن يحظى مؤيدوها يوما برؤية فكرتهم المرفوضة وقد تبنّاها الجميع.

بينما كان يان يصغي لإدانة حمالة الصدر، تذكّر آلة صغيرة من الخشب تسمى مسواة بفقاعة هواء(*)، كان يضعها جده -الذي كان بناءً- على الجدران قيد البناء. وسط هذه الآلة، وتحت صفيحة صغيرة من الزجاج، كان ثمة ماء وفقاعة هواء تشير إلى استواء صف الطوب أفقيا. إن أسرة كليڤيس تمثل مسواة ثقافية. فعند وضعها على فكرة من الأفكار، يمكن التأكد ممّا إذا كانت الفكرة التقدمية هي المثلى الممكنة.

لما أعادت أسرة كليڤيس على مسامع يان، وكانوا يتكلمون جميعا دفعة واحدة، وقائع النقاش الذي دار في التلفزة، مال عليه كليڤيس الأب وقال له بنبرة مرحة: «ألا ترى أن هذا إصلاح ينبغي أن نناصره إذا تعلق الأمر بالصدور الجميلة؟»

ولكن لِم عمد كليڤيس الأب إلى التعبير عن أفكاره بهذه العبارات؟ لقد كان ربّ أسرة مثالي، وكان يجهد نفسه دائما لكي يعثر

(*) المقصود ميزان الزئبق، وهو عبارة عن قطعة خشبية مستطيلة في وسطها زجاجة تحتوي على ماء أو زئبق، وفيها فقاعة هواء، ويستخدمه البناؤون للتأكد من أن البناء على مستوى واحد. (المترجم)

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على العبارة اللائقة التي تُرضي جميع الحاضرين. ولما كان يان معروفا بحبّ النساء، لم يعبر كليڤيس عن تأييده للأثداء العارية بالمعنى الصائب العميق، أي كحماس أخلاقي يهدف إلى القضاء على عبودية دامت آلاف السنين، بل كتسوية (مراعاة لذوق يان المفترض، وليس قناعة كليڤيس الأب الخاصة) أو كاتفاق جمالي حول جمال ثدي ما.

وكان يريد في الآن نفسه أن يكون دقيقا وحذرا كديبلوماسي: لم يجرؤ على القول صراحة إن على الأثداء القبيحة أن تظل مستورة. ودون التصريح بهذه الفكرة غير المقبولة، فقد تجلّت الفكرة بوضوح من الجملة، وبدت فريسة سهلة للمراهقة ذات الأربعة عشر ربيعا: «وبطونكم أنتم؟ كروشكم الضخمة التي تتجولون بها على الشواطئ دون حياء!»

انفجرت كليڤيس الأم ضاحكة، وصفّقت لابنتها: «برافو!»

انضم الأب كليڤيس إلى الأم، وصفق بدوره. أدرك بسرعة أن ابنته محقّة، وأنه وقع مرة أخرى ضحية نزوعه المشين إلى التسوية الذي طالما لامته عليه زوجته وابنته. كان رجلا مصالحا بحيث لا يدافع عن مواقفه المعتدلة إلا باعتدال كبير. وسرعان ما سلّم بالأمر معترفا بصواب رأي ابنته المتطرّفة. وعلى أي حال، فإن الجملة المُدانة لا تعبّر عن فكرته الشخصية بقدر ما تعبّر عن موقف يان المفترض. وهذا ما سهّل عليه الانضمام إلى رأي ابنته بتلقائية وبلا تردد، وبرضى أبوي.

وواصلت المراهقة متشجعة بتصفيقات أبويها: «أتعتقدون أننا ننزع حمالات صدورنا إكراما لكم؟ نحن نفعل ذلك لأجل أنفسنا، لأن ذلك يعجبنا، لأننا نجد هذا أفضل، لأننا نجد أجسادنا هكذا أقرب من الشمس! أنتم عاجزون عن النظر إلينا إلا كمواضيع جنسية!»

صفق الأب والأم من جديد، لكن تشجيعاتهما هذه المرّة كانت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لها نبرة مختلفة قليلا. فقد كان كلام ابنتهما صائبا، لكنهما وجداه في غير محلّه بالنظر إلى سنّها. كان الأمر أشبه بما لو أن طفلاً في الثامنة أعلن: لو تعرضنا لسرقة بالعنف، فسأدافع عن أمّي. وفي هذه الحالة أيضا سيصفق الأبوان، لأن كلام الابن يستحق كل إطراء بلا شك. ولكن، ما دامت الطفلة تُظهر ثقة مغالية بالنفس، فقد شُفع الإطراء بابتسامة خاصة. وبابتسامة مماثلة أرفق الأبوان كليڤيس تشجيعهما الثاني، فكررت المراهقة -التي سمعت هذه الابتسامة فلم ترقها- بإصرار مزعج: «انتهى هذا الأمر. لن أصير موضوعا جنسيا لأحد.»

ودون أن يبتسما، اكتفى الأبوان بتحريك رأسيهما دلالة على مجاراتها فيما تقول، حتى لا يدفعانها إلى مزيد من الكلام. لكن يان لم يتمالك نفسه وقال: «يا بُنيّتي، لو تعلمين كم هو سهل ألا تكوني موضوعا جنسيا.»

قال هذه الجملة ببطء وبنبرة حزينة صادقة جعلتها تتردد في أرجاء الحجرة. وكانت جملة يتعذّر الصمت بعدها، كما لم يكن ممكنا الردّ عليها. وبما أنها لم تكن فكرة تقدمية، فلم تكن تستحق الإثبات، مثلما لم تكن تستحق الجدل، لأنها لم تكن تعارض التقدم بوضوح. لقد كانت أسوأ فكرة ممكنة، لأنها تقع خارج النقاش الذي تفرضه روح العصر. كانت فكرة فوق الخير والشر. فكرة غير لائقة تماما.

حل الصمت، وكان يان يبتسم بانزعاج وكأنه يعتذر عما بدر منه. ثم جعل كليڤيس الأب، الذي يتقن فن مدّ الجسور بين أصدقائه، يتحدث عن باسير صديقهم جميعا. واتحدوا في التعبير عن إعجابهم به: كان أرضا بلا مخاطر. أطرى كليڤيس على تفاؤل باسير، وتحدث عن حبّه الثابت للحياة الذي لم تستطع أي حِمية علاجية خنقه. ومع ذلك كان وجود باسير رهينا بشريط ضيق من الحياة لا وجود فيه للمرأة ولا للأطباق اللذيذة ولا للكحول؛ ولا وجود فيه للحركة ولا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للمستقبل. كان قد زارهم قبل أيام في منزلهم الريفي، وصادف عندهم الممثلة حنّة التي كانت هي أيضا في زيارتهم.

كان يان فضوليا لاكتشاف ما تشير إليه مسواة كليڤيس ذات فقاعة الهواء الموضوعة على الممثلة حنّة، والتي لاحظ لديها أعراض أنانية تكاد لا تطاق. لكن الآلة تشير إلى أن يان أخطأ التقدير. ذلك أن كليڤيس أشاد بالكيفية التي تصرفت بها الممثلة مع باسير، بحيث لم تُعنَ إلا به، وبدت كريمة معه، مع العلم أنها تعرضت لمأساة مؤخرا.

فاستفسر يان مندهشا: «أي مأساة؟»

كيف، ألم يكن يعلم ذلك؟ ابن حنّة فرّ من البيت، وظل غائبا عدة أيام! فأصيبت بانهيار عصبي! لكنها مع ذلك لم تفكر في نفسها أمام باسير المهدّد بالموت. كانت تريد أن تنتزعه من همومه، فأخذت تصرخ ببهجة: «يسعدني كثيرا أن أذهب لجمع الفطر! من يريد مرافقتي؟» انضم إليها باسير، ورفض الآخرون مرافقتها، لأنهم ظنّوا أنه يريد الاختلاء بها. مشيا في الغابة لثلاث ساعات، وتوقفا في حانة لشرب نبيذ أحمر. وباسير لم يكن مسموحا له لا بالتنزه ولا بشرب الكحول. وعاد إلى البيت متعبا، لكنه كان سعيدا. وفي اليوم التالي تدهورت صحته، فنُقل إلى المستشفى.

5

قال يان في نفسه: في بداية حياة الإنسان الجنسية، يشعر بالتهيّج دون لذة، وفي نهايتها، تحصل اللذة دون تهيّج. التهيّج بلا متعة هو «دفنيس»، والمتعة دون تهيّج هي البائعة في محل للأدوات الرياضية المؤجرة.

لما تعرف عليها منذ عام، ودعاها إلى بيته، قالت له جملة لا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تنسى: «إن ضاجعتك، سيكون ذلك رائعا من الناحية التقنية، لكنني لست متأكدة من الناحية العاطفية.»

قال لها فيما يخصه هو، لِتكُنْ متأكدة من أن لا مشكلة من الناحية العاطفية؛ وقبلت هذه الضمانة مثلما اعتادت أن تقبل ضمانة كراء أدوات التزلج في المحلّ، ولم تنبس بكلمة حول العواطف. بالمقابل، أنهكته من الناحية التقنية.

كانت متشددة في نشوة الجماع. فقد كانت بالنسبة لها عقيدة وهدفا، وضرورة قصوى للنظافة ورمزا للصحة. بل كانت نشوة الجماع هي كبرياءها الذي يميزها عن النساء الأقل حظوة مثلما يميز يخت فاخر مالكه أو خطيب مشهور خطيبته.

ولم يكن من اليسير إمتاعها. كانت تصيح به «أسرع، أسرع»، ثم «بهدوء، بهدوء»، ثم «بقوة، بقوة»، مثلما يصيح المدرّب بمجدّفي قارب رياضي. كانت توجه يده إلى المكان المناسب في الوقت المناسب وهي مركِّزة على النقاط الحساسة من جسدها. أما هو فكان يتصبب عرقا بينما يراقب نظرات المرأة المتلهّفة، وحركات جسدها المحمومة، ذلك الجسد الشبيه بآلة متحركة قادرة على إنتاج انفجار صغير هو معنى وغاية كل شيء.

حين خرج من عندها في المرة الأخيرة، تذكر «هيرتز»، وهو مخرج أوبرا في مدينة تقع وسط أوروبا، حيث أمضى هو شبابه. وكان «هيرتز» هذا يجبر المغنيات على أداء أدوارهن خلال التمارين الخاصة بالمسرح عاريات. وحتى يتأكد من صحّة وضع أجسادهن، كان يلزمهن بإدخال قلم في دُبرهن، بحيث يظل القلم بارزا بأتجاه أسفل عمودهن الفقري، ممّا يمكّن المُخرج المتشدد من مراقبة مشية المغنية وحركتها وقوامها بدقة علمية.

وذات يوم تشاجرت معه مغنية السوبرانو، وشكته إلى الإدارة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فدافع «هيرتز» عن نفسه قائلا إنه لم يُهِن المغنيات يوما، وأنه لم يمسّ إحداهنّ أبدا. كان قوله صحيحا، لكن مسألة القلم بدت مشينة، واضطر «هيرتز» إلى مغادرة مسقط رأس يان والفضيحة تطارده.

أصبحت هذه الحادثة شهيرة، وبفضلها بدأ يان يتردد على الأوبرا منذ سن مبكر. كان يتخيل كل المغنيات اللواتي يقمن بحركات مثيرة، ويقلبن رؤوسهن ويفتحن أفواههن، عاريات. كانت الأوركسترا تئنّ، فتسمك المغنيات بالجانب الأيسر من صدورهن، ويتخيل هو الأقلام بارزة من مؤخراتهن العارية، فيشتدّ خفقان قلبه بحيث تهيّجُه إثارة «هيرتز»! (وحتى اليوم ما زال لا يرى الأوبرا إلا بهذه الشاكلة، وحتى اليوم لا يذهب إلى الأوبرا إلا بمشاعر شابّ تسلّل خفية إلى مسرح بورنوغرافي.)

كان يان يقول في نفسه: إن «هيرتز» خيميائي رذيلة بارع. فقد وجد في القلم المركوز في الدبر صيغة سحرية للإثارة الجنسية. وكان يشعر بالخجل أمامه: ما كان «هيرتز» ليرضى بما قام به هو من جهد شاق على جسد العاملة بمحل تأجير الأدوات الرياضية.

6

ومثلما جرى اجتياح الشحارير في خلفيّة التاريخ الأوروبي، تجري قصتي في خلفية حياة يان. فأنا أنسجها انطلاقا من أحداث معزولة لم يُعرها يان في الأغلب أيّ اهتمام، لأن واجهة حياته كانت مشغولة بأحداث ومشاغل أخرى: عُرِضت عليه وظيفة في أمريكا، وحياة مهنية محمومة، ثم التحضير للسفر.

التقى مؤخرا ببارابرا في الشارع، وسألته بنبرة معاتبة عن سبب إعراضه عن دعواتها له إلى الحفلات التي تنظمها، إذ كان منزلها مشهورا بتنظيم حفلات جنسية جماعية مسلّية. وقد ظل يان يرفض

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لسنوات دعواتها خوفا على سمعته. لكنه هذه المرة ابتسم وقال: «سآتي بكل فرح». كان يعلم أنه لن يعود ثانية إلى هذه المدينة، وبالتالي لم يعد هناك داع للتّستر. وتخيل منزل باربرا حاشدا بأناس عراة مبتهجين، وقال في نفسه لا بأس من أن تكون هذه الأمسية احتفالا برحيله.

فيان كان يتأهب للسفر، إذ سيعبر الحدود بعد أشهر. وما إن تذكر الحدود، المستعملة هنا بالمعنى الجغرافي، حتى تبادرت إلى ذهنه حدود أخرى لامادية يتعذر لمسها، بدأت تشغل باله أكثر فأكثر.

أي حدود؟

كانت تقول المرأة التي أحبها أكثر من غيرها (وكان حينها في الثلاثين من العمر) إن ما يربطها بالحياة خيط رفيع (وكان قولها ذلك يشعره باليأس). نعم كانت ترغب في الحياة لأن الحياة كانت تُشعرها ببهجة كبيرة، لكنها كانت تدرك أن هذه الرغبة في الحياة منسوجة بخيط عنكبوت. فقد كان يكفي أبسط شيء لتجد نفسها في الجانب الآخر من الحدود حيث يصير كل شيء بلا معنى: الحب والاقتناعات والإيمان والتاريخ. ولعلّ سرّ الحياة الإنسانية يكمن في أنها تجري على مقربة وفي تماس مباشر مع هذه الحدود، لا تفصلها عنها الكيلوميترات، بل بالكاد ميلليمتر واحد.

7

لكل إنسان سيرتان جنسيتان. ولا يجري الحديث في الغالب إلا عن الأولى التي تتألف من قائمة علاقات ولقاءات غرامية. غير أن أهمهما بلا شك هي السيرة الأخرى: موكب النساء اللواتي رغبنا فيهن، لكنهنّ أفلتن منا؛ أي التاريخ المؤلم للإمكانات التي لم تتحقق.

غير أن هناك فئة ثالثة من النساء، فئة غامضة ومقلقة. إنهنّ أولئك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اللائي أثرن إعجابنا، ونلنا إعجابهن، لكننا سرعان ما أدركنا تعذّر الحصول عليهن، لكوننا نوجد في الجانب الآخر من الحدود.

كان يان مستغرقا في القراءة بالقطار، فجاءت فتاة جميلة لا يعرفها وجلست قبالته في المقصورة نفسها (وهو المقعد الوحيد الفارغ) وحيّته بإيماءة من رأسها. حيّاها بدوره، وراح يفكر أين تعرّف بها. ثم عاد إلى قراءة كتابه، لكنه بدأ يقرأ بصعوبة. كان يستشعر بِبَصر الفتاة مركّزا عليه، مفعما بالفضول والانتظار.

طوى الكتاب، وبادرها: «أين تعرّفت إليك؟.»

قالت له بأنّهما التقيا بشكل عادي. كان ذلك قبل خمس سنوات بين أناس لا يعنون له شيئا. تذّكر هذه الفترة، وطرح عليها بعض الأسئلة: ماذا كانت تفعل بالضبط حينئذ؟ وبمن كانت تلتقي؟ وأين تعمل الآن؟ وهل عملها مثير للاهتمام؟

كان معتاداً على قدح الشرارة بينه وبين أي امرأة. لكن هذه المرّة تملّكه شعور بأنه يتصرّف مثل مستخدم في مكتب التوظيف، يستجوب امرأة وفدت عليه تطلب شغلا.

صمت، وأعاد فتح الكتاب، وبذل جهدا ليقرأ، غير أنه شعر بنفسه كما لو أن لجنة امتحان تراقبه وهي تعرف عنه كل شيء. ومضى يحدّق في الأوراق على مضض، دون أن يفقه شيئا مما كتب عليها، ولم يغب عن ذهنه أن اللجنة تسجّل بأناة دقائق صمته لتأخذها بعين الاعتبار في العلامة النهائية التي ستمنحها له.

أعاد إغلاق الكتاب. وحاول أن يجر الفتاة للحديث ثانية، لكن المحاولة ذهبت سدى، فعزا الفشل إلى كون المقصورة مليئة بالمسافرين. دعاها إلى مقصورة المطعم حيث عثرا على طاولة لاثنين. كانا يتحدثان براحة أكبر، عدا أنه هناك أيضا فشل في قدح الشرارة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رجعا إلى المقصورة، وعاود فتح الكتاب، ومثلما هو الحال في السابق، لم يكن يستوعب ما يقرأ. وظلت المرأة جالسة قبالته لوقت قصير، ثم قامت وتوجهت إلى الممر للنظر عبر النافذة. شعر بغيظ شديد. فقد أعجبته تلك الشابة، ولم يكن خروجها غير نداء صامت.

حاول مرة أخيرة أن ينقذ الموقف، فخرج إلى الممر، ووقف بجانبها. قال لها بأنه لم يتعرف عليها للحال قبل قليل، لأنها ربما غيرت تصفيفة شعرها. أزاح الشعر عن جبينها، فبدا له وجهها فجأة مختلفا، وقال لها: «نعم، تذكرتك الآن.» بالتأكيد لم يكن يعرفها، وهو أمر ليست له أهمية. لأن ما كان يريده هو أن يضغط بيده على قمة رأسها، وأن يُحني رأسها إلى الخلف بلطف، ثم يحدق في عينيها.

كم مرة في حياته وضع يده على رأس امرأة سائلا إيّاها: «أريني كيف تظهرين هكذا؟» فهذا الاحتكاك القسري، وهذه النظرة السامية يقلبان بغتة الوضعية بكاملها. وكأنهما يتضمنان بذرة مشهد استيلائه عليها كلية.

لكن في هذه المرة، لم يكن لعمله أي أثر؛ ذلك أن نظرته كانت أضعف من النظرة المسلّطة عليه، تلك النظرة التي تشبه نظرة لجنة امتحان متشككة ومدركة أنه إنما يكرر نفسه، فتُبادِر إلى إفهامه أن كل تكرار تقليد، وكل تقليد لا قيمة له. وفجأة نظر يان إلى نفسه من خلال عيني الفتاة، فرأى نظراته وإيماءاته مثيرة للشفقة، وأنها من فرط تكرارها خلال السنوات أصبحت بلا معنى. ولما فقدت حركاته عفويتها، وتجرّدت من معناها الطبيعي المباشر، جعلته يشعر بعياء لا يطاق، فأحسّ كما لو أنه كان يحمل بين يديه عشرة كليغرامات، إذ إن نظرة الفتاة خلقت حوله محيطا تضاعفت فيه الجاذبية عشر مرات.

لم يكن أمامه مجال للاستمرار، فترك رأس الفتاة، وأخذ ينظر إلى الحقول تستعرض عبر زجاج النافذة. ووصل القطار إلى وجهته، وعند

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مغادرة القطار، قالت ليان إنها لا تسكن بعيدا من المحطة، ودعته إلى بيتها، لكنه رفض الدعوة. وبعد ذلك ظل لأسابيع يفكر: كيف سمح لنفسه أن يرفض دعوة امرأة أعجبته؟

كان، في علاقته بها، يوجد في الجهة الأخرى من الحدود.

8

طالما وُصِفت نظرة الرجل إلى المرأة. إنها تُلقى عليها بفتور، فتبدو كما لو كانت تقيسها أو تزنها، تقيِّمها أو تنتقيها. وبعبارة أخرى، تبدو كما لو كانت تحوّلها إلى شيء.

ولعل ما لا نعرفه هو أن المرأة ليست عزلاء تماما أمام هذه النظرة. فإذا تحولت إلى شيء، فهي إذن تنظر إلى الرجل بنظرة الشيء. ويصبح الأمر كما لو أن للمطرقة عينين تركّزهما على البنّاء الذي يستعملها لغرز مسمار. يلاحظ البنّاء نظرة المطرقة الشريرة، فيفقد الثقة بنفسه، ويوجه ضربة شديدة لإبهامه.

إن البنّاء هو سيّد المطرقة، لكنها مع ذلك هي من له الأولوية عليه، لأن الأداة تعرف كيف تُستعمل بمهارة، بمقابل المستعمِل الذي لا يعرف ذلك إلا بشكل تقريبي.

إن قدرة المطرقة على النظر تحولها إلى كائن حي، لكن على البنّاء الشجاع أن يحافظ على نظرته الوقحة، فيحول بيده الحازمة المطرقة من جديد إلى شيء. وبهذا يقال إن المرأة تعيش حركة كونية باتجاه الأعلى ثم باتجاه الأسفل: سمو شيء متحوِّل إلى كائن، وانحدار كائن متحوِّل إلى شيء.

وكثيرا ما يحدث ليان أن تتعذّر عليه لعبة البنّاء والمطرقة، وأكثر ما يكون ذلك عندما لا تحسن النساء النظر، فتفسد اللعبة. أيرجع ذلك إلى كون نساء هذا العصر قد شرعن في تنظيم أنفسهن، وقرّرن تغيير

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وضع المرأة القديم؟ أم أن يان شاخ، وأصبح ينظر إلى النساء ونظرتهن بطريقة مختلفة؟ أيعود ذلك إلى تغير العالم؟ أم إلى تغيره هو؟

من الصعب الإجابة. لطالما حدجته فتاة القطار بعينين حذرتين مفعمتين بالريبة، فترك المطرقة دون أن يجد الوقت لرفعها. وقد التقى يان مؤخرا بباسكال فاشتكى له من باربرا التي دعته إلى بيتها، فوجد عندها فتاتين لا يعرفهما. ثرثروا قليلا، ثم قامت إلى المطبخ دون سابق إنذار، وأتت بمنبه كبير من الحديد الأبيض، شبيه بالمنبهات التي كانت متداولة في الماضي؛ ثم شرعت في نزع ملابسها، وفعلت الفتاتان مثلها. وأضاف باسكال بتذمر: «أتفهم، تعرّين بلا مبالاة، غير آبهات بوجودي كما لو كنت كلبا أو مزهرية.»

بعد ذلك أمرته باربرا بنزع ملابسه هو أيضا، فامتثل لطلبها، لأنه لم يكن يريد أن يضيع فرصة مضاجعة فتاتين مجهولتين. ولما صار عاريا تماما، أشارت باربرا للمنبه قائلة: «انظر جيدا إلى عقرب الثواني، إذا لم تنتصب في غضون دقيقة، طردتك!»

«لم يحوّلن بصرهنّ عن عضوي، وبما أن الثواني بدأت تنصرم بسرعة، انفجرن ضاحكات! بعد ذلك طردنني إلى الخارج!». هذا مثال لحالة قررت فيها المطرقة أن تخصي البنّاء.

قال يان لإدفيج: «أتعلمين، باسكال وغد، وأنا أشعر بالتعاطف مع كوماندو باربرا الذي أدّبه. على أي حال، فقد قام باسكال ورفاقه بتصرف مع فتيات يشبه كثيرا ما دبرته له باربرا. تأتي الفتاة وهي ترغب في الجماع، فينزعوا ملابسها، ويربطوها إلى أريكة. لا تأبه الفتاة بربطها، فذلك جزء من اللعبة. لكن ما كان مخزيا هو أنهم لا يفعلون بها شيئا، بل لا يعمدون حتى للمسها، ويكتفون بتفحصها من كل جانب، فتشعر الفتاة كما لو أنهم اغتصبوها.»

– بالتأكيد، قالت إدفيج.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

– لكنني أتصور أن الفتيات المقيدات اللواتي يُنظر إليهنّ بعين الشهوة يهْتَجن لذلك، بالمقابل لم يشعر باسكال في مثل تلك الوضعية بالاثارة، بل شعر بأنه مخصي. .»

كان الوقت متأخرا في تلك السهرة، وكانوا في منزل إدفيج التي وضعت أمامهم على الطاولة قنينة ويسكي نصفها فارغ. سألته إدفيج: «ماذا تقصد بقولك هذا؟»

– أريد أن أقول، أجاب يان، عندما يقوم رجل وامرأة بالشيء نفسه، لا يكون فعلهما متماثلا. فالرجل يغتصب والمرأة تخصي.

– أتعني أن خصي الرجل أمر قذر، في حين أن اغتصاب امرأة شيء مستحب؟

أجاب يان:

– أعني بهذا فقط أن الاغتصاب جزء من الإثارة الجنسية، مقابل الخصي الذي هو نفي لها.

أفرغت إدفيج كأسها بجرعة واحدة، وقالت بغضب: «إذا كان الاغتصاب جزءا من الإثارة الجنسية، فمعنى هذا أن كل إثارة جنسية موجهة ضد المرأة، وبالتالي وجب ابتكار إثارة أخرى.»

رشف يان جرعة، وصمت لحظة، ثم تابع: «قبل سنوات عندما كنت في بلدي القديم، ألّفت بمعيّة بعض أصدقائي أنطولوجيا تضم بعض الكلمات التي تتلفظ بها العشيقات أثناء المضاجعة. أتعلمين ما اللفظة التي تتكرر دائما؟»

لم تكن إدفيج تعلم شيئا من ذلك. «إنها لفظة «لا». اللفظة التي تتكرر مرات متتابعة: لا، لا، لا، لا، لا، لا... فالفتاة تأتي للجماع، ولما يضمّها الفتى بين ذراعيه، تصدّه عنها مردّدة «لا»، بحيث تغدو المضاجَعة، التي نوّرتها أجمل كلمة على الإطلاق –لا– بوهجها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأحمر، تصبح شبيهة بالاغتصاب. وحتى عندما تقترب الفتيات من المتعة، فإنهن يردّدن: لا، لا، لا، لا، بل منهن من يجدن اللذة الكبرى في الصراخ بهذه الكلمة. ومنذ ذلك الوقت، أصبحت لا عندي كلمة ملَكية. هل تقولين لا أنت أيضا؟»

أجابت إدفيج بأنها لا تقول لا قط. لماذا ستقول شيئا لا تفكّر فيه؟ «عندما تقول المرأة لا، فهي تقصد نعم. هذه الحكمة الذكورية المنشأ تثيرني دائما. إنها جملة لا تقلّ بلادة عن تاريخ الإنسانية.»

وردّ يان: :لكن هذا التاريخ موجود فينا، ولا يمكننا التنصّل منه، فالمرأة هي من يتهرب ويدافع عن نفسه. المرأة تمنح والرجل يأخذ. المرأة تحتجب، والرجل ينزع لباسها. إنها صور عتيقة نحملها بدواخلنا!

– عتيقة وبلهاء! لا تقلّ بلاهة عن الصور التّقِيَّة! وماذا سيحدث لو ضاقت النساء ذرعا بالتصرف وفق نموذجهن؟ وماذا لو كان هذا التكرار الأبدي يثير فيهنّ الغثيان؟ وماذا لو كنّ يرغبن في ابتداع صور أخرى ولعب آخر؟

– نعم، إن الصور البلهاء هي التي تتكرر ببلاهة. أنت محقة في كلامك. ولكن، ماذا لو كانت شهوة الجسد الأنثوي تتوقف على هذه الصور البلهاء، وعليها وحدها؟ فهل سيظل الرجل قادرا على مضاجعة المرأة بعد تدمير هذه الصور فينا؟»

انفجرت إدفيج ضاحكة وقالت: «أعتقد أنك تغضب لشيء تافه.» ثم حدجته بنظرة أمومية وأضافت: «لا تظن أن كل الرجال مثلك. كيف يصير الرجال حين يجدون أنفسهم وجها لوجه مع امرأة؟ ماذا تعرف عن هذا؟»

لم يكن يعرف يان حقا كيف يصير الرجال لما يوجدون بمفردهم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وجها لوجه مع امرأة. عمّ الصمت، وبدت على وجه إدفيج ابتسامة غبطة تدل على أن السهرة شارفت على نهايتها، وأن اللحظة التي سيفرغ فيها يان على جسدها البكرة السينمائية الفارغة قد حلّت.

وبعد تفكير، أضافت: «وفي نهاية المطاف، ليس للمضاجعة أهمية كبيرة.»

أصاخ يان سمعه لها، وقال: «أتعتقدين أن الجماع لا أهمية له فعلا؟» ابتسمت بحنان وقالت: «لا، ليس ذا أهيمة كبيرة.» وما لبث أن نسي مناقشتهما، إذ فهم شيئا آخر أهمّ: الممارسة الجنسية بالنسبة لإدفيج لا تعدو أن تكون إشارة، أمرا رمزيا يدعم المودّة.

وفي هذا المساء سيجرؤ لأول مرة على إعلان أنه منهك. تمدّد بجانبها على السرير مثل صديق عفيف دون أن يدير البكرة، ثم أخذ يداعب خصلات شعرها وهو يتطلع إلى قوس قزح السلام قائما في أفق مستقبلهما.

9

قبل عشر سنوات، زارت يان امرأة متزوجة. كانا يعرفان بعضهما لسنوات، ولكنهما لم يكونا يلتقيان إلا نادرا، لأن هذه المرأة كانت تعمل كثيراً. وحتى عندما كانت تتملّص من عملها للقائه، لم يكن ثمة وقت يضيّعانه. كانا يشرعان بالجلوس على الأريكة، يثرثران هنيهة، ثم يقوم يان ويقترب منها، يقبلها ويحملها بين ذراعيه.

بعد أن يضمها إليه بقوة، يرخي ذراعيه، فيبتعدان عن بعضهما قليلا ويشرعان في نزع ملابسهما باستعجال. يرمي يان سترته على الكرسي، وتتجرد هي من قميصها وتضعه على مسند الكرسي. يفتح هو أزرار سرواله، ويتركه ينزلق. تنحني هي إلى الأمام وتشرع في نزع سروالها اللاصق، ثم يهرع كل منهما إلى الآخر، ويقفان وجها لوجه،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

منحنيين إلى الأمام، يحرر يان قدميه الواحدة تلو الأخرى من السروال (وليفعل ذلك يرفع ساقيه عاليا كما يفعل الجندي في الاستعراض)، وتنحني هي لتخرج سروالها اللاصق من كعبيها، ثم تحرر ساقيها برفعهما نحو السقف، تماما كما يفعل هو.

كانا يفعلان الشيء نفسه دائما. لكن وقع لهما ذات يوم شيء تافه لم ينسه أبدا: حدقت إليه ولم تستطع أن تخفي الابتسامة. كانت ابتسامة حنان تقريبا، مفعمة بالتفهم والعطف. كانت ابتسامة خجولة أجهد نفسه لتبريرها، لكنها ابتسامة منبثقة من السخافة التي سرعان ما غمرت المشهد بكامله. وجد صعوبة كبيرة في السيطرة على نفسه حتى لا يردّ على هذه الابتسامة، فقد لاح له هو أيضا الانبثاق المفاجئ للسخافة من غبش العادة؛ سخافة شخصين يقفان متواجهين، ويرفعان سيقانهما إلى الأعلى بسرعة غريبة. كاد ينفجر ضاحكا، لكنه أدرك أنه إن ضحك، ما عاد بإمكانه مضاجعتها، لأن الضحك كان في الغرفة مثل شرك ضخم يتربص بهما، مندسّ خلف جدار خفي. كان يفصل بين الجنس والضحك بضع ملمترات فقط، وخشي أن يتخطاها. بضع ملمترات كانت تفصله عن الحد الذي تصير بعده الأشياء لا معنى لها.

تمالك نفسه وصدّ الابتسامة. رمى بسرواله وتقدم بسرعة نحو عشيقته لملامسة جسدها لعل حرارة جسدها تطرد شيطان الضحك.

10

تناهى إلى يان خبر تدهور صحّة باسير، إذ إنه لم يعد يصمد إلا بفضل حقنات المورفين، ولا تتحسن حالته إلا بضع ساعات في اليوم. استقلّ يان القطار لزيارته في مصحة بعيدة. وخلال الطريق لام نفسه على عدم زيارته إلا لماما. ولما رآه راعه منظره، فقد بدت عليه الشيخوخة. كانت بعض الشعيرات الفضية ترسم منحنى متموجا على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جمجمته، شبيهة بتلك التي كان يرسمها شعره الأسود الكثيف قبل وقت ليس بالبعيد. وكان وجهه مجرد ذكرى لوجهه في السابق.

استقبله باسير بحيويته المعهودة. أمسك بيده وقاده بخطوات نشيطة إلى غرفته حيث جلسا إلى طاولة متقابلين.

عندما قابله يان للمرة الأولى منذ زمن بعيد، حدثه عن آمال الإنسانية الكبرى. وكان أثناء حديثه يضرب الطاولة بقبضته وعيناه المتحمستان دائما تقدحان الشرر. لكنه اليوم لا يتحدث عن آمال الإنسانية، بل عن آمال جسده. فقد أكد له الأطباء بإنه إن تمكن من اجتياز الأسبوعين القادمين بفضل علاج مكثف بالحقنات، واحتمل الألم، فإنه سيشفى.

كان يقول هذا ليان، كان يضرب الطاولة بقبضته وعيناه تومضان. وهكذا صارت حكايته المليئة بالحماسة عن آمال الجسد صدى لحكايته عن آمال الجنس البشري. لقد كانت هاتان الحماستان كلاهما خادعتين، وكانت عينا باسير الوامضتين تضفيان عليهما معا نورا سحريا.

ثم أخذ يتحدث عن الممثلة حنّة. اعترف ليان بخجل ذكوري أنه أصيب للمرة الأخيرة بالجنون. جنّ من حبّ امرأة جميلة حدّ الجنون، مدركا بأن جنونه هذا هو أشد أنواع الجنون غباء. كان يتحدث بعينيه الوامضتين عن الغابة التي بحثا فيها عن الفطر كما لو كانا يبحثان عن كنز، وعن المقهى التي توقفا فيها لشرب الخمر الأحمر.

«وكانت حنّة رائعة! أتفهم؟ لم تكن تتعامل معي مثل ممرضة لطيفة، ولم تكن تنظر إلي نظرات الإشفاق لتذكرني بعاهتي وعجزي. كانت تضحك معي وتشرب. أتينا على ليتر من الخمر! وشعرت كما لو أنني في الثامنة عشرة! كان مقعدي موضوعا على حافة الموت بالضبط، وانتابتني الرغبة في الغناء.»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ضرب باسير الطاولة بقبضته، ثم نظر إلى يان بعينيه البراقتين وقد اختفى من فوقهما الحاجبان الغزيران، ولم يبق سوى ثلاثة خيوط فضية.

قال يان بأننا جميعا نقيم على حافة الموت، وأن العالم بأسره، الغارق في العنف والقسوة والهمجية، جالس على هذه الحافة. قال هذا لأنه كان يحب باسير، ولأنه استفظع أن يموت باسير، الذي يضرب الطاولة بقبضته بشكل رائع، قبل موت ذلك العالم الذي لا يستحق أن يحبه أحد. كان يجهد نفسه كي يُظهر قُرب نهاية العالم، وذلك حتى يبدو موت باسير مستساغا. لكن باسير لم يكن يقبل نهاية العالم، إذ ضرب على الطاولة بقبضته، ومضى يتحدث من جديد عن آمال الإنسانية. وقال إننا نعيش عصر التغيرات الكبرى.

لم يشاطر يان أبدا إعجاب باسير بالأشياء التي تتغير، لكنه كان يستلطف رغبته في التغيير. فهو يلمس من خلاله أقدم رغبة لدى الإنسانية. وبالرغم من حبه لهذه الرغبة، فأنه صار يتمنى التخلص منها في هذه اللحظة حيث يوجد فيها كرسي باسير على حافة الموت. كان يودّ أن يُظهر له المستقبل قذرا لعلّه لا يندم كثيرا على الحياة التي أوشك على توديعها.

وقال له: «يقولون لنا دائما إننا نعيش في عصر عظيم. يتحدث كليفيس عن نهاية العصر اليهودي المسيحي، ويتحدث آخرون عن الثورة العالمية والشيوعية، لكن كل هذه الأشياء ليست إلا حماقات. فإذا كان عصرنا منعطفا، فذلك لسبب آخر.»

حدجه باسير بعينيه الوامضتين اللتين ما يزال يعلوهما أثر الحاجبين الكثين الذي هو عبارة عن ثلاثة خيوط فضية.

وتابع يان: «أتعرف قصة اللورد الإنجليزي؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ضرب باسير الطاولة بقبضته وقال إنه لا يعرف هذه القصة.

«قال لورد إنجليزي لزوجته بعد ليلة العرس: أيتها السيدة، أتمنى أن تكوني قد حبلت. إذ لا أريد أن أكرر ثانية هذه الحركات السخيفة.»

ابتسم باسير دون أن يضرب الطاولة بقبضته، إذ لم تكن هذه النادرة من النوادر التي تثير حماسته.

وتابع يان: «لا يحدثني أحد عن الثورة العالمية! نحن نعيش عصرا تاريخيا عظيما يتحول فيه الجماع إلى حركات سخيفة.»

وبدت على محيا باسير علامات ابتسامة خفية، يعرفها يان جيدا. لم تكن ابتسامة فرح أو موافقة، بل كانت ابتسامة تسامح. فقد كانا دائما متباعدين، وفي اللحظات التي يظهر فيها اختلافهما بجلاء، كانا يوجهان لبعضهما مثل هذه الابتسامة للتأكد من أن صداقتهما ليست في خطر.

11

لِمَ ظلت صورة الحدود هذه شاخصة أمام عينيه؟ قال لنفسه ربما يرجع ذلك لكونه شاخ: فالأشياء عندما تتكرر، تفقد في كل مرة شيئاً من معناها، أو بعبارة أدق، تفقد شيئا فشيئا قوتها الحيوية التي تضفي عليها وهم المعنى. فالحدّ إذن في نظر يان يعني جرعة التكرار القصوى المسموح بها.

حضر ذات يوم عرضا مسرحيا، فشرع ممثل كوميدي موهوب فجأة وسط العرض المسرحي في العد بصوت ينمّ عن انتباه بالغ: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... كان ينطق كل عدد باستغراق بالغ كما لو أنه نسيه، ويبحث عنه في الفضاء المحيط به: خمسة، ستة، سبعة، ثمانية...؛ ولما بلغ العدد خمسة عشرة، شرع الجمهور في الضحك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وحين بلغ المائة، وهو يعدّ ببطء، وباستغراق متدرّج، صار المتفرجون يسقطون من مقاعدهم من فرط الضحك.

وفي عرض آخر، جلس الممثل نفسه أمام البيانو، وأخذ يعزف، بيده اليسرى، مصاحبة إيقاعية لرقصة الفالس: طامطدام، طامطدام. وظلت يده اليمنى معلقة، فلم يكن يُسمع أي لحن، إنما طامطدام، طامطدام نفسه الذي يتكرر بدون انقطاع، وظل هو ينظر إلى الجمهور نظرة معبرة، كما لو كانت تلك المرافقة الإيقاعية للفالس مقطوعة موسيقة رائعة تستحق الإعجاب والتصفيق والحماس. ومضى يعزف طامطدام، طامطدام.. عشرين مرة، ثلاثين، خمسين، مائة مرة، ظل أثناءها الجمهور يختنق من الضحك.

أجل، عندما يُتجاوز الحد، يدوّي الضحك. ولكن ماذا يقع عندما يذهب المرء إلى ما هو أبعد، إلى ما بعد الضحك؟

يعتقد يان أن آلهة الإغريق كانوا في بادئ الأمر مولعين بمشاركة بني الإنسان مغامراتهم. بعد ذلك توقفوا بأعلى «الأولمب» لمراقبة ما يجري بالأسفل، فضحكوا كثيرا. أما اليوم، فهم نائمون منذ زمن بعيد.

رغم ذلك فيان مخطئ في رأيي إن كان يتصور أن الحدّ خطّ يقطع حياة الإنسان في مكان محدد، وأنه يشير إلى تصدع في الزمن، إلى ثانية محددة في ساعة الحياة الإنسانية. كلا، أنا متيقّن من أن الحد موجود معنا دائما بِغضّ النظر عن الزمن وعن عمرنا؛ وأنه حاضر في كل مكان، رغم أن وضوحه يكون متفاوتا حسب الظروف والملابسات.

فالمرأة التي أحبها يان كانت محقّة عندما اعترفت بأن ما كان يربطها بالحياة لا يعدو أن يكون خيط عنكبوت، إذ يكفي القليل جدا،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هبة ريح ضعيفة، لكي تتغير الأشياء بشكل غير ملحوظ؛ فيبدو فجأة أن ما كان المرء مستعدا للتضحية بحياته من أجله قبل ثانية، لا معنى له ولا طائل من ورائه.

كان ليان أصدقاء تركوا الوطن مثله، وكانوا يقضون كل وقتهم في النضال من أجل حريته السليبة. وقد حدث لهم جميعا أن أحسوا بأن الرابطة التي تشدهم إلى الوطن لم تكن سوى وهم، وأن استعدادهم للموت في سبيل شيء لم يكونوا يحفلون به في السابق ليس إلا عادة واظبوا عليها من قبل. كانوا كلّهم يحسّون بهذا الشعور، وكانوا في الوقت نفسه يتوجّسون منه. كانوا يشيحون بأوجههم مخافة أن يروا الحد فيزلقون (مجذوبين بدوار شبيه بدوار الهاوية) إلى الجانب الآخر، حيث صارت لغة شعبهم مجرّد ضجيج لا معنى له، أشبه ما يكون بشقشقة العصافير.

وإذا كان يان يعرّف الحدّ بوصفه جرعة التكرار القصوى المقبولة، فأنا أجدني ملزما بتصحيح تصوره: إن الحد ليس نتيجة للتكرار. ذلك أن التكرار ليس سوى طريقة من الطرق، من الكيفيات، التي تجعل الحدّ ظاهرا. فكأن خطّ الحد يُخفيه الغبار، والتكرار بمثابة حركة اليد التي تنزع الغبار عنه.

أودّ أن أذكّر يان بهذه التجربة المهمّة التي تعود إلى طفولته حين كان في الثالثة عشرة من عمره. كان يدور الحديث عن كائنات قادمة من كواكب أخرى، وكان هو يتلهّى بفكرة أن لهذه الكائنات مناطق جنسية حساسة على أجسادها أكثر مما لدى الإنسان الذي يسكن الأرض. فالفتى الذي كانه آنئذ، والذي كان يستعمل صورة راقصة عارية مسروقة لتأجيج غريزته الجنسية خِفية، تبدّى له أخيرا أن المرأة الأرضية، ذات فرج وثديين، وصاحبة هذا المثلث البسيط للغاية، تعاني عوزا في الإثارة الجنسية. لهذا كان يحلم بكائن له عشرة أو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عشرون موضعا جنسيا مثيرا على جسده، عوض ذلك المثلث البئيس، ويخلق النظر إليه إثارة لا تنفذ.

أعني بهذا أنه كان يعلم حينئذ، عند منتصف مسيرته الطويلة كرجل بكر، ما معنى أن يملّ المرء جسد الأنثى. فقد بلغ منتهى الإثارة حتى قبل أن يذوق الشهوة، بل إنه لامس قعرها.

لقد كان يعيش إذن منذ الطفولة بهذه النظرة على الحدّ العجيب الذي إذا تجاوزه المرء يصبح ثدي امرأة عنده مجرّد كرة رخوة تتدلى على الصدر. كان الحدّ نصيبه منذ البدايات الأولى. فقد كان يان، وهو يحلم في الثالثة عشرة من عمره بمواضع جنسية أخرى على جسد المرأة، يعرف هذا الحدّ معرفته به عندما بلغ الثلاثين فيما بعد.

12

كان الجو عاصفا، والأرض موحلة. وقف الموكب الجنائزي على شكل نصف دائرة حول القبر المفتوح. كان يان حاضرا مثل كل الأصدقاء تقريبا بمن فيهم حنّة الممثلة وأسرة «كلافيس» وباربرا، وبطبيعة الحال أسرة باسير: زوجته وابنه الباكي وابنته.

كان ثمة رجلان بثياب رثة يرفعان الحبال التي وُضع عليها التابوت. في الوقت نفسه اقترب من القبر شخص تظهر عليه معالم التوتر. كان يحمل ورقة في يده. التفت إلى حفاري القبور، ومضى يقرأ ما كتب على الورقة بصوت مرتفع. حدّق إليه الرجلان، تردّدا لحظة متسائلين ما إذ كان عليهما وضع التابوت بجوار القبر، ثم شرعا في إنزاله ببطء داخل القبر، وكأنهما قررا أن يوفرا على الميت عناء سماع خطبة رابعة.

أربك الإنزال المفاجئ للتابوت الخطيب، لأن كل خطبته كانت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بضمير المخاطب المفرد، وكانت تتوجه إلى الميت، تدبّج الوعود، وتُطري عليه، وتُطمئنه، شاكرة إياه، ومجيبة عن أسئلته المفترضة. ولما بلغ التابوت قعر القبر، سحب الرجلان الحبال وظلا واقفين بتواضع. ولما لاحظا أن الخطيب يعظهما بحماس زائد، طأطآ رأسيهما بخجل.

وكلما أدرك الخطيب فظاعة الموقف، انجذب إلى الشخصيتين الكئيبتين، حتى إنه بدأ يجهد نفسه للنظر بعيدا، فاستدار نحو الموكب الجنائزي المتحلّق حول القبر. لكنه حتى في هذه الحالة، لم يكن لخطبته المكتوبة بضمير المخاطب الوقع المنتظر، لأن الحاضرين كانوا يشعرون كما لو كان الفقيد العزيز مندسّا بينهم.

ما الجهة التي كان على الخطيب أن ينظر إليها؟ كان يتأمل ورقته بقلق، وبالرغم من أنه يحفظ خطبته جيدا، ما فتئت عيناه ملتصقتين بالنص.

تملكت الحاضرين عصبية زاد من غلوائها هبّات الريح الهستيرية. كان كليڤيس الأب قد أدخل رأسه في قبعته بعناية. غير أن الريح العاتية أصبحت من القوة بحيث نزعتها من رأسه وقذفتها أرضا بين الحفرة المفتوحة وأسرة باسير الواقفة في أوّل صف.

همّ في البداية بالتسلل عبر الجماعة، والعدو نحو القبعة، لكن بدا له أن ردّة فعل كهذه ستجعل الحاضرين يعتقدون أنه يعطي القبعة أهمية أكبر من الاحتفال الجاد المُقام على شرف صديقه. وقرّر في النهاية أن يحافظ على هدوئه، ويتظاهر بعدم الاكتراث بما وقع. لكن هذا الحَلّ لم يكن الحلّ الأمثل، لأنه منذ أن صارت القبعة وحيدة في ذلك المكان الخالي بجوار القبر، ازداد توتر الحاضرين، وأصبحوا عاجزين عن سماع كلمات الخطيب. فبالرغم من كون القبعة ساكنة في مكانها، فإنها أزعجت المأتم أكثر مما لو تقدم كليڤيس نحوها والتقطها. وانتهى به الأمر إلى أن طلب المعذرة ممّن كان واقفا أمامه، وخرج من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الجماعة. وهكذا وجد نفسه في المساحة الفارغة (الشبيهة بخشبة بين القبر والموكب) فانحنى، ومدّ يده إلى الأرض. وفي تلك اللحظة بالذات نفخت الريح من جديد، ودفعت القبعة أبعد قليلا عند قدمي الخطيب.

حينئذ لم يعد أحد قادرا على التفكير في شيء آخر غير كليڤيس الأب وقبعته. أما الخطيب الذي لم يكن يعرف شيئا عن القبعة، فشعر بدوره أن أمرا ما يقع بين الحاضرين. رفع عينيه عن ورقته، ففوجئ بشخص يقف على بعد خطوتين منه وهو ينظر إليه كما لو كان يتأهب للانقضاض عليه. خفض عينيه بسرعة إلى الورقة آملا ربما أن تختفي تلك الرؤية حالَما يرفع عينيه مجددا. لكنه عندما رفع بصره كان الرجل ما يزال واقفا يحدّق فيه.

لم يستطع كليڤيس الأب التقدم ولا التراجع، إذ شعر بأنه من غير اللائق أن ينحني على قدمي الخطيب، كما وجد أن العودة دون القبعة أمرٌ مضحك. بقي إذن مترددا ومسمّرا بلا حراك، ومصمّما على العثور على حلّ.

تمنى لو هبّ أحدهم لمساعدته. ألقى بنظرة جهة الحفارَيْن اللذين كانا مسمّرين في الجانب الآخر من الحفرة، وبصرهما شاخص على قدمي الخطيب. وفي تلك اللحظة هبّت الريح من جديد، فاندفعت القبعة ببطء باتجاه حافة الحفرة، وهنا حسم كليڤيس أمره، وخطا بنشاط باتجاهها، وانحنى مادّا يده؛ لكن القبعة تملّصت منه، وانزلقت على الحافة قبل أن تسقط في الحفرة.

مد كليڤيس يده مرّة أخرى كما لو كان يناديها، ولكنه قرّر فجأة أن يتصرف كما لو أن القبعة لم توجد، وكما لو أنه وجد نفسه عند حافة القبر بالصدفة. كان يريد أن يُظهر التلقائية والارتياح، لكنه وجد الأمر صعبا لأنّ كل الأنظار كانت مصوّبة إليه. بدا متوترا، وبذل جهدا لكي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لا ينظر لأحد، ثم عاد للوقوف في الصف الأول حيث كان ينتحب ابن باسير.

لما اختفى طيف الرجل الذي كان يهدّده بالانقضاض عليه، هدأ الخطيب، ورفع عينيه إلى الجماعة التي لم تكن تسمع من كلامه شيئا، متأهبا لتلاوة آخر جملة من خطبته، ثم قال ملتفتا إلى حفاري القبور بنبرة مهيبة: «فيكتور باسير، إن من يحبونك لن ينسوك أبدا. ألا خفّ الثرى عليك!»

مال إلى حافة القبر حيث تكوّم تراب صلصالي، وأمسك برفش كان مغروزا هناك، ملأه بالتراب ورماه في الحفرة. وفي هذه الأثناء اهتز الموكب بضحك مخنوق، إذ تهيأ للحاضرين جميعا أن الخطيب الذي وقف ساكنا والرفش في يده وهو ينظر إلى الأسفل رأى القبعة على التابوت في قعر الحفرة، كما لو أن الفقيد رغب في ألا يبقى رأسه عاريا في تلك اللحظة المهيبة.

تمالك الخطيب نفسه وواصل رمي التراب على التابوت محاذرا أن يسقطه على القبعة، كما لو أن رأس «باسير» كان بداخلها حقا. إثر ذلك سلّم الرفش إلى الأرملة. أجل، كان عليهم جميعا أن يشربوا كأس الإغواء حتى الثمالة. كان عليهم جميعا أن يعيشوا هذه المعركة الرهيبة ضدّ الضحك. كان عليهم جميعا، بما فيهم الأرملة والابن المنتحب، أن يملأوا الرفش ويُطلّوا على الحفرة حيث يوجد تابوت فوقه قبّعة، كما لو أن «باسير»، بحيويته وتفاؤله، كان يهم بإخراج رأسه.

13

اجتمع عشرون شخصا تقريبا في فيلا باربرا. كانوا موجودين جميعا بالصالون الكبير، جالسين على الأريكة أو المقاعد أو على الأرض. وكانت تجلس في الوسط، في دائرة الأنظار الشاردة، فتاة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يبدو أنها قادمة من إحدى المدن الريفية. وكانت تتحرك وتتلوى بكل الأشكال الممكنة.

كانت باربرا تتبوأ مقعدا ضخما ووثيرا. نظرت إلى الفتاة نظرة حادة وقالت: «ألا تظنين أنك تتمادين في ذلك؟»

رمقتها الفتاة ومضت تدوّر كتفيها، وكأنها تشير بذلك إلى كل الحاضرين شاكية عدم اكتراثهم وسهوهم عنها. غير أن صرامة باربرا لم تكن لترضى بالعذر الأخرس، فمضت الفتاة تفتح أزرار قميصها دون أن تتوقف عن حركاتها الغامضة.

انطلاقا من هذه اللحظة لم تعد باربرا تعيرها اهتماما، وأخذت تنظر إلى الحاضرين الذين ما إن تنبهوا إلى نظراتها حتى كفّوا عن ثرثرتهم، والتفتوا إلى الفتاة التي كانت تتعرى.

بعد ذلك رفعت باربرا تنورتها، ووضعت يدها بين فخذيها، وصوبت عينيها المثيرتين باتجاه كل أرجاء الصالون. وظلت تراقب بتركيز مدرَّبيها لتتأكد من متابعتهم لعرضها.

وانطلقت الأمور أخيرا بإيقاعها الخاص المتباطئ، لكن الأكيد. فقد تعرت الريفية منذ مدة، واستلقت بين ذراعي أحد الرجال. أما الآخرون فتفرقوا على الغرف الأخرى. ومع ذلك ظلت باربرا حاضرة في كل مكان من الفيلا، متيقظة وملحاحة. لم تكن تقبل أن ينقسم ضيوفها إلى أزواج وأن يختبئوا في زواياهم، حتى إنها تحاملت على شابّة حضنها يان بين ذراعيه، وقالت لها: «إذا كنت تريدين الانفراد به، فاذهبي إلى منزله. هنا نحن بين جماعة!» وسحبتها من يدها، وقادتها إلى الغرفة المجاورة.

لاحظ يان أن رجلا أصلع لطيفا كان جالسا في مكان منعزل، تابع تدخل باربرا. تبادل معه الابتسامة، فاقترب الأصلع منه وقال له: «المارشال باربرا» ثم انفجر ضاحكا وأضاف: «إنها مدرّبة تحضِّرنا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للألعاب الأولمبية.» ثم أخذا ينظران معا إلى باربرا ويراقبان تصرفاتها.

جثت قرب رجل وامرأة كانا بصدد الجماع، ثم حشرت رأسها بينهما، وضغطت فمهما على شفتي المرأة. ترك الرجل خليلته لباربرا باحترام كبير، معتقدا أن باربرا تريد الاستفراد بها. أمسكت باربرا المرأة من ذراعيها، وسحبتها إليها حتى التصقت بها وهما مضطجعتان على جنبيهما، بينما وقف الرجل أمامهما بتواضع واحترام. ودون أن تتوقف باربرا عن تقبيل المرأة، رسمت بيدها المرفوعة دائرة في الهواء، ففهم الرجل أن الأمر يتعلق بنداء موجه إليه، لكنه لم يتبين ما إذا كان هذا النداء يدعوه إلى الاقتراب أم الابتعاد، وظل يراقب بانتباه حركة اليد التي أصبحت ملحة ومتلهفة أكثر فأكثر. وفي الأخير نزعت باربرا شفتيها من فم الفتاة وعبرت عن رغبتها بصوت مرتفع. امتثل الرجل، وجعل ينزل أرضا من جديد، وجامع المرأة من الخلف، وقد صارت الآن محاصرة بينه وبين باربرا.

وقال يان: «نحن جميعا شخصيات حلم باربرا.»

فأجابه الأصلع: «نعم، لكن الأمر لا يكون مناسبا تماما دائما. فباربرا مثل مصلح ساعات عليه أن يغير بنفسه وضع عقارب ساعته.»

وما إن تمكنت باربرا من تغيير وضع الرجل حتى زال اهتمامها بالمرأة التي قبلتها قبل برهة باشتهاء، ثم قامت واقتربت من زوج شاب جدا، مؤلف من عشيق وعشيقة متلاصقين، انزويا في ركن من الصالون، وقد بدا عليهما القلق. كانا نصف عاريين، وكان الرجل يجهد نفسه من أجل إخفاء جسد رفيقته. وعلى غرار شخصيات الأوبرا الثانوية التي تفتح فمها على الخشبة دون أن تنطق، وتحرك يديها عبثا لتوهم بأنها تشارك في محادثة، كانا يجهدان نفسيهما للإيهام بأن أحدهما شغوف بالآخر، لأن كل ما كانا يطمحان إليه هو عدم إثارة الانتباه إليهما، والإفلات من مراقبة الآخرين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم تكن باربرا لتنخدع بصنيعهما، إذ جثت على ركبتيها قبالتهما، وأخذت تداعب شعرهما لبرهة، ثم قالت لهما شيئا، واختفت في غرفة مجاورة لتعود مرفوقة بثلاثة رجال عراة. جثت على ركبتيها من جديد أمام العاشقين الشابين، وتناولت بين يديها رأس الشابة وقبلتها. أما الرجال الثلاثة العراة، فقد أكبوا على الفتاة ممتثلين للإشارات التي تصدرها باربرا بعينها، ونزعوا ما كان تبقى من لباسها.

قال الأصلع: «عندما ينتهون، سيعقد اجتماع. ستدعونا باربرا جميعا وستطلب منّا أن نتحلّق حولها في نصف دائرة، وستنتصب أمامنا بنظارتيها، وستحلل ما قمنا به من شرّ وخير، وستطري على التلاميذ المجتهدين. أما الكسالى فستوبّخهم.»

في الأخير اقتسم العشيقان الخجلان جسديهما مع الآخرين، فتركتهم باربرا واتجهت صوب الرجلين. وابتسمت ابتسامة قصيرة ليان ودنت من الأصلع. في هذه اللحظة بالذات شعر يان على بشرته بلمسة الريفية التي افتتحت السهرة بنزع ملابسها، وعندها قال في نفسه بأن ساعة «بربارا» تشتغل جيدا.

مضت الريفية تعتني به بهمّة صادقة، لكنها كانت تزيغ ببصرها طول الوقت في باقي أرجاء القاعة، ولاسيما نحو الأصلع الذي كانت باربرا مشغولة بمعالجة عضوه. وقد كان الزوجان في نفس الموقف، ذلك أن المرأتين معا كانتا تعالجان نفس الشيء بنفس الكيفية، وكانتا كما لو أنهما بستانيتان تكبّان على الأرض، وتعتنيان بحوض زهور. وكان كل زوج بمثابة صورة الزوج الآخر منعكسة في المرآة. تقاطعت نظرات الرجلين فلاحظ يان أن جسد الأصلع يهتز من الضحك. وبما أنهما كانا متحدين كما يتحد شيء بصورته في المرآة، لم يكن بإمكان أحدهما أن يهتز دون أن يهتز الآخر بدوره، فأدار يان وجهه حتى لا تشعر الفتاة التي كانت تداعبه بالإهانة. غير أن صورته المنعكسة كانت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تجذبه بشكل لا يقاوم، فنظر من جديد إلى هذه الناحية، فأبصر عيني الأصلع وقد أجحظهما الضحك المكبوت. لقد كانا متّحدين بتيار تعاطف مضاعف خمس مرات على الأقل، ولم يكن كل منهما يدرك ما يفكر فيه الآخر فحسب، بل كانا يدركان أنهما يعلمان ذلك أيضا. وعادت إلى ذهنيهما كل التشبيهات التي أضفياها على «بربارا» قبل ذلك بقليل، فاكتشفا تشبيهات جديدة. كانا ينظران إلى بعضهما بعضا وهما يتفاديان في نفس الآن نظرتيهما، لأنهما كانا يعلمان أن الضحك محرّم في مثل هذا الموقف مثلما هو محرّم في الكنيسة عندما يكون القس بصدد تقديم القربان. لكن ما إن خطرت هذه الفكرة ببالهما حتى لم تعد لهما رغبة أخرى غير الضحك. كانا ضعيفين للغاية، وكان الضحك أقوى منهما، وانتابت جسديهما رجفات لا تقاوم.

نظرت باربرا إلى رأس شريكها الذي استسلم للضّحك، وكما لو كان يان هو سبب الشر، التفتت إليه، وفي هذه اللحظة بالذات التفتت إليه الريفية أيضا وقالت: «ماذا دهاك؟ لماذا تبكي؟»

لكن باربرا كانت قد صارت قريبة منه، وصفرت بين أسنانها: «لا تعتقد أنك ستكرّر ما وقع في مأتم «باسير»!»

فأجابها يان ضاحكا والدمع يسيل على خديه: «لا داعي لأن تغضبي»، فرَجَتْهُ أن يغادر المكان.

14

قبل سفره إلى أمريكا اصطحب يان إدفيج إلى البحر. أخذها إلى جزيرة مهجورة ليس فيها إلا بعض القرى الصغيرة ومراع ترعى فيها خراف لامبالية، وفندق واحد على شاطئ مسيّج، استأجر كلٌّ منهما غرفة فيه.

طرقَ الباب فجاءه صوتها من أقصى الغرفة طالبا منه الدخول. لم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ير في البداية أحدا، فصاحت من المرحاض الذي تركت بابه مواربا: «إنني أتبول.» كان يعرف جيدا أنها حتى عندما يكون في بيتها أشخاص غرباء، فهي تعلن أنها ذاهبة إلى المرحاض للتبول، وتستمر في الحديث من خلال بابه المفتوح. ولم يكن ذلك دلالا منها ولا فجورا، بل كان على الخلاف من ذلك إلغاء للدلال والفجور.

ولم تكن إدفيج تقبل التقاليد التي تثقل كاهل الإنسان. فلم تكن تقبل أن يعدّ الكشف عن المؤخرة فجورا، في حين لا يعتبر كشف الوجه تجاوزا لحدود العفّة. ولم تكن تفهم لماذا يُعتبر السائل المالح المنساب من العينين شاعريا في حين يثير السائل المنحدر من البطن التقزز. وظل يبدو لها كل هذا سخيفا ومصطنعا وغير معقول. فكانت تتعامل مع هذه الأعراف مثلما تتعامل فتاة متمرّدة على القانون الداخلي لمدرسة داخلية كاثوليكية.

ولما خرجت من المرحاض، ابتسمت ليان، وتركته يقبّل وجنتيها سائلة: «أنذهب إلى الشاطئ؟» فأجاب بالموافقة.

قالت له فيما نزعت مئزر الحمام وبدت عارية: «أترك لباسك في غرفتي.» كان يان يتحرّج من نزع ملابسه أمام الآخرين. وكان يغبط إدفيج التي تجيئ وتروح عارية كما لو كانت تلبس قميصا داخليا مريحا؛ بل كانت تبدو طبيعية وهي عارية أكثر مما تكون عليه حين تكون لابسة. فكأنها عندما تنزع ملابسها تتجرد أيضا من وضعها الصعب كامرأة، وتصير مجرد كائن إنساني لا جنس له. كان الأمر يبدو كما لو أن الجنس يختبئ في اللباس ، وأن العري حالة محايدة جنسيا.

نزلا السلم عاريين فألفيا نفسيهما في شاطئ فيه مجموعات من العراة تستريح وتتجول وتسبح: أمهات عاريات بصحبة أطفال عراة، وجدّات عاريات مع أحفادهن العرايا، شباب وشيوخ عراة. كان ثمة عدد لا يُحصى من الأثداء الأنثوية بأشكال مختلفة، منها الجميل،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والأقل جمالا، والدميم، والضخم، والمنكمش؛ فأدرك يان بكآبة أن الأثداء العجوزة لا يبدو عليها الشباب إذ تظهر بقرب الأثداء الشابة، بل- على خلاف ذلك- تبدو الأثداء الشابة أقرب إلى الشيخوخة، كما تبدو جميعها تافهة ومتشابهة بشكل غريب.

واجتاحته من جديد فكرة الحدّ الغامضة والغريبة. وتهيّأ له أنه واقف على الخط تماما، وأنه بصدد اجتيازه، فانتابه حزن غريب. ومن هذا الحزن تبدّت له فكرة أغرب: كان اليهود يُساقون إلى غرف الغاز جماعات عارية. ولم يفهم لماذا كانت هذه الفكرة تعاوده بإلحاح، وماذا تعني بالتحديد. ربما كانت تريد أن توحي له بأن اليهود أيضا يوجدون في الجهة الأخرى من الحدود، وأن العري هو لباس الرجال والنساء الموجودين في تلك الجهة، وأن العري بمثابة كفن.

وصار الحزن الذي بعثته فيه الأجساد العارية المنثورة على الشاطئ لا يطاق، فقال: «ما أغرب هذه الأجساد العارية هنا...»

وافقته إدفيج: «نعم، وما هو أغرب هو أن كل هذه الأجساد جميلة. انظر، فحتى الأجساد العجوزة المريضة تبدو جميلة عندما يُنظر إليها كأجساد، أجساد بلا لباس. فهي جميلة كالطبيعة التي لا تقل فيها شجرة عجوز جمالا عن شجرة شابة، وحيث يظل الأسد المريض ملك الحيوانات. لذلك فإن قبح الإنسان من قبح لباسه.»

لم يكن يتفاهم مع إدفيج أبدا، وكانا مع ذلك يتفقان، إذ كان كلٌّ منهما يؤول كلام الآخر على هواه. وكان بينهما تناغم عجيب، وتضامن غريب قائم على عدم التفاهم. كان يدرك ذلك جيدا، وكان يستلذه تقريبا.

كانا يسيران معا على الشاطئ، وكان الرمل ملتهبا تحت الأقدام. وامتزج ثغاء كبش بهدير البحر، وفي ظل شجرة زيتون مضى خروف قذر يرعى جزيرة من العشب اليابس. وتذكر يان «دافنيس». كان ممدّدا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وهو مسحور بجسد «كلووي»، وكان مهتاجا. لكنه لا يعرف وِجهة هذه الإثارة. إنها إثارة لا نهاية لها ولا إشباع، تمتد بلا حدود على مدى البصر. فاعتصرت قلب يان كآبة عظيمة، وانتابه حنين جارف إلى الماضي، إلى الوراء حيث ذلك الفتى. إلى الوراء عند بدايات الإنسان، عند بداياته هو، عند بدايات الحب. كان يرغب في الرغبة. كان يرغب في دقات القلب. كان يرغب في أن يتمدّد بجوار «كلووي» دون أن يعرف معنى الجنس والشهوة، أن يتحول إلى إثارة خالصة غريبة وغامضة، إلى إثارة الرجل المعجزة أمام جسد امرأة، ثم يقول بصوت مرتفع: «دافنيس!»

كان الخروف يرعى العشب اليابس، وكان يان يردد من جديد متنهدا: «دافنيس، دافنيس...»

- أتنادي دافنيس؟

- نعم، أنادي دافنيس.

- هذا جيد، ينبغي أن نعود إليه، قالت إدفيج، أن نذهب حيث لم يكن الإنسان قد شوهته المسيحية بعد. أهذا ما عنيته؟

- نعم، قال يان الذي كان يقصد شيئا آخر مختلفا تماما.

- هناك كانت ما تزال ربما قطعة فردوس طبيعي، تابعت إدفيج، هناك كان يوجد خِرفان ورعاة، وأناس ينتمون إلى الطبيعة. هناك كانت توجد حرية الحواس. هذا هو «دافنيس» بالنسبة لك، أليس كذلك؟

طمأنها من جديد بأن ذلك ما كان يقصده، فقالت إدفيج مؤكدة: «نعم، أنت محقّ، إنها جزيرة دافنيس!»

وبما أنه كان يستلذ تعزيز تفاهمهما القائم على سوء التفاهم، فقد أضاف: «والفندق الذي نسكنه ينبغي أن يدعى: الجهة الأخرى.»

فصاحت إدفيج بحماس: «أجل! الجهة الأخرى لسجن حضارتنا هذه!»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اقتربت منهم جماعة من العراة، قدّمتهم إدفيج إلى يان، ومضوا يشدّون على يده ويحيّونه، ويذكرون ألقابهم ويعلنون عن سعادتهم بمعرفته. إثر ذلك تحدثوا في مواضيع مختلفة: حرارة الماء، نفاق المجتمع الذي يشوه الروح والجسد، جمال الجزيرة.

وبخصوص الموضوع الأخير، لاحظت إدفيج قائلة: «لقد قال يان منذ قليل إنها جزيرة «دافنيس»، أجد أنه محق.»

كان الجميع مبتهجا بهذا الاكتشاف، وشرع رجل ذو بطن ضخم جدّا يعرض فكرة أن الحضارة الغربية آيلة للزوال، وأن الإنسانية ستتحرر بذلك من عبء التقليد المسيحي اليهودي المستعبِد. كانت تلك جمل سمعها يان عشر مرات، عشرين مرة، ثلاثين مرة، مائة مرة، خمسمائة مرة، ألف مرة. وما لبثت أمتار هذا الشاطئ القليلة أن تحولت إلى مدرج قديم. ظل الرجل يتكلم، والآخرون جميعهم يصغون إليه باهتمام، وأعضاؤهم العارية تنظر ببلادة وحزن إلى الرمل الأصفر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

المحتويات

الجزء الأول: الرسائل الضائعة 5

الجزء الثاني: ماما 31

الجزء الثالث: الملائكة 63

الجزء الرابع: الرسائل المفقودة 89

الجزء الخامس: ليتوست 131

الجزء السادس: الملائكة 173

الجزء السابع: الحدود 213

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

ميلان كونديرا

كتاب الضحك والنسيان

كتاب الضحك والنسيان هو الرواية الرابعة في مسيرة ميلان كونديرا الأدبية، وهو عمل مكون من سبع محكيات تتناغم مع بعضها لتُدخلنا عالم كونديرا الرائع، هذا العالم الفريد الذي يمزج ببراعة ما بين العمق والذكاء والفلسفة من جهة، والخفة والهزل والمرح والفكاهة من جهة أخرى. ويقول كونديرا نفسه عن روايته هذه:

«يتخذ هذا الكتاب بكامله شكل تنويعات لحنيّة، إذ تتوالى أجزاؤه مثلما تتعاقب أطوار رحلة تقود إلى عمق موضوع، عمق فكرة ما، أو تقود إلى داخل وضعية واحدة فريدة يصعب عليّ فهمها لضخامتها.

إنها رواية حول تامينا، وفي اللحظة التي تختفي فيها تامينا عن الأنظار، تصبح رواية من أجل تامينا. فهي الشخصية الرئيسة، وهي أيضاً المستمع الرئيس، وكل الحكايات الأخرى ما هي سوى تنويع على قصتها الخاصة، وتتلاقى في حياتها كما في المرآة.

إنها رواية تدور حول الضحك والنسيان، حول النسيان وحول براغ، حول براغ وحول الملائكة».

لوحة الغلاف لبيكاسو

ISBN 978-9953-68-418-5

9 789953 684185

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

www.kutub-pdf.net